علاقة حرجة

عائشة الأصفر

علاقة حرجة

رواية

علاقة حرجة

عائشة الأصفر

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي العراقي «وسام عبد جزي.

– الطبعة الأولى: 11 / 2019 م

– رقم الإيداع المحلي : 466 / 2019 دار الكتب الوطنية بنغازي

– الرقم الدولي الموحد: ردمك ISBN 978-9959-37-089-1

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب بنغازي – ليبيا

– الناشر:

دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان

بنغازي - ليبيا

هاتف 061.2232104 – محمول 091.2090770

«أنَا لَكَ، فَلاَ تُرْجعني إليَّ»

«جلال الدين الرومي»

*****

- 1 -

في العتمة، تتخلخل مفاصل بيتنا، تتباعد وتقترب في حالة اتساع دونما حس، إيذانا بقدومه، ذاك الثوب الأزرق المتسربل، حول القوام الأنثوي المتمايل، ناثرا حواليه هالة من نقط الضوء المشعة في برود، في كل خطوة يقفز قلبي مؤملا شقّ أضلع جدتي لأبي والاختباء في صدرها، يفشل قلبي كما ريقي مع استحالة ايقاظها، وحده أنفي ملتصق بالصدر النائم، فما نفع القرب؟ يدنو وأصفد، وحده الخفقان يتدافع يخنق حنجرتي ويهزّ طبلتي أذني، حالتْ بقعة ضوء بيني وبين ملامح الوجه، صرّيت على عيني والخيال ينحني تجاهي، تصطك أسناني، وتنتفض جمجمتي، وتغزوني رائحة بلل وغيطان، تتمسح يده كتف جزعي، وبخفة ينسحب فوق جسدي منسابا بنعومة ساقية حرير، أهبُّ مكاني جالسا، تلحق نظراتي الذيل الحريري الأزرق نحو الردهة، تتباعد ومضات الضوء تباعا، تختفي، أصرخ، أستغيث منها متعلقا برقبة جدتي، أتشنج، وزبد أبيض سدّ فمي، أرتخي، وحُميّ. وبسرعة، تعضُّ «جدتي» بأسنانها على صرة المسحوق الكبريتي الأبيض، تمرره بسبابتها على مفصلي قدمي اليسار ويدي اليمين خلافا، وبين فخدي أسفل (عنق الكنز)، وبسبابتها الغليظة تدعك أرنبة أنفي، فتغشاني رائحة اليأس، وأنهار أنا في كل مرة تزورني فيها الأنثى الزرقاء، التي أدمنتُها رغم صمتها، رغم الحُمّى، رغم رائحة مسحوق «جدتي»، تباعدتْ زياراتها، وانقطعتْ بعد أن رمتْ «سأعود»،

لكنها لم تعد، وما دمتُ ذكرا وتجاوزتُ السادسة، فقد (فات سوَّها) تصرّح جدتي، وتسخر أمي، وتبتسم الردهة.

فماذا لو علمنَ! كبُر ذكرهنّ وفتح مدينة اسمها «غزالة»، فستانها ليس أزرق كما أحلم! وتخلو من رائحة الطين المبلول التي أشتهي، الرائحة الممتدة الغائرة عميقا، بعيدا، تثيرني الزرقاء، أتبعها، أتبعها تسحبني فيها. شقيٌّ أنا، فلَونُ «غزالة» رمادي، ورائحتها مُحايدة، كمحطات المُدن مصنوعة الظل، وأنا العاشق ظل الشجر والدوالي وأكمام النخيل، وسيوف الرمل، ظل حقيقي كجرد عمي «الغناي»، يَشي بالطمأنينة واليقين.

تدفعني الريح تحفّ أقدامي بالكاد تلامس الثرى، كلّ همّي الخروج من هنا، لا أريدُ أنْ يَطالني ما طال «المستبلي»، ولا حتّى رصاصة طائشة، ولا حتى تقييد معصمي، كيف لو رأوني أدفنه ذاك الذي أجهله!؟ ساعدتني على حملهِ للسيارة لكنّها لا تعلم أين ردمته فهل عَلِموا؟ لا شكّ هناك نصبوا كاميراتهم، فأين ألصَقوا بي أجهزة تعقبهم؟ تتوشوش الدروب تتآمر علي، وأصابع الريح تتخطفني، والفرار، الفرار، إلى أين؟

إلى حيث تريد الريح، إلى حيث ذلك اللحن المُغري، إلى حيث لا أعلم يسير بي درب ترابي متحرك دونما إرهاق، تتسع رئتاي مع خطواتي، مع تباعد الضاحية، يئستُ «فتحية»، ولم أفكر في «غزالة»، ولا تهمني «لمياء»، ولا أمر صديقي «فضل»، ولا صندوق «بو شنوارة».

برشّة ماء داعبتُ تلك الخُنفَساء فيما كانتْ تحاول تسلّق السّور للخروج،

برشة ماء أعادتْها جدول الشجرة مثل كلّ مرة.

خلعتُ كل شيء على ذاك الرّف الصغير، ساعتي ومحمولي وخمسين دينارا، فلم أكنْ أحمل خاتم زواجنا، وفي صرّة صغيرة كنتُ خبأتُ دعواتِ أمّي وابتسامتها، تأملتُها كثيرا، نفضتُ الصرّة وغادرتُ. خلعتُ كل شيء، أو هكذا خيّل إليّ، استسلمتُ للريح، للدرب الترابي، لا أذكرُ مِن خلفي غير كَوْم حجارة، وأوّل قُبلة حُبّ سترتها عتمةٌ وصندوقُ قُمامة.

خلعتُ كلّ شيء.. إلا نعليّ.

* * * *

اخلعْ نعليكَ واقتربْ:

ثلاث سلال كبيرة.. كبيرة، ملونة السعف، مغروسة بتجاور على الضفة الدانية من النهر الغريب، ينساب الماء رقراقا بوتيرة هادئة وفي اتجاه واحد، مغمورة السلال في ضفة نهرها ومرتاحة، يرشح الماء من مسامات النسيج السعفي، يتجدد، يعوم محتواها.

على ضفاف النهر الخالد أنتَ، تنشد العبور! بادر «شيخ النهر».

وقور ومهيب، مسترسل شعره كحرّية، وبنقاء الثلج كسلام، وخصلة أمامية جهة اليمين بلون الحناء، وجه رقراق طغى على ما برز منه، كل ما فيه يشع، وهالة ضبابية ترسم أطرافه تنضح بالنداوة، بالبرد، بدفء الزيت، بالسلام. سرى فيّ بعض منه.

أمامك هذه السلال الثلاث، كما ترى.

الأولى تعجُّ بالمُقل، والثانية بالقلوب، أما الثالثة فبالذواكر، من يرغب عبور النهر عليه أن يخلع إحدى متاعه، مقلتيه أم قلبه أم ذاكرته لتلحق بالسلال، ويمد يده ليتناول بديلاً عنها.

– مثير هذا أيها الوقور، أريد ذاكرة تنسيني خوفي. أنا عبد ذاكرة الخوف يا سيدي.

– قد تتحصل على ذاكرة ملك أو راعٍ أو مجنون، ربما عيني أعمى أو امرأة أو قلب شاعر، نبض صوفي أو عين عربيد، ربما لحيّ أو لميت! لا أحد يدري! فما الذي تنوي خلعه؟ عينك؟ قلبك؟ أو ذاكرتك؟

ستعيش بغيرها عاماً، قد تعبر بعدها النهر إلى الخلود، سبقك كثيرون، وقادم بعدك كُثر! ففكر على مهل.

– وكيف سأعود إلى هنا؟

– وهل كنتَ تعلم أنك ستصل؟ لا تستعجل الأمر، ستعود إلى هنا بعد العام إن سارت الأمور كما يشتهي النهر.

– أبداً أيها الشيخ، خرجتُ فقط أريد العبور، لا أعرف كيف ولا أين سأصل، وهل استغرقت رحلتي ساعات أم أيام، لكنني كنت شبه طائر، تيار ما دفع بي إلى هنا.

تأملتُ السلال الراسية، الطافحة في اهتزاز مرتعش، وكأنها تريد التحرر من جاذبية الثرى المغمور، سلة المُقل تضج بالنظرات المختلفة، ما زالت المُقل تتمتع بأهدابها المبتلة، عيون سود، وأخرى بلون العسل، وغيرها ملونة، غائرة وجاحظة، حالمة وشاردة، وديعة وحادة، مؤثرة نافذة، وباردة سلبية، تسبح المُقل، تتدافع وتتراخى تماهياً والتيار.

فماذا لو استبدلتُ مقلتيّ؟ هل سيغير هذا من الأمر شيئاً؟

يبتسم الحكيم، وكأن له في نظرات العيون رأياً آخر.

. ربما؟ فهذا يرجع لك.

أمامي سلة القلوب، لا تختلف إلا في أحجامها واتساع أوردتها ولون غلافها، فمنها الطري النضر ومنها المثقل ببياض الشحم، وكأنني أمام قلوب مَشْرَحة، سألته:

أو ليست القلوب مكان المشاعر، دفق الحب وخفقة الأثر؟ أو ليست رعشة الخوف والرعب؟ أتعبني قلبي الغريب، بقدر ما كرهتُ هذه الضاحية وأخافها ففي أشدّ نوبات ارتعادي منها، أجدني أهربُ إليها، أدفنُ رأسي في صدرها المتحجر الملغوم، تماما كمن يدفن رأسه في صدر أمّه الغولة! كيف يكون الحبيبُ غولة! كيف نخافُ الشيءَ ونتعلق به في آن يا سيدي؟!

– تأمل، بعضها يخفق قوياً وأخرى تنبض، ترتعش، وتهدأ لتنام! القلوب مَرْبَع المشاعر.

– لكنني يا سيدي أراها هنا مجرد أوردة تضخ الحياة والأكسجين، فمن الذي ألصق بها المشاعر؟ أحس بمشاعري في خلجات فؤادي، ومهوى حاجزي.

– أيضاً القرار لك يا ولدي.

وإلى السلة الثالثة حيث الذواكر.

مزدحمة ومتراصة وكأنها المتاع الأكثر استبدالاً، وهي لا شكل لها ولا لون ولا رائحة، أكياس مائية هلامية شفافة مائعة، مثل بالونات مملوءة بالماء في استطالة، متنوعة الحجم، تتلامس بخفة!

– وماذا عن الذواكر يا شيخنا؟

– استبدلها أصحابها بأخرى، هي ذواكر لسادة وعبيد، حكماء وجهلة، سعداء وتعساء، رجال ونساء، أو ميت سقطت ذاكرته هنا، والمدهش قد تكون ذاكرتك عصيّة يثبت قاعها ملتصقاً بك، حينها ستُفتَن بصراع ذاكرتين! وأنت

والحظ، فلعلك تكون ذا حظ عظيم. فكرْ وتمهلْ!

– الحقيقة لن أفكر، سأستبدل هذه الذاكرة الشقية التي لا تحمل سوى الخوف والبؤس.

– ما ذنب الذاكرة؟ لماذا تعلقون بؤسكم عليها؟ ألستم مَن صَنَعَها؟! إنها خُرجٌ تركنون فيه كل أفعالكم، وبلغة تواصلكم هي «هارديسك».

– بل نركن فيه كل الصور، ما فعلناه، وما فعله الآخرون بنا، وما فعلوه بغيرنا، ووحدها الصّور الموجعة تغرس أسنانها لا يمكن اقتلاعها.

سأخلع ذاكرتي يا سيدي. بسرعة أرجوك.

– قد لا تنسلخ كل ذاكرتك، فتبقى بذاكرة متشظية؟

– لم أفكر في ذلك يا سيدي.

– ستغدو ذاكرة جديدة بهيئتك القديمة! ستغدو شخصا آخر.

– أيضاً لم أفكر ولم أفهم ماذا يعني ذلك؟

– ستكون في نظر ذويك مجرد شكل.

– لم أفهم. ألن تكون معي هنا؟

– متى أراد النهر، ولا أظنك ستتعرف عليّ! ويبتسم. تعال نجلس هنا تحت هذه الشجرة، للأشجار ذاكرة لكنها صامتة، سنكون جزءا من ذاكرتها، أترى النهر يا بنيّ؟ أنه يسير في اتجاهٍ واحد، النهر لا يعود للوراء؟ الشمس، وكذا القمر، وكل الطبيعة؟ وكذا نحن، كل الموجودات تسير إلى الأمام.

– لكنّ قَومي يسيرون إلى الوراء، حتى أنّ لدينا في حيّنا لعبة السباق بالمقلوب.

– يدور الناس حول أنفسهم، لكنّ الزمن لا يأبه لهم، يسير بهم إلى الأمام، الزمن لا يعود إلى الخلف، سواء ساروا في دائرة أم في منحنى.

– لم أفهم يا سيدي.

– نحن نذكر الزمن ماضياً لن يعود، ونتوقعه مستقبلاً قد يأتي وقد لا يأتي، الحاضر هو الزمن الحقيقي وهو أقصر ما يكون، هو اللحظة التي نعيشها لتصبح ماضياً تعقبها لحظة الحاضر.

– أصدقك يا سيدي، لكنني لم أفكر في ذلك ولن أفهمه.

– كيف؟ وأنت فكرتَ في أكبر من ذلك؟ فكرتَ في استبدال ذاكرتك، في عبور النهر للخلود؟

– ربما ليس لدي وقت لأدرك أنّ الزمن يسير إلى الأمام كما تقول، ربما هذه أمور لا تعنيني، مللتُ ارتعاش أطرافي وبرودتها، تمرّ الغيمة بعيداً لتمطر بعيداً، تنشق الأرض، يموت القمح مقبوراً، جفّ كفّي كما حلقي، والموت يأتي جهاراً على قدميه ليخنق الفرح، رأيت الزمن يسير بالحياة إلى الموت، فهل الموت هو الأمام؟ هو اتجاه الزمن يا شيخي؟

– الموتُ ليس هو النهاية الوحيدة، وليس أبديا، كل مغادرة وأي توقف لأيّة علاقة هو صورة موت، لتبدأ حياة جديدة!

– اعذرني لم استوعب، موت وبداية! أظنني أبسط من ذلك.

– طيب، أقدر ذلك، ما أسمك؟

– «جبر». «جبر» هو اسمي يا سيدي.

حسناً يا «جبر» ستنام معي الليلة قبل أن تغادرك ذاكرتك.

– ستفقدني زوجتي، وستقلق شقيقتي، ولكن لا بأس.

يبتسم الحكيم الذي لا أفهم كيف تجعله إجاباتي يضحك؟

بدأت الشمس في تقبيل النهر الخالد... تنغمس فيه رويداً رويداً في حُمرة جمرة تُطفئ لهيبها في البارد، سحابي اللون دونما سحب، ربما هو المَغيب، تتهامس الشجيرات القصيرة على الضفاف الممتدة، وروائح غريبة بدأت تحلّ لا أعرف مصدرها، ونارٌ قرب مجلس أعدّ لشخصين في مكان ارتفع قليلاً غير بعيد عن السلال الثلاث، أيضاً لا أعرف متى أُوقدتْ النار، ولا من أعدّ المجلس؟ قابع الشيخ مكانه يحرك مسبحته لم أنتبه إليه وأنا شارد في الشمس... يشير بيده نحو المجلس، يبدو أنه أُعِدّ على شرفي، أرافقه في خشوع واستسلام وكأني بدأت أستشعر قوى خفية تحرّك المكان لكنني مرتاح.

– من أتى بهذه المائدة الوافرة يا سيدي؟!

– المساء، كل شيء هنا يأتي به المساء!

الأسرار والرسائل والذكر... والتحليق...

لماذا في مدينتي القتل والوشاية والتآمر في المساء. الشِعر والجنون والألحان في المساء! البوح والنساء والمُجون جميعها مساء! الخيانة وتقارير الخيانة كلها مساء! لماذا يغتصب مدينتي أعداءُ الشمس في المساء؟

يباغتني الشيخ في كل مرة بسؤال، وعيني على السلال الثلاث.

جُنّ جنون المساء

وجُنّ جنونُها لا أدري لماذا؟

تتزاحم المقل وكأن صوراً تعرض من السماء، تشخص أبصارها عالياً في تدافع إلى أعلى السلة، القلوب بإيقاع نبضها المختلف شكلت سيمفونية رقص مرتعشة، ما لا أفهمه غليان الذواكر الهلامية الرطبة وهي تتزحلق فوق بعضها تاركة أمكنتها لغيرها! ربما استفزها رذاذ مطر محبب بلا غيوم.

– ننتظر المطر منذ سنوات أضاع طريقه إلينا يا سيدي.

– لا تغبطوا المطر، أنه لا يقبّل ما يشاء بل ما تريده الريح! مطر الضاحية حبيس صندوق! حبستْه رياحهم.

– رياح مَن؟ مطر في صندوق!!! سأنقل كل ما قلته لأهل مدينتي يا سيدي، سأخبرهم به.

– يبتسم، هيا اقتربْ من المائدة، لا شك أنك جائع فنحن في ساعات السّحَر.

– ما أغنى هذه المائدة يا سيدي! لكنني لا أتناول السمك المجلوب بالسنارة، جارنا عمي «الغناي» قال لو تعلمون كم تتعذب السمكة عند ابتلاعها الخطّاف وهي تحاول عبثا التحرر.

– ونحن نقنص الغزلان الحوراء نطلق عليها الرصاص! فكيف بصيد السمك؟ بالمناسبة، بعض التجارب لا نعود منها فنتعظ، أو حتى نبوح بها،

بعض التجارب قاتلة، وبعد أن طالَ القنصُ الشّمس غابتْ الدّهشة، ليتكَ تدرك معنى غياب الدهشة يا «جبر»!

– وهل تُقنَص الشمس! تتحدثْ كما عمي «الغنّاي» تصعُب عليّ بعض كلماتك مع جمالها.

– أنت بسيط وطيب يا ولدي، مُدّ يدك إلى المائدة، هذا السمك لم تصله صنارة.

– لو تأذن لي بأخذ هذه التفاحة لزوجتي «غزالة» هي تحب التفاح، مثل أخي «صالح» ليتنا نعرف سجنه؟ هيا، متى ستنزع عني هذه الذاكرة يا سيدي؟ هيا.

– أخبرني أولا، ما ذنب أخيك؟

– لا نعرف! منتصف 2011 أُتهم بالتحريض على النظام السابق، وحمْل عَلَمه ونحن لا نعرف أي نظام يعنون؟ ولا لون العلم؟

– كيف؟ لا تعرفون؟ أي علم وأي نظام؟ ثم كيف يُتهم بالتحريض على النظام الذي حمل علمه!

– لا أظنه يعرف يا سيدي، فهو مفتون بحمل الأعلام، وحملَ كل أعلام الأنظمة السابقة وما أكثرها، احتفى بأعلام الأمويين والعباسيين والأغالبة والفاطميين والمماليك والأتراك والصنهاجيين، أعلام الموحدين، علم المملكة والجماهيرية، ولذا لن يعرف أي علم يقصدون. موتور أخي من العدوّين، فالنظام اتهمه بالتحريض ضده، والمعارضون اتهموه بحمل علمه.

– لا تبالغ يا «جبر» لا بد أن أخاك مذنب، بعض المواقف الرخيصة نشتريها بثمن باهض تهشمنا، ليس أشدّ وجعا من أن تُخطيء في حياتك مرة واحدة، واحدة فقط تَسْحق كل نجاحاتك، لتكتشفَ متأخرا إنك تسرّعتَ!

قل لي، مِن أين قادم؟

– حتى 2011 كنا ثلاثتنا وأختنا «لمياء» مع والدينا في بيتنا الكبير في «حي2»، مشرّع على رائحة البحر وزُرْقته، ومُحاط ببيوت الجيران المختلطة أنسابهم، في «حي 2» غربي «القصر»، أخي الأكبر «نصر» طبيب بمشفى «ابن سيناء» بالمدينة، له ولدان أعمارهم في الثامنة والسادسة، وبنت في الرابعة، ويسكن الطابق الثاني.

– تقطن مدينة «القصر»؟

– أو تعرفها يا سيدي؟

– كيف لا؟ وهي مدينة بجذور البادية وعلى البحر! تُعرَفُ «بالقصر» وتعشق الخيمة!

– في الطابق الثالث والأخير يقيم «صالح»، أخي الأوسط، يكبرني بسنوات (مهندس نفط)، تخرج من جامعة النجم الساطع، يعمل بالحقول النفطية، يتغيب فيها لأسبوعين، ويعود ليقضي أسبوعين رفقة زوجته وطفله ذي العشرة أشهر، نلتقي جميعاً في الطابق الأرضي حيث والدي وأمي وجدتي لأبي، التي توفيت قبل 2011 بأعوام. لا تزال خراريفها عالقة بذاكرتي ليتك تُبقي على حكاياها يا سيدي، كانت جدّتي درع الحماية، عندما احتمي بظهرها، أشعر

بأن ما من قوة على الأرض تصل إليّ، يبدو ظهرها كبيرا جدا، أكبر من سور بيتنا، وفي كل حماية تبرّر لأمي بخشيتها عليّ من انتقام «المرأة الطِّيرَة»، المرأة التي اغتاظتْ من صغيرها، فأوسعته ضربا حتى ماتْ بين يديها، ندمتْ ولامتْ على صويحباتها اللائي اكتفين بالفرجة ولم يعتقنه منها، فانتفضتْ طائرا ينتقم من الأمهات بقتل مواليدهن الذكور، وتغني: «فاطمة وفْطِيمَة وسَالْمَة وْسلِيمَة انْعَدّي على ذَكْرْهَنْ لُو كانْ يرْعَى بقَرْهَنْ»، بتّ أخشى كما «جدتي»، أن تكون هي صاحبة الثوب الأزرق التي أنتظر، ربما فقدتْ مولودها، عام توفيتْ جدتي كنتُ متحصلا على دبلوم معهد عالٍ في الحاسوب، بينما «لمياء» تدرس بالجامعة.

– فهمت يا ولدي في «حي 2» حتى 2011... حتى بدأت الحرب. تابع.

– نعم سيدي، «حي 2» على البحر، يبدأ مِن على جانبي الطريق الرئيسي الذي يشقّه حتى الطريق المزدوج الموازي قبالة كورنيش البحر، جدران البيوت لا تستر إلا العورات، تنفذ منها وإليها كل الروائح، تستقبل رائحة البحر في غضبه وهدوئه ونسماته، هدير موجه، لونه، عضلات سطحه المتقلب تخبرنا بالكثير، نستسقي أخباره من جارنا عمي «الغناي»، كان يترجم كل الروائح القادمة من جهة البحر، ضحك الجيران مرة وأخرى، ثم تيقنوا لما يقول، ربما تنبؤات عمي «الغناي» وتهليلاته كانت سرّ طمأنينتنا، لولاه لقتلنا خوفنا، هو شحيح الكلام قليل الابتسام لكن وجهه مكتظ بالبشاشة. يلفّ جَرْدَه (عباءَته) على جسده النحيل ثم يرمي بطرفه على كتفه... يقطع الطريق الرئيسي الأسفلتي الذي يشقّ

وسط الحي ليصعد التلة المقابلة، فلا يفصله حينها عن البحر إلا طريق الشط، لكنه يقف على الجانب المزدوج الأول، دقائق ليعود بما قاله البحر ولا يفصح به إلا بعد أيام. ربما هذا هو سرّ اهتمام أهل الحي من الجيران المعجونين من كل ثرى القصر بعمي «الغناي»، مزيج هم كعائلة واحدة.

– لا يعلم الغيب إلا الله يا ولدي؟ هل تصدق أن البحر يتكلم يا «جبر»؟ (يبتسم الحكيم) وأنت راشد تجاوزت الثلاثين.

– بل تجاوزت الخامسة والثلاثين يا سيدي.

أنا أصدّق يا سيدي كلّ مَن أُحب.

ولذا صدقتك أن المساءَ أتى بهذه المائدة.

وأني قد أعود هنا بعد عام من استبدال ذاكرتي!

ونحن نحبّ عمى «الغناي» ولهذا نصدّقه.

– نبرتك مكتظة بالشجن، احكِ لي مما قاله عمك «الغناي» يا «جبر»! احكِ

– نعم... كانت مدينتي «القصر» منذ الخمسينات وحتى الستينات مجرد محطة للقادمين من كل صوب، بحكم توسطها ساحل البحر، ولم تكن إلا نجوعا بدوية مسكوبة على سهلها الخصب، ترعى وتزرع برحمة المطر، بعض الحضر الساكنين على الشاطئ يطلبون البحر ويهادنونه، ولا تعرف من زينة المدنية ذرة، حال أغلب من حولها، ترعى الإبل والسمك معاً! لا أعرف لم أختار «الإغريق» شرق البلاد وتجاوزها «الفينيقيون» إلى غربها؟ قيل قربها

مستوطنات فينيقية اسْتدُل عليها من المقابر التي وجدوها، ومدفونة تحتها قرية فينيقية باسم «كراكسط»، وسموها الرومان «اتشينا»! أما هذه بُنيتْ أثناء حكم والي يسمى «أحمد راسم باشا»، يكفي يا سيدي هيا انزعها لم أعد أحتمل.

– سأفعل، لكن أكمل يا ولدي، أكمل.

– أخبر البحر عمي «الغناي» إن الغيث سيعم «القصر، وتسيل الأودية، ويلمع نجمها في السماء، ستشيد فيها القصور والجامعات والقاعات، وتقام فيها المهرجانات والاحتفالات، وسيزورها الحكام والسلاطين، وحدث ذلك يا سيدي.

– يا له من عارف عمك «الغناي» وماذا أيضاً يا «جبر»؟

– الكثير يا سيدي لكن الأهم ما أخبره به البحر في 2001.

أخبره البحر العكس، أخبره عن حزنه على «القصر»، وأنه بعد سنوات ستنطلق منه ألسنة النار، من البحر، لتلتهم الأخضر واليابس، وشُهب حارقة من السماء ترميها عيونٌ زرق، وستهتز الأرض تحتها لتتأرجح الديار والأعمار، والنار تعربد في شوارعها ستفني الحرث والنسل، وستُقطع فيها الرؤوس، وتُسبى القاصرات المأسورات المجلوبات من كل بلاد، ويُصلب الرجال في الميادين، ويتلوّن البحر بدم النحر، نحر البشر، وحدث كل ذلك يا سيدي! حينها كان جرد عمي «الغناي» يتناثر قطعا في فضاء «القصر»، ثم يتجمع رقعة كبيرة تغطي «حي2».

– وماذا فعل أهلها يا «جبر»؟

– كانوا أنفسهم يتقاتلون فيما بينهم، فيما كان البحر يصبّ عليهم ألسنة نيرانه، والسماء تقذف بجهنم، وطرف ثالث يحشد ويغلب طرفاً على الآخر، الحرب لم تتوقف، ونزح ساكنوها، ولا أحد يدرك شيئاً مما يحدث؟

– فغادرتموها؟

– لا تنقض عليّ جراحي يا شيخي. وكأننا خلقنا للحرب والتشرد، فيها معركة «الْمَرْتومَة» الشهيرة 1915م التي هُزم فيها الطليان، غصّ فيها وادي «اتْلاَلْ» بأكوام الجثث البشرية، حينها.. سحابة سوداء غطت «القصر»، والرصاص يخترق الرؤوس بالجملة، كان جند الطليان يربطون عشرات الرجال بحبل واحد أمام أبواب منازلهم، ثم يقتلونهم، ومنهم من رمى بنفسه في البحر فرارا من التمثيل، تمثيل ومذابح لثلاثة أيام متتالية انتقاما لهزيمتهم، موعودة مدينتي بالفواجع يا سيدي، قال فيها الشاعر «بن رويلة المعداني» مخاطبا إبلَه:

ما تْرْتَعِي والدَايلين نَصَارَى،،،، بَلاَ يوم يِدّعْكَنْ الْخِيلْ سَكَارَى.

ما تْرْتَعِي يا شُومَة،،،،،، بلَا يوم كِيفْ اتْلاَلْ فِي الْمَرْتومَة.

في حيّنا نصارى تعني الأجانب يا سيدي. بضع سنين وتسرْبل إليها الوطنيون مِن كل صوّب لعقد أول مؤتمر للوحدة الوطنية، أيام الجهاد.

* * * * *

– 2 –

جئت لأنزع هذه الذاكرة

ماذا سأتذكر لك؟

بداية 2011 عندما بدأت الزلازل، وأثارت العواصف الأتربة الحمراء لتتشكل على هيئة زهور خيّل إلينا أنها ربيعية، وخرج الناس في بعض المدن لملاقاة الربيع العاصف، وخرج شرق البلاد باكرا عن سيطرة النظام، وبقيتْ «القصر» والعاصمة وما حولها تحت نفوذه، حينها أعتقل أخي «صالح» مهندس النفط، من قبل مسلحين بعد أن أحرقوا سيارته، واقتيدَ لا نعرف إلى أين؟

حينها..

كنا ميسوري الحال، أبي موظف بوزارة الزراعة ويدير جمعية زراعية، فيما رفع دخلا أخويّ الطبيب «نصر»، ومهندس النفط «صالح» من وضعنا كثيرا، استفدنا من امتيازات «صالح» في العلاج المجاني بالعيادات الخاصة، وفي قيمة تذاكر الطيران، والإقامة بالفنادق على حساب الدولة، شأنه شأن موظفي قطاع النفط الذين فوق هذا يتقاضون مرتبات عالية وبالعملة الصعبة، لم يغب عن عيني كيف يطلّ محملاً بالهدايا والسكاكر في كل مرة، وفي كل مرة تنتظره «نائلة» عروساً، كانا سعيدين حدّ الثمالة أيها الحكيم، وكانت أمي

تحب زوجه كثيراً وتدلل ابنه أكثر، حتى إن أختي «لمياء» تنبهها إن هذا قد يزعج «نصر» وزوجته، لكن «نائلة» ملكتْ قلبها بحضورها وخدماتها التي لا تنقطع عنها، تفتح عينيها عليها مع مائدة الإفطار قريبة منها، ولا تغادرها إلا مساءً بعد الاطمئنان على تناولها دوائها، وترتيب مرقدها، غير معتمدة على «لمياء» في ذلك.

انهارتْ أمي بعد اعتقال «صالح» سمح الطلة كما تتغنى، «صالح» شديد الحيوية والقبول والحضور في «حي2» كما في بيتنا.

كان «صالح» يعيش خوفا من نوع آخر، دائماً يقول «أخشى على نفطنا»، وعندما بدأت أحداث «2011»، هلّل للتغْيير، وكانت خالتي (رحمها الله) تخشى عليه وتحذره من مغبّة تنظيره، تحذره (حتى لو «القصر» بعيدة عن العاصمة، لكن عيون الأمن ما عليها بعيد يا «صالح»)، مع إنها لا تفتأ مناكفة مع أخت زوجها بشأن النظام والتغيير.

– ولهذا ألبسوه تهمة!؟

– ربما بعد شهرين ومع بداية الصيف أخبرنا ضابطٌ صديق طلب منا الصمت خِشيةً على نفسه أنّ «صالح» مُتهَم بالتحريض على النظام، ويحتمل نقله إلى العاصمة، والطرف المعارض للنظام يهمس لن ننسى له حمله علم النظام نفسه! ونحن لم نستوعب اتهام الطرفين العدوين!

بقيتْ «نائلة» في شقتها، فالطريق الساحلي إلى الشرق حيث أهلها مقفل والاتصالات شحيحة، وبعد اشتداد القصف من قبل طيران الناتو لجأ

من استطاع إلى المزارع هرباً من الموت تحت أنقاض المباني، كانت الأرض تموج، تشتعل تحت الأقدام المرتبكة، كانت «القصر» تُمطر بالصواريخ والقنابل والغازات من البر والبحر والجو، لا نعرف أين سنتلقّى الضربة، علقتْ «نائلة» وطفلها بالطابق الثالث أثر سقوط قذيفة بشقة «نصر»، بالثاني، ونشوب حريق حال دون الوصول إليهما، فيما كانت الشظايا وكتل الجدران تتساقط على الدرج، لحظتها استطاعت زوجة «نصر» وأطفالها الهبوط إلى طابقنا، كان وصولنا إلى زوجة «صالح» وطفله وسط النار والقواذف والغازات الخانقة متأخراً، وجدناها هامدة بين الكتل، وهي تحتضن طفلها في حالة اختناق، يبدو أنها كانت تحاول النجاة به والهبوط عبر الدرج المنهار، لم تحتمل أمي الصدمة، فبعد شقيقتها، «صالح» الذي لا تعرف مصيره يفقد زوجته وولده؟!

انتهت عائلة «صالح» في لحظة.

تزنّ الطائرة بدون طيارها، لا شك أنها تسجل نبض أمي المتلاحق، وضغطها المنفلت ودعاءها بالهلاك على من كان السبب، لا تسلني كيف دفناهما... لا تسلني أرجوك.

لملمنا فقط ما تحمله سيارتنا الصغيرة، تكدسنا أنا وأبي وأمي وأختي وزوجة «نصر» وأولاده الثلاثة، الجميع مرتمي داخل المركبة الصغيرة بعض الأوراق الثبوتية في حقيبة يد أمي مع حليها وزوجة «نصر» فقط، كانت ابنة «نصر» تتشبث بدميتها فيما تحاول أمها نزعها فلا مكان لها بالسيارة.

قرر «نصر» المكوث في مشفى «ابن سينا» المكتظ بالجرحى والقتلى والمبتورين، لا دم ولا دواء، كوادر شحيحة أبتْ إلا أن تقوم بالواجب. كان «نصر» يتجنب النظر إلى زوجته وأطفاله وهو يقبّل رأس أمي ويد أبي، لا أستطيع أن أنسى بكاء صغيرته ذات الرابعة، وهي تمد ذراعيها تطلبه «باتي»، «باتي»، وأمها تداري وجهها وراءها، لن أنسى الدموع المنحدرة على خدي ولده الأوسط، بينما ابن الثامنة يكابر ويذهب ببصره بعيداً من زجاج النافذة المشقوق، لن أنسى ذلك أبداً، أما «لمياء» فلا أظنها تفكر بجامعتها لحظتها.

أصرخُ... أنزع هذه الذاكرة أنزعها حالاً، أتوسل إليك سيدي.

– اهدأ «جبر» اهدأ، المؤمن مُصاب يا ولدي.

– أنت لم تعش رعب القناصة يا شيخنا، ولا مصير خالتي وشقيقة زوجها المتناكفتين واللتين التجأتا إلى المزرعة فاختلطت أحشاؤهما بعجين الخبز عند التنور المشتعل إثر صاروخ حراري. لم نفهم، كان المتقاتلون هم أنفسهم في الطرف هنا والطرف هناك، وكأنهم يتبادلون الأدوار، وهم ذاتهم الذين استوقفونا بالحاجز الأمني، وانتزعوا حقيبة يد أمي، فانتزعوا معها كل ما لدينا، وقدّوا قميصي عن كتفي ليروا إن كان مرسوماً عليه أثر السير الجلدي حامل «الكلاشنكوف» أم لا؟

كانت لديهم نفس الملامح، ومبللين بذات الثرى المعجون، لم أفهم كيف يتقاتلون مع أنفسهم، نحن لم نكن مع أي طرف، ولا نعرف تحديد

الأطراف ولا مَن يقاتل مَن؟! فقط ندرك أن الحرب قائمة، وأن حياتنا رهن قناص، رهن قذيفة، رهن قصف يقال عنه خطأ طيران.

جلهم هنا يعرفني «جبر»، لكن لا أحد يرى دروب الدم الساخنة التي أتزحلق عليها لتنتابني رغبة التقيؤ.

– ألم تدرك بعد أن الموت ليس بيد الرصاص ولا القنابل! ألم تصب قذائفه شقة «نصر» لكنه حصد عائلة «صالح»؟ نحن نقدم القرابين لتستمر الحياة.

– وبمن ستستمر الحياة إذا صرنا كلنا قرابين؟

لم تحتمل أمي... ففوق عائلة صالح فقدتْ كل ما تملك، لم تحتملْ، نطير بها في أروقة مشفى الضاحية الخالي من الأطباء والأدوية، لتبيت فيه أسبوعاً، ثم أدخلت غرفة العناية لليلة واحدة لتلحق بعائلة «صالح»، ولحقها أبي بعد شهر واحد.

في ذات المشفى تعرّفتُ إلى «غزالة» التي جاهدتْ في إنقاذ والدتي، لكن الموت انتصر، انتهى المطاف بنا بين ميت ومفقود.

لحق «نصر» بزوجته وأولاده في ضيافة أخوالهم بالعاصمة، حتى استقل بيت استأجره قربهم، وبقيتْ «لمياء» تنتقل فيما بيننا، إلى أنْ انضمتْ للجنة تمكين المرأة، فصار جلّ وقتها السفر إلى تونس، لم يبق لي من «حي2» إلا صديقي «فضل»، ارتدنا مدارس الحي معاً، وملعب كرة القدم معاً، وبتنا الليالي في مزرعتنا معا، لينتهي بنا المطاف في هذه «الضاحية» البعيدة.

قال والدي، إنّ جدّي، أخبره عنها جدّه، الذي أيضاً أُخْبِرَ من قبل أجداده، عن هذه الضاحية التي وصلناها، إنّ هذه الضاحية كانت واحة صغيرة وسط فضاء شبه متصحر وأودية، لا هو بالرملي ولا بالصخري، ولا هو بالسهل المنبسط ولا بالجبل المرتفع، تسيل بها الأودية فترتوي وتجف لتخصب، يروي الزيت ثراها فيسري الدفء، تعربد الحرارة فيها بين وهج القيظ ولفح الصقيع، تثور فيها الأتربة وتتشكل بيوتاً لهوامها وحشراتها وحيوانها، قيل إنها تتكئ على نهر غير مرئي مسكون بالجن والملائكة والأرواح يسمى نهر «الخروج»، آبارها لا تُحصى، وتتناثر فيها بقايا قصور قديمة من عهود موغلة في القدم، ونقش بلغات قديمة، جاءَها شيخ بنيَ بيته في مزرعة محصّنة من ظلال أشجار الزيتون، لا يعرف من أين لفيَ؟ لكنه صار ركيزة للنازحين، والمرتادين، الذين وجدوا في الضاحية مقراً وسكنا لهم من مدنهم الطاردة المتشابهة في النفي والنزوح.

قال أبي، عمرت الضاحية الأزلية بنازحيها ومرتاديها، الذين صاروا مواطنيها الأقحاح بالتقادم، كل قادم يحمل معه مدينته بيتاً مصغراً وذاكرة موروثة. هي لا تختلف عن «القصر».

توفي الشيخ «الصالح» الذي حضن الجميع، دُثر بعباءة حتى حان وقت دفنه، صلوا عليه ليجدوه حمامة!

– ماذا؟! صلوا على حمامة!

نعم. ودُفن الشيخ الحمامة في روضة أعلى التلة شمال الضاحية لا تزال

مزاراً للمريدين والمعتقدين بالصلّاح، زارتها أمي قبل 2011 بشهور، غرفة صغيرة من الطوب بسيطة وبدائية البناء، بابها قصير، منخفضة الجدران تعلوها قبّة دائرية مفلطحة، مطليّة باللون الأبيض من الداخل والخارج وفُرشتْ أرضيتها بالرمل الناعم، تعبق برائحة الجاوي والسكينة، ونسيم رذاذ بارد، ظِلّها كرداء أمٍ يغطي كل قبورها، تنتشر فيها بشكل عشوائي أقداح ماء للطيور والحَمام الذي تكاثر فيها بشكل لافت! زارتها أمي، قرأتْ الفاتحة وسكبت أمانيها بمبخرتها ودعتْ لنا، واقتطعتْ من ضريحه شريطاً أخضر، عقدته في زاوية سيارتنا تبركاً من حوادث الطرق، ها هي الطريق قادتنا نازحين إلى الضاحية البعيدة. فهل كانت أمي تعلم بعودتها؟ لتقيم وأبي إقامة دائمة في روضة الحَمَام، مزار الشيخ «الصالح»!

رأيته المذيع، على الشاشة يحرك شفتيه أمام البيوت التي تحترق، بيوت المؤيدين، والمعارضين، وبيوتنا، لا شيء سوى الركام والنار والدخان، رأيته (حي 2) مدمراً على شاشة الجزيرة، قيل لي هذا المكان في «دمشق» وقال آخر أنه في «صنعاء»، وثالث هذه «بغداد».

فهل (الحي 2) يطير؟!

انزعها... انزعها عني يا سيدي، وإلا ارتميتُ في هذا النهر.

– إنها الحرب، دعني أحضنك يا ولدي (نشر ذراعه فوق رأسي كريشة طائر كبير) وسألني: لم لا تعود إلى زوجك وأختك يا بني؟ أغلب هذه الذواكر استبدلها أصحابها هرباً، أو سقطتْ سهوا، أخشى عليك أن تُبتلي بأتعس

منها.

– لا يا سيدي، لا أظن أتعس من ذاكرتي ذاكرة! أرتعب، كأن غولا يلاحقني، رأيته مصلوباً شبيه «خالد»، الابن الوحيد لجارنا، وأخبرني «فضل» إن الداعشي الذي طعن «خالد» يشبه أخي «صالح»، اخلع عني هذه الذاكرة اخلع.

– أنت مشوّش يا «جبر»، مضطرب حدّ الضياع، عُد لصديقك «فضل» وذويك عُد.

– «فضل» قوي ومثقف، يهزأ ويسخر من كل شيء، وكأنه أعتاد كل ما يراه واستمرأه، فلن يقدّر ما أنا فيه، هو لا يغبط إلا ذلك الإفريقي راعي إبلهم في فضاء «البساط» جنوب «القصر»، وينتظر على نار متى يقصده رفقة خزان الماء ومؤونة المعيشة، عندما أخبرتُه بنيتي في العبور إلى أي مكان إلى أي ضفة أخرى، ضحك مني وقال: الضفاف تتشابه نحن من يخلق الاختلاف، أنتَ مجرد قُفَّاعة والضفاف ثابتة، هل حقا أنا مُجرد قُفاعة يا سيّدي؟

– كن كالنهر يا «جبر»، لا يلتفت، متجدد بذاته، لا يأبه لعابريه.

– لكنه يحمل في ذاكرته كل ما يمر عليه، حتى الحلم، ألم يخبرك النهر شيئاً؟

– هذا النهر يفصل بين ضاحيتكم إلى ما بعد الضفة الأخرى.

– وماذا بعد الضفة الأخرى حيث أريد أن أعبر؟

– لم يعدْ أحد ليخبرنا، كل من ذهب بقي هناك. رغم ذاكرة الشقاء، ولاؤك للحي «2»، جذرك علق في طِينه.

– درستُ بمدرسته الحكومية المختلطة حتى التاسع، مدرسة «شهداء تاقرفت»، ننطلق في الشارع فرادى ومجموعات، نتدافع ونتسابق ونقذف الكرة في الطريق، نصل معفري الثياب، وبنشوة أتحسس في جيبي ربع الدينار معتمد إفطاري، قد يشتهيه آخر، ينشدون، أسرح أنا، تدغدغني حكايا جدتي التي نمتُ عليها، تتمسح كفي بيدها الدافئة نلعب «دبّاخ»، حتى تصل أصابعها إبطي، فتقبض على الجْديّات، وأنام أضحك!

«ثانوية عقبة» للبنين قرب «الهلال الأحمر» في الطرف الشرقي، بين حينا والحي المجاور الذي يضم ثانوية «المنارة» للبنات، يتولى الأهل أو الجيران إيصالهن قبل أن يشتركن لاحقا في حافلات النقل الخاص، أنا وأولاد الجيران نسير على الأقدام، أو نتكدّس وحقائبنا في صندوق «بيجو«عمي «الغناي» الخلفي، فالمقعد الأمامي تحتله ابنته ومن معها، لا أعرف كيف لا يصطدم بأعمدة الكهرباء ولا ينحرف عن الطريق وهو شارد يسارا ناحية البحر، وطرف جَرْدَه الأبيض يلوّح له من نافذة سيارته المفتوحة، في طريقنا على اليمين تصطف محلات (عطايا الله) للمواد الغذائية وصيدلية عائلة «البركي»، و«الروّاج» وأبناء «يونس» للحوم، ومحلات الذهب حيث جزيرة السيمافرو (الإشارة الضوئية)، بعد «جزيرة السيمافرو«ترتفع الأرض (سليطة الزخري) لينعطف بنا يسارا، ويرتفع إلى الشمال باتجاه البحر هناك ثانويتنا، نتقافز أمامها، ليواصل يمينا باتجاه مدرسة ثانوية البنات بالحي المجاور.

كل هذا صار أنقاضاً، صار كوم تراب، وحده البحر لا يموت.

أين لي بعمي «الغناي» يخبرني عما يقوله له هذا النهر الغامض؟

صوت رعود غير بعيد، وتبرق السماء تكاد تنشق عند أفق الضفة الأخرى، ولا شيء هنا، خيالات طائرة لم أتبين طبيعتها ولا صورها الحقيقية، كأنها أجساد من أوشحة حريرية سحابية اللون تتماوج في تمايلها، تخرج من النهر في اتجاه الضفاف، وأخرى تنساب متدحرجة لتسقط فيه وتختفي لا أعرف أين؟ تترك أثرها دوائر مرسومة سرعان ما تتعرج في اتجاه السير المائي.

وصوت يشبه الصفير، يستجيب له الحكيم بتمتمات وهو يتابع حركة سبابته، حياة أخرى هنا! فهل لها رب غير ربنا؟ ألا يستطيع الرب أن يمنحنا حياة مثلها؟

إنه يباغتني

– أجل واخترتَ المعهد العالي؟

– نعم أريد اختصار الطريق إلى العمل، لا رغبة لي بالدراسة الجامعية، فاخترتُ الحاسوب لكنني لم أحظَ بوظيفة ثابتة في الدولة، وتوقفَ العمل ببناء العمارات التي أُعوّل على شقة فيها بسبب حرب 2011.

– الحياةُ تلدُ الحربَ والحربُ تلدُ الموتَ، ما أبشعها ولادة! أن تلد الحياة قاتلها! يكبر الموت على أنفاس البشر وأحلامهم! هل سمعتَ آذان الصبح يا «جبر»؟

– لا يا سيدي كنت أجيبك، لم أنتبه! نعم يا سيدي الآن كأني أسمع

آذاناً...

كنتُ أصلي الجمعة في مسجد سيدي «بن همَّال» غرب الحي، هل يوجد جامع قريب من هنا؟

– ليس قريباً، صوت الآذان يصل إلى مَن يترقب وقت الصلاة.

– أصدقك يا شيخي، ولهذا سمعته قبلي، مَن أنت يا سيدي وكيف وحدك هنا!!

– أنا «الشاهد»، لا عليك فلنصلِّ جماعةً إذاً. واستخرْ ربك بأن يهبك ذاكرة تستحق الاستبدال أو يُبقي عليك ذاكرتك.

– لا أيها «الشاهد» لن أتراجع... لا أريدها... لا أريد أن أذكر صورة بيتنا الذي حل فيه الطابق الثالث بالأرضي! لن أستطيع العودة «للحي 2». ولا أريد الضاحية، لا أريد أن أموت. أنا خائف يا سيدي.

نعم، فلنصلِّ وانزعها أرجوك.

والآن أنزع عني هذه الشقيّة أيها «الشاهد».

– تابع يا «جبر» وتزوجت بالضاحية؟

– ساعدني «نصر» بالزواج من «غزالة»، لا أعرف كيف تم ذلك بسرعة، وأنا الحالم بامرأة زرقاء؟ تزوجتُ «غزالة»، وأحببتُ زميلتي «فتحية»، شدتني بالأزرق الذي يسكنها، كل صباح يلوّن شيئا فيها، وشاحها، خَرَزة قرطها، أو غلاف محمولها، خلفية حاسوبها، اكسسوارات مكتبها، حتى صارتْ ابتسامتها زرقاء، فغرقتُ فيها، شعرتْ بي وغمرتني بها لونا، فزادتْ عذابي

بسعادتي بها، فليس أمرّ من حبٍ عقيم يا «سيدي» ليس أمرّ. و«غزالة» معي نبيلة لا تستحق الخيانة، قلبي الذي خان يا «سيدي» ولستُ أنا، وهل حبّ الألوان آثم؟ وهل حديث الصمت جناية؟ لم أعرف سرّي مع الأزرق! ساعدني «نصر» في زواجي من «غزالة»، ولا أريد أن أثقل عليه، استأجرتُ بيتا غاب عنه صاحبه «بوشنوارة» لأربع سنوات وعاد موسراً، ساعدني في إيجاره بعد أنْ رمّمه وغادره إلى مكان آخر، التحقتْ زوجتي بالعمل في العيادات الخاصة أيضا، وعملتُ بمؤسسة حكومية تحتَ التجربة بمرتب رمزي لا أتقاضاه، فتعاونتُ مساءً مع محل لإصلاح أجهزة الحواسيب لم يكفِ حتى قهوتي، رضختُ للعمل مع المؤجر «بوشنوارة»، وقور وحسن السمعة وكل صلاته بالمسجد، حريص على التسبيح بسبابته المبتورة، اتضح أنه رأس تهريب متوارٍ خلف هيئته الوقورة، وسمعته العالية، ورأى فينا أفضل وسيلة للتعاون معه، بداية كان يكلفنا بإرسال مغلفات صغيرة لأصحابها في المنطقة، تطور الأمر إلى قطعة سلاح واحدة (كلاشنكوف)، أو قطعة مسدس، ولا شيء يرعبني مثل «الرّمانة»!

– أو تهرّب السلاح يا «جبر»؟

– رأيته غير مشوب يا «سيدي»، إذا كان الجميع يمتلكه، ويقتل به، فما ضير لو استفدت أنا من مجرد نقل قطعة؟

عندما تطور الأمر إلى أكياس الحشيش، صرتُ أخاف على «غزالة» التي تضع الممنوع في حقيبة يدها، كانت «غزالة» رُخصة عبور سيارتي في بوابات التفتيش، لكن عيون مستلمي الحشيش تعبر إلى ما هو أبعد، تبقىَ

«غزالة» مسئوليتي وشرفي ولا علاقة للحب عندما يتعلق الأمر بالزوجة، فما قرّبنا إلا تشابه البؤس، صرنا به كشريكين في رفقة سفر أو عمل مشترك نؤديه دون الحميمية التي نجاهد إليها، «بوشنوارة» أدخلنا الممنوع، وكأنه الآخر أُغرق فيه، لو سمع مستخدموه ما فاض منه لي وهو مخمورٌ ثملٌ لقطعوه حيّا، ينتحبُ ويتلعثم بلسان ثقيل، ولعابه مسارب! كان يمطّ الكلام ويقطعه وهو يقول:

«انت عارف يا «جبر» ليش «المِسْتبلي» يمشي لسانه مَرْخي على برّه، وهوّ يقلّبْ فعيونه تهتز ويبحلق فووق فالسما، ويغلبه البول، ويسيل ريقه على صدره؟ تعرف ليش؟ أجبته بثقة: كيف لا أعرف! غسله الأولياء الصالحون في مساء خميس ليلة جمعة فعاد درويشا تُطلب منه الفاتحة، ويستبرك ببلل ريقه المتساقط، كل الضاحية تعرف.

انت أهبل يا «جبر» زي الضاحية، هههههاااه، وتنطلب منك الفاتحة، أنت ما شفتْ «علاء» كيف كان ما أجمله! رقم عشرة قلب هجوم الفريق، هو صح غسلوه الخميس وفي الليل لكن مش الصالحين، وانقلب «بوشنوارة» يبكي بعبرة طفل: خنّبه «ابن الساقطة» في عشره جنيه، اتهمه بإخفائها من الخمسة الآف بيعة الحشيش، أقسمَ له إنه حتى لم يعدّ الفلوس لربما أخطأ الزبون العد، «ابن الساقطة» لا يستمع اليه، تمنّع «علاء» في المشي ويتوسله العفو وأنه بريء وسيدبر له الليلة في عشرة دنانير ولو باع نقّاله، جرّوه اليه وسط مياه المسبح بعد أن قيّدوا يديه وراءه، يصرخ «علاء»: ورحمة أمك لاا، وراس اولادك، قالّه: ليس قبل أن تعترف يا خانب، وأحكم قبضته على

عنقه النحيل وصار يُغرِق رأسه في الماء بقوة حتى تخرج فقاعات المياه من أنفه وعينيه ويتسع فمه ويتوقف عن المقاومة فيرفعه اليه شبه ميت ويقول له: اعترف يا كلب، أغرقه أربع مرات، سعل في المرة الأولى بس، أربع مرات وفي كل مرة يتشنج بوجهه ويشهق طوويلا لفووق طالبا الأكسجين، عاجزا عن الرد، غاب عن وعيه لساعات عاد بعدها درويشا. أدمعتْ عيناي يا «جبر»، هددني «ابن الساقطة» لو تكلمتْ، ضربني بركبته بين فخدي، وسحنّي، حبستُ البول يومين وإلى اليوم حُبس معه كل شيء، لا شيء يتحرك فيّ إلا «شنوارتي»، أنا خائف منهم يا «جبر»، آخ يا «جبر» الله يلعن الفقر والعازة ويلعن كل من كان السبب».

مُذ أخبرني «بوشنوارة» وأنا في رعب وكوابيس، أنا لا أعرف كيف كان شكل «المستبلي»، وجدته هكذا مذ قدِمتُ الضاحية، والتي أخبرَتْ أمه بأن ولدها بدّله لها الصالحون ليلة جمعة، وأنهم حَبَوها بدرويش، انزعها يا سيدي، لا أعرف كيف نجوا من صبر أم «المسْتبلي» وسذاجة أهل الضاحية السعداء برذاذ ريقه، ويستبركون بهمهمة حباله الصوتية.

– هوّن عليك يا ولدي، اترك عنك «بوشنوارة». الدراويش أفضل منه حالا.

– في المرة الأخيرة أحضر لي صندوقا حديديا، كان ثقيلا، طلب مني إخفاءه حتى يطلبه، قال به أوراقا خاصة ولأنه سجّل بالانتخابات فهو محطّ اهتمام وقد يُداهم من قبل منافسيه في أية لحظة.

– وأنت صدقته؟! صدقته يا «جبر»؟

– لا تزدني يا سيدي... انزعها... بربك انزعها عني... و«لغزالة» ربٌ يحميها.

– فيما تفكر؟ هل استخرتَ يا ولدي؟

لا أدري ها هو يقرأ على رأسي ولا أميز ما يقرأ، وخيوط متوازية رفيعة على شكل شرائط حالكة السواد تمرّ أمام عيني، وكانت مساحة الشرائط تزيد اتساعاً فيعم السواد يسري شيئاً فشيئاً حتى صار شبه ظلام... ولجّة زرقاء، ويعلو صوت الشاهد الحكيم... يا لها من ذاكرة عصية... يا لها من ذاكرة عصية.

كان الشيخ «الشاهد» يتناثر ريشا فوق سطح النهر متلازما مع زوبعة مائية تبرمُ مكانها وتلتفّ حولي في استطالة كشرنقة، وتقفز بي في جميع الاتجاهات، وظلاام.

* * * * *

«حِينَ يُولَدُ مِنْكَ ذلكَ النّجمُ السّاطع
لابُدّ أنْ تَمْتلئ روحَكَ بالفَوضَىَ»

«نيتشه»

*****

- 1 -

غيّرتْ «لمياء» خلفيّة صفحتها الوهمية على «الفيس»، وأبقتْ على اسمها المستعار «سَرَابْ»، لا أدري هل أنا موسوس، أم إنها مُفخَّخة الكلمات، نشرتْ أول أمس :

«المساء ليس رجلا، سأنزع عنه معطفه الأسود الطويل، وأفكّ له أزرار عتمته، وأفضّ فيه ضفيرة مزاجي، واقسمُ له بأنه المساء الأول منذ ألف عام، ولم أنجب من غيره، هو ليس رجلا، سأثير عقارب ساعته، وأعبث بأصابع ندمه، وأنام بين ذراعي غروره، وأشعلُ فيه غابات جنوني، واقترف براءة الخطيئة حتى تسّاقط نجماته، ويضحك دِيكي، لسانه حُمّى بكماء سأهذي نيابة عنه، ولن أحتفظ بشيء من هذيانه، وهو المدلوق في كل زنزانة ومعبر، ومزروع على حلمات النساء، أسيرُ فيه على جمر الحقيقة، أتوارى بالظل الكبير، لأسمع في محرقة الشمس صراخ ذنوبه»

. أغظتني يا «لمياء»، أعلم إني المعني، تسيئين الظن بي، وكأن ليس لدي عمل إلا هذا الهراء هنا!

. ما بك «فضل»! لستَ المعني، أنا هنا لست «لمياء»، أنا «سراب». حرّة في أنْ أكتب ما أشأ.

. هذا للآخرين، تعلمين بالنسبة لي «لمياء».

. هنا. أنت لستَ «فضل»، هنا علاقتي مع «فضل» رجل «كيبورد»، أنا من صنعه على لوحة مفاتيح، حرّة معه، وفيه، بلا إثم، بل خوف، ولا رقيب. رجاء «سيدي»، خاطبني باسمي «سراب»، وابحث عن «لمياء» في عتمة الضاحية. (وغادرتْ المحادثة).

مجنونة، أتراها خائفة من تسرب علاقتنا، ليس هذا السبب، فقد أعادته على مسمعي، في عجالة رمته في وجهي أمام صيدلية الجزيرة، (أنت صديق عال القدر، فلا تحمّلني ما تكتبه لك «سراب»).

صديق؟! سأراوغها، سأقول لها ما لا يمكنني قوله علنا، ألستُ كما وصفتني رجل كبيبورد رسمته لوحة مفاتيح؟!

* * * * *

ثلاث ليال و«غزالة» تترقب «جبر».

و «لمياء» تموج على الجَمر

لا أحد يعرف ماذا حلّ به، ولا أيّ مصيرٍ أكتنفه وأي أرض ابتلعته! تطلبان مني أن أتحرّى البحث عنه فأنتَ أدرى بمنعطفات نفسيته القلقة يا «فضل». ثلاث ليالٍ وأصابع الريح تخطّ رسمها داخل شبه المدينة الخالية من المدنية، داخل الضاحية الضحية، تضحك الريح، فهي تعلم ثمة محطة بنزين، مخبز، بنك، ولا خبز، لا وقود ولا سيولة؟ الكل يسير في المسير، والشوارع طوابير، طوابير تمتد كأمعاء فارغة، جائعة تبحث عن لقمة في طوابير الدود الذي يتناسل من العدم، تذوب الطوابير في أزقة الأحياء لتندثر وتتلاشى في السهول والوديان بفضاء الضاحية، وسيارات مسلحة ترعى الطوابير مسلحوها بملابس مدنية. من نوافذها يفوح البخور والجوع، الفاكهة والمؤامرات، تضحك الريح عليّ حتى اهتزتْ أطرافها، وعماني عجاجها، وهي تقهقه وتدفعني للتقصي، نقّبتُ عنه في كل الطوابير لم أجده، أقحمتُ أنفي في ثلاجات الموتى المكتظة بمجهولي الهوية، ورائحة عفن الأحشاء واللحم البشري، والدم الذي يسيل في غياب الكهرباء، غاصتْ كفاي في مستودعات القمامة حيث يُرمى بالمغتالين، قلَبتُ أجساد النّوم المتوسدين عتبات ودرج البنوك، فهل نقّذتْ فكرة الرحيل هذه الفُقّاعة؟ ثلاث ليال تضحك الريح، وأنا أدعو معهما، «غزالة»، و«لمياء» أن يجبر الله «بجبر».

* * * * *

يتدافع الناس لرؤيته، كأنه قادم من مُعترِك، من قَبر! يخطو على الأرض تارة يلمسها، وتارة يكاد! أشعث الشعر ومتفرق اللحية والشوارب، تعلو الأتربة ملابسه القذرة، وفي حالة ذعر، ويصرخ وسط الناس... إنتو مين؟ بتبصوا عليّ كده ليه؟ الله أنا فين؟ مين عمل فيا كده، إنتوا مين؟ هو فين المُرافق؟ وفين «زندبيل»؟ وفين المكان ده؟ ثم تنحنح، وكأنه انتبه لنفسه ويحاول تعديل هيئته، وينفض عنه ما علق به، أرجوكم ما اسم هذا المكان؟ هرعتُ إليه وأنا أدفع المتزاحمين عليه وهو يسأل: أين أجد القنصلية المصرية؟ أحدكم يصلني بالقنصل المصري، مَن أتى بي إلى هنا؟ جنّ «جبر» وربي. حضنته، رُدّ علي يا «جبر» ماذا دهاك؟ ما الأمر؟ – دفعني – ما بكم ابتعدوا عني من «جبر» هذا؟ من أنت؟

– أنا «فضل» يا «جبر» .

– ابتعد يا سيّد بماذا تهذي؟ ابتعد يا سيدي أرجوك.

– «جبر» ؟؟!!

– من «جبر» هذا؟ أنا «سميرة»، أين هذا المكان؟

– سميرة؟!!! أيّة سميرة أذهبتكَ عقلك؟ بماذا تهذي يا «جبر»؟ أين كنتَ؟

– أريدُ القنصلية المصرية، ما هذا المكان الغريب؟ لا أعرف أن بالولايات المتحدة مكاناً هكذا خاصاً بالعرب؟ من أتى بكم؟ كنت في طريق جبلي بضواحي كاليفورنيا ألبي دعوة لزيارة مفاعل نووي. فين المكان

ده؟ أنا تعبت عشان أصل مكانا فيه بَشَر، يااااه على الغرائب اللي شفتها في طريقي، بربكم أين القنصل المصري؟ مين عمل فيا كده؟ مين لبسني كده؟

– يا إلهي اهدأ يا «جبر» إنك في بلدك وبين أهلك... تعال إلى بيتك هيا، هيا معي.

– مين «جبر» ده؟ أنا سميرة، أنا «سميرة موسى» صلوني بالقنصل المصري من فضلكم. إيه اللي جابني المكان ده؟

كان «جبر» خارج السيطرة تماماً، كان بحاجة إلى طبيب، إلى صفعة ليصحو، إلى مُهَدي قوي لينام، وكنتُ مشتتاً حدّ الهزيمة، والناس مبهوتة تسأل مَن «سميرة موسى» التي تلبست «جبر»؟!! طلبتُ من الحضور الابتعاد، سأصلح الأمر (قلتُ لهم)، أدركتُ أنه لا فائدة من إقناعه بأنه «جبر». يبدو في حالة صدمة، ويتحدث بسرعة.

– حسنا سنتفاهم يا «جبر».

– إلزم حدودك يا سيد قلت من؟

– «فضل» اسمي «فضل» هل نسيتني؟ اصحَ يا «جبر» أصحَ.

– نعم؟ إلزم حدك سيّد «فضل» أنا «سميرة»، د.«سميرة موسى» ولستُ «جبر».

– نعم تفضل تفضلي معي إلى بيتك د.«سميرة»، مع «غزالة»، و«لمياء».

. ألا تفهم يا أخي؟ أي بيت لي هنا؟ لا أعرف هذا المكان، من فضلك ساعدني أريد القنصل المصري؟

. أقصد استريحي في بيت قريبتي «غزالة» وستجد أختك «لمياء»، أقصد «لمياء» أخت «جبر» عذراً هذه «لمياء» ستكون صديقتك، د.«سميرة». إنهما قريبتاي.

. نعم. من فضلك ساعدني بالاتصال بالقنصل المصري. أكيد أهلي، و«مصر» كلها، مشغولة بالبحث عني.

– حسناً د.«سميرة» سأتصل حالاً، فقط الآن عليك أن ترتاح، ارتاحي مع «غزالة»، لا يوجد قنصل بالضاحية، ستهتم بك حتى نرتب لك لقاءً مع السفير المصري، كان يلتفت هنا وهناك كأنه في عالم يراه لأول مرة، يتفقد جسده، نظرات خوف ودهشة وعيناه تزوغان منه وتعودان، ليصطدم بما يلاقيه، ما هذه الكارثة يا ربي! كيف حدث الذي حدث؟ هل جنّ «جبر» ولماذا «سميرة موسى» بالذات؟ عالمة الذرة المصرية!

فهل كانت تعلم أنها على موعدٍ معه؟

15 / أغسطس/ 1952م

لملمتْ الحسناء الجميلة أوراقها وصرّتْ أسئلتها في قلبها كما في الورق، وابتسمتْ مطولا لتلك الحالمة أمام المرآة، نهبتْ مفتاح سيارتها وهرولتْ ترقص نحو مقودها، التفتتْ إلى زميلها الباكستاني تبثه سعادتها الغامرة برحلة العمر. طائرة نحو طريق «كاليفورنيا«المرتفع، تحسستْ

أطراف شعرها عند عنقها وثبتت مقدمته بنظارتها، لتمنح عينيها معانقة طبيعة الطريق الساحرة، أخبرتْ المرافق عن مشاريعها التي ستهبها «مصر»، عن الذرة في أغراض السلم، عن معمل الهرم بالجيزة، عن علاج السرطان زي الأسبرين، تحلم «سميرة» على المرتفع الشاهقْ وترتفع الأمنيات، لم تكن تستمع إلى قهقهة الهاوية المحاذية، عدوّة الجبل والعلو، تهمس الهاوية لجنّها أنْ آتِ لي بها بنتَ الهرم العنيد، زفرَ الجنُّ زفرةً سوداء أغمضتها جفنيها، فشرّع قلبها أجنحته مقاوما السقوط، محتضنا الحلم والأسئلة، تكسرتْ الأجنحة الصغيرة أمام التيارات المعاكسة، خبتْ العروس بكامل زينتها، تقبض على منديلها الوردي وتعكس الشمس طلاء أظافرها الناعمة، وجملة قصيرة في مذكرة صغيرة «وغرُبَتْ الشمس»، فأين التقتْ «جبر»؟ بل أين التقاها! هذه العالمة، التي توفيتْ منذ العام 1952م في ظروف غامضة، إثر حادث مروري بطريق جبلي وعِر، بضواحي كاليفورنيا، وهي في طريقها لزيارة مفاعل نووي بالولايات المتحدة الأمريكية. لماذا يتقمصها؟

«لمياء» لم تنبس ببنت شفة، في حالة صدمة وارتباك، حتى أنها لم تنظر إليّ، غاصتْ في الصمت، كأنها تقول لا حمل لي أكثر من فقدان بيتنا، أمي، وأبي وعائلة «صالح»، لا حمل لي أكثر من تشردي وفقدان ما معي وطموحي ولا أقوى على المزيد. لم يكن الظرف يسمح لمواساتها أعلم أنها تحتاجني، وربما أخال ذلك وأنا الآخر أهذي بهذا! بعض المشاعر بللُ حُمّى، والتعبيرُ عنها هذيانٌ.

«غزالة» شبه منهارة، لا تعرف أين تضع قدمها، تتقدم وتتراجع، وترفع غرضاً لتضعه في غير مكانه. دخل «جبر» وراءها أفهمتُها أن الأمر سيزول وأن «جبر» تعب، ربما من أمرٍ ما، عليك بمهادنته، حتى نرى ما يؤول إليه أمره، ربما يتحسن بعد أن يرتاح، ساعديها «لمياء»، قد يحتاج طبيباً لو استمر على حاله، ربما مجرد نوبة عصبية.

لم تكن «غزالة» تستوعب ما أقول وأعذرها، طلبتْ مني أن أبقى معهم لأجله حتى المساء، ومع أنها الأفضل نسبياً تهز رأسها بنعم أو بلا، لكنها أصرّت على مخاطبته «بجبر»، الذي يصرّ على أنه «سميرة»، يسير «جبر» وراء «غزالة» وكأنه يرى بيته المستأجر لأول مرة، يتفحص الجدران والفناء، يلتفت إلى كل زاوية، نظرة استغراب للمقتنيات والسجاد والكراسي، وأسئلة تتزاحم في نظراته تعثر في طاولة الممر، يقف منها ليصطدم بجدار الغرفة المقابل بدلاً عن الولوج بابها، يسير وهو يحاول جاهداً إصلاح هيئته ويعدل من خطواته التي يحاكي فيها خطوات أنثى.

– أين أنا ما هذا المكان الغريب؟ كل ما فيكم غير طبيعي! أين أنا بربكم، وصار يرتعش.

– تفضل «جبر» هنا، استرح على هذا السرير.

نظر إليّ مستنكراً، ففهمتُ.

– د.«سميرة» ما رأيك لو ترتاحين الآن على هذا السرير لا شك أنك متعبة من الطريق.

– لا أنا مرتاحة هكذا، لو تعلم ماذا كنت البارحة! نعم. سأحاول النوم، لكني سأنتظر السفير سيّد «فضل» هل اتصلتَ؟

. أومأتُ برأسي حاضر، وأخذ ينظر إليّ وكأنه يطلب مني الخروج فأنا الرجل الغريب وهي الشابة الصغيرة فعمر د.«سميرة» لم يتجاوز الخامسة والثلاثين عاماً.

– حسناً سأتصل به! سأتركِكِ مع «غزالة»، سأكون في غرفة أخرى وسأتصل.

– كيف؟ هل لديك لاسلكي هنا بالبيت؟

– لدي نقال، ها هو، ثقْ، ثِقي سأتصل.

– ما هذا؟ أين هذا المكان؟ كل ما فيه غريب؟ يعني أيه ده؟ تعال إيه ده؟ إيه ده اللي معاك؟

كيف سأشرح «لجبر» أنه جَنَّ؟ تمالكتُ نفسي.

– نستخدم هذا للاتصال، إنه أسرع من اللاسلكي الذي كان قديماً.

– هذا جهاز غريب لم أره حتى في أميركا! التلغراف ليس قديماً سيد «فضل»، لا زلنا نستخدمه في «مصر»، وبعض المناطق لم يصلها بعد وأنتم لديكم هذا الجنون. اتصل بالقنصلية رجاء.

وأخذ «جبر» وهو يرتعش يسترسل على لسان د.«سميرة موسى»، لا أعرف من لقّنه هذه المعلومات! وأخذ يهذي:

– التلغراف وصل قرى مصر، وصل مركز زفتى، حيث «سنبو».

– «سنبو«؟ ماذا تقصد بسنبو يا «جبر»؟ ماذا تقصدين؟

– «سنبو«قريتنا. أما سمعت بالاسم؟ اسم فرعوني ويعني الساحة الكبيرة، عرفنا التلغراف تقريبا منذ الحماية البريطانية بس في النقاط الحكومية المهمة.

تعلم الآن نحن في الـ 1952 لا عليك من هذا الكلام، المهم أن تتصل بالقنصلية.

– نعم!! لكننا في 2017 يا «جبر»، أقصد د.«سميرة»، أقصد نعم، نعم 1952م، تذكرت نعم نحن الآن في 1952 فهمت د.«سميرة».

كنت أعرق وأجف، وأنا أعيد وأرتب ردودي معه، أعلم أنه يتحدث باسمها عن الفترة بين الحماية البريطانية، وثورة يوليو 1952.عام تلبيتها دعوة لزيارة المعامل الذرية بالولايات المتحدة الأمريكية، وحادثها المروري المروع الذي أودى بحياتها، والذي آثار شكوك المصريين والمهتمين، تقف هي عند «كاليفورينا» والطريق الجبلي الوعر، ولا تتطرق للحادثة، تظن أنها حية؟ أم من منهما؟ فعلا ورطة! وهل عليّ أن أتحدث عنه بـ «هو» و«هي» في آن؟! أليس الأمر هكذا؟

لم يمنعه استغرابه لجسده وهو يتلمسه من دقة حديثه، يتحدث بطريقة رشيقة بحركة أنثوية رغم رجولته، ربما ساعده في ذلك لطافة أطرافه وخفته المتعارف عليها، ربما توافقهما في السن! ما يقلقني في الأمر تقمصه لشخصية معينة، ومن أين «لجبر» بهذه التفاصيل الدقيقة؟ وكيف

لي أن أكون شديد التركيز والانتباه في نقاشي معه وعلى لسان د.«سميرة موسى» أول عالمة ذرة عربية، والتي سأطالع اللحظة على ما خفى عني من سيرتها، ولكن هل عليّ أن أذكره بأنه «جبر»؟ أم أسايره على أنه د.«سميرة»؟ وإلى متى؟ آمل عودته سريعا.

* * * *

عندما بدأت ابنة العامين تقف على قدميها في 1919 كانت الأرض المغمورة تحتها بالنيل ترشحُ بالمدّ الثوري المشحون بالمساواة والحرية والاستقلال، شبكت أصابعها في أصابع زمنٍ انتصب فيه تمثال «النهضة» للفنان المثّال «محمود مختار»، وأنشأ فيه «طلعت حرب» بنك «مصر» وتأسست الجامعة الأهلية، وتسرّبت إليها أفكار الثائر «سعد زغلول» ورفاقه، كان التحريض على الثورة ضد الحماية البريطانية لمصر قد تغلغل في الوعي القومي المصري، وبدأت رائدات النهضة النسائية يغرسن أقدامهن فيها بقوة تقودهن مديرة ثانويتها «نبوية موسى» و«هدى شعراوي» و«أمينة السعيد»، وأخريات، كانت «سميرة» ابنة العامين تتنفس ذلك.

بين حقول «سنبو«الممتدة بالخضرة، كان ثوبها الساتاني الأزرق يتماوج خلفها يتبعها في دلال، موسوما بشريط الزينة، أصفر مخضر، متعرج كوشم جدتها، يطبع أثرَ خطوه الواثقة في أزقتها الهادئة، وعلى حصير الكُتّاب، ومقاعد مدرستها الأولية، وكانت لرحلة الساقية في عينيها ألف مغزى، وللقمر في غيابه وحضوره ألف سؤال! في «زفتى المركز» بمحافظة الغربية فتحتْ «سميرة» قلبها الصغير على أصدقاء والدها «موسى ابوسليمة» الوطني المتنور، كان بيتهم ملتقى أهل القرية لمناقشة أمورهم الحياتية ومستجدات الوضع الساخن، فتحتْ عينيها على مصحف الكُتّاب، وعلى الصحف والأخبار، واهتزت طبلة أذنها على ألحان الهتافات المنددة بالاستعمار والمطالبة باستقلال مصر

والإفراج عن «سعد زغلول» ورفاقه، وهي ابنة العامين أُعلنت «زفتىَ» جمهورية مستقلة عن حكم الانجليز، ما أثار حفيظتهم، تتلهف أمها الإجابة من والدها:

– همَّ صحيح لنجليز باعتين أَطْر محمّل بالجنود لزفتىَ؟

– مش حيقدروا لو بعثوا كل قطارات العالم، الشباب جاهزين ما تقلقيش، دعواتك ليهم بس.

– طبْ بَقَى ليه لنْجَليز اعتقلوه ونفوه مالطا؟

– مالك ومال السياسة يا (حَجّة)؟ لنجليز دول ظُلاّم يا بنت الناس، كان رايح في وفد مع اصحابو للمطالبة باستقلال مصر بس دلوقيت نفوه مرة ثانية لجزيرة «سيشل» بالمحيط الهندي هناك.

لا تشيلي الهم يا حَرّه، الشباب أعلنوا جمهورية زفتىَ واستقلالها عن الإنجليز.

– خايفة أوي من الأطر المليان جيش وسلاح انجليزي لزفتَى.

– ما تخافيش، القطار ما بيقرّب... لنجليز باعتين جنود استراليين... مش حيضحوا باولادهم.

كان السيد «موسى» والد «سميرة» متفتحا ومتنورا ويعي ما يقول وهو يُخفي عنها أمر ضابط النقطة (حمد أفندي) الذي فتح لهم مخزن السلاح (السلاحْليكْ)، وانضمام الخارج عن القانون «سبع الليل» رجل العصابة التي روعت البلدة والقرى المجاورة لتشكل توبته وتوسله

للانضمام للمقاومة صدمة للأهالي وهو يوصي «مُنشِد» البلدة بأن يتغنى ببطولاته فيما لو استشهد.

ثورة واحتجاجات التحم فيها القانون مع الخارجين على القانون من أجل التي فوق القانون «مصر»، لم يكن السيد «موسى» المنفتح والواعي يُطمئن أم «سميرة» من فراغ.

ولم تتكيء «سميرة» على فراغ أبداً.

* * * * *

– 2 –

قصة د.«سميرة» معروفة ومنقوشة وثابتة.

لكن ما يؤرقني قصة «جبر» التي لن تعرف الثبات أبداً، فيما أحاول تثبيت رأسي على وسادة الصالون في غرفة الضيوف الخارجية، صار المكان موحشا، ونكهة المس والغرابة سيطرت على فضائه، أم أنها وساوس قهرية خاصتي اليوم، أتنفس أبخرة مشحونة بالسحر، وصرير يزن في أذني، وأرواح تتنفس تملأ المكان، حتى «غزالة»، و«لمياء»، أراهما أقداما ممسوسة! أفقتُ مذهولاً على صراخه، كان قد أقفل عليه للتو باب الحمام كما تروي «غزالة».

يصرخ

– يا ربي! ما هذا؟ ما هذه الزوائد الذكورية التي ظهرت بجسدي وأين صدري؟ وجهي يا ربي!!! وما هذا الفضاء المشحون بالذبذبات والموجات الغريبة؟

– اهدأ يا «جبر» أقصد عزيزتي «سميرة»، عذرا، أعني اهدئي د.«سميرة».

– عفواً سيد «فضل» ابتعد عني الزم حدودك من فضلك (وهو يتراجع). ماذا حل بوجهي؟

وقفتُ بعيداً عنه وأشرتُ لـ «غزالة» أن تهدئه، حينها كانت «لمياء» تحبس دموعها وتضغط بيديها المغمضتين على خديها، نظرت إليها بإشفاق،

وهو يولول ما هذه الزوائد؟! ماذا حل بوجهي! وكيف برزت حنجرتي! أنا «سميرة» كيف اليوم رجل! وأمبارح «معزة»!

وبادرتْ «غزالة»: حتى تعرف إنك رجل يا «جبر» أنت زوجي وتاج رأسي.

– ما هذا الجنون يا امرأة!؟ والتفتَ إلي:

– أتضعني مع مجنونة سيد «فضل» أهذه مساعدتك لي؟ كيف تضعني مع شاذة! أرجوك أخرجني من هنا، انتبهتْ «غزالة»، وسحبتُ نظرة لوم وجهتُها إليها.

– حسناً د.«سميرة»، أعلم أنكِ ستتفهمي ما أقوله.

– ماذا أفهم؟ جسدي مقلوب، جسدي تعرّض للتشويه سيد «فضل».

أين أنا بالضبط؟ أريدُ عائلتي أريدُ مصر.

كان «جبر» خفيفا على الأرض، يعلو ويهبط وهو يسير، فهل الموتى يفقدون جاذبيتهم إلى الأرض رغم دفنهم فيها؟ لِمَ لا نطير نحن إذاً؟ ألسنا منهم! يا إلهي ماذا أقول له؟ وعدتها بأفضل الأطباء، وطمأنتها بصدد التواصل مع القنصل المصري، فقط تقبل المبيت الليلة هنا، وهمستُ «لغزالة» ألا تستفزها «بجبر» وتعامله على أنه «سميرة» هذه الميتة ما يقرب من سبعين عاما، أعلم هذا ليس سهلا، وسأتصل «بنصر» لو استمر على هذا الحال.

* * * * *

جرّيتُ كرسياً خارج البيت إلى حيث بقالة «الحاج فرج»، وأذعتُ بين الجلوس أنه سيكون بخير، فهو ليس غائباً تماماً، فليس عليّ أمامهم أن أبقى مع زوجته وأخته وهو لا يشعر حتى بنفسه، أقنعتهم أنه يمر بنوبة انفعال فأنوفهم لا ترحم. جلسة رفقة أكياس الفحم وصناديق المشروب، النعناع والبصل، الفراولة والثوم، أقتربَ مني المؤجر الوقور «بوشنوارة» ودسّ في جيبي مبلغاً وأوصاني بعلاج «جبر» الذي وصفه بالطيب والخلوق، شكرتُه، وعرفتُ أن الله لا يترك عبده الفقير، فكم هو محظوظ صديقي «جبر» بهذا الرجل الجليل، علّق الحاج «فرج» بسبحان الله مُغيِر الأحوال، غادر «بوشنوارة» الضاحية بائسا يندب حظه وبلا جيب، وعاد إليها يرتدي «شنوارة»، ويُحسن إلى المحتاجين! ترك الدراسة في الثانوية رغم تفوقه فيها، وعمل في مصنع للمشروب بأجرٍ زهيد، كان عائل أسرته وأخوته ووالديه، توالتْ إنذارات الفصل من المصنع بسبب انشغاله بابنه الذي أصيب فجأة بسرطان الكبد، انشغال عقيم كعبث أصابعه بجيبه الفارغ، كملوحة دمعه المغلوب، لا يُسْكنُ وجعا ولا يدرّ دواءً، فقدَ ابنه بعد أن تحجّرتْ أحشاؤه وَرَماً فتحجّر قلبُه وقستْ كبده على الدنيا، لعنَها والفقر، سكيراً يسحبه إخوته كل ليلة داخل بيته مخمورا، ثم غادر لا أحد يعلم إلى أين، لكننا نعلم أن الله فتح عليه في سفره ليعودَ كما ترى، قال عمي «فرج»، لكنه أيضا تعاطف مع «جبر» بطريقته، ناولني من دكانه كرتونة مشكّلة، تن، وأجبان، ومربى، قناني عصير، وبعض البسكويت. لم يكن «جبر» يحلم بهذا ولن يعي بذلك، ولو بقي على «سميرته» هذه، سأجاهرُ له بكل شيء وبأنها شبعتْ موتا.

أول ما عليّ فعله الآن هو الاتصال «بنصر» وإعلامه ما حل «بجبر» وأقلّ ما يمكنه فعله منع إحراجي في الدخول إلى بيتٍ كله نساء. زد أني طلبت من «غزالة»، و«لمياء» ترك لي أمر إعلامه... «لمياء»، التي قلّ تواصلها معي منذ انخراطها في لجنة «تمكين المرأة»، متلهفا تلميحاتها على صفحتها الالكترونية.

* * * * *

كم أحسدُ «نصر» على هذه الشخصية العملية والرصينة.

أخبرته إن «جبر» أصيب بحالة نفسية غريبة، غاب ثلاث ليال ليأتي ويقول أنا «سميرة موسى»، (العالمة المصرية المتوفاة منذ 1952)، يستغرب شكله، يصرخ ويطلب السفير المصري، «جبر» ليس على ما يرام لا أعرف، يسير كأنه يسبح في الهواء!

– تمهل «فضل»، على رسلك، «سميرة موسى»! سأبحث عنها في المعلوماتية، سمعت عنها فقط. فعلاً، أمر غريب حقاً، أظنها صدمة، فقط لا تستفزوه، من الجيد أن الأمر طبيعي بالنسبة إليه. لن ينفع مجيئ لمجرد المجئ، سأنظر في أمره مع بعض الأطباء هنا في العاصمة، ربما دلّني أحدهم على طبيب نفساني متخصص أو حولنا تقريره على أطباء في الخارج، الآن سأمدك باسم طبيب عام عليه مراقبته حتى أصل، أعرف أنك واعٍ ومثقف، أثق بتصرفك، وسأكون على تواصل معك.

– سأفعل، سألازمه، تعلم العمل بالسجل العقاري الذي أتبعه موقوف وسأطلب إجازة، أعتذر عن إزعاجك «نصر»، وسأقرأ بقية تفاصيل د.«سميرة موسى»، أعرف أنها تخرجتْ من الجامعة المصرية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف، وأول معيدة بجامعة «فؤاد الأول» عام 1939م.

ليت لي تماسك «نصر»، وماذا بوسعي أن أفعل أكثر مما فعلتُ؟ أن أخاطبه «بسميرة»؟

ضاحية الغرابة هذه، يتخبط «جبر» باحثاً عن نهديه ومستغرباً الزوائد

الذكورية التي حلّت بجسده، مشمئزا من وجهه، وتناثر شعر لحيته وصدغيه، وحواجبه العريضة ويديه المشعرتين؟، ومندهشاً من كل ما حوله! يتخبط «جبر» في د.سميرة، وتتخبط الضاحية في نفسها، جماجم لها أقدام ترتفع وتنحدر في أزقتها متخطية روضة الشيخ «الصالح» في التلّة العالية، أنفاسها سُحب من الدخان الأسود تغطي فضاءها. لم أصدق ابن جارنا الميكانيكي بالصف الثامن، يحمل حقيبته المدرسية على كتفيه، لم تثنه الصدمة أن يزيح بقدمه رأساً بشريا تدحرج في طريقه ويواصل المسير، سيارة مدشنة (بالميم ط) تقودها بندقية «كلاشنكوف» يظهر مرفقها من نافذة السيارة بكل ثقة! وغرباء يحملون مظلات ملونة بأسماء داعمة، المظلات التي منذ زيارتها الضاحية لم يزرها المطر، جلبة أصوات متزاحمة، أغاني الأطفال تصل نواحاً من المدرسة، وزغاريد من مشفاها، فقد حل نبيٌّ على قسم الولادة، يعقبها إطلاق نار إثر ملاحقة جريح مطلوب في مشاجرة وصل قسم الطوارئ، «المسْتبلي» يوزع رذاذه، والتكبير يهز الجوامع، والذبح يطارد شوارعها الكافرة، الجميع يرسم ابتسامة، وإن نبشتَه ينتحب! أيّ نحسٍ أتى بذاكرة التنوير إلى قوم يرون خلاصهم في الصّلاح والدراويش!

لا بد من جولة «بجبر» في الضاحية، لا بد لهذه الطقوس أن تعيده سيرته الأولى.

* * * * *

صباحا..

وجدتُه على كرسيه في انتظاري، يتأمل حديقة المنزل التي تفنّن «بوشنوارة» في جدولتها، فقد كان يقطن البيت قبل أنْ يغيبَ عن الضاحية سنوات ليعود إليها موسراً، رمّم بيته وهندس جُنَيْنَته وغادره إلى آخر، فناء متوسط المساحة يمتد بشكل طولي يسار الباب الخارجي مُعشب ومقسم بممرات أرضية مرصوفة بألوان حجرية جميلة، يقود أحد الممرات إلى درجتي البهو الذي تطل عليه خارجا غرفة الضيوف، تليها بخطوات ردهة الغرف، أخبرتني «لمياء» أن «جبر» أُعجب بالحديقة كما لو أنها جديدة عليه، لم يفتقد سيارته المهترئة في ظل السور يمين الباب، اتكأ على كرسيه وطلبَ منها أنْ تعيرَه مقابض شعرٍ يشدّ بها مُقدّمة شعره!! لم أخف عن «لمياء» صدمتني بمطلبه، وتأسفتُ لها وهي تؤكد تقافزه في نومه، وفي كل مرة يفزعهما صراخه، على الرغم أن «غزالة» ناولته أقراصا مهدئة. أفهمتها أني أيضا لم أنم، فأنا الآخر في كابوس، أتمنى أن تكون حالة عابرة.

تفهمتْ «لمياء»، لكنها تقول إن «غزالة» ترفض مناداته «سميرة»، قالت أبداً لن تفعل.

– معذورة هي ومسكينة، وأنتِ؟ كيف أنتِ «لمياء»؟ ألست هنا «لمياء»؟

لم ترفع نظرها عن صينية القهوة:

– أهذا وقت تهكم! بخير، ترى الوضع بنفسك، الحمد لله، هل أسكب

لك قهوة؟ وهي تقترب صوب «جبر»، إنه يشرب قهوته، عدّل جلسته وضم ركبتيه، شبك أصابعه، اقتربتُ منه:

– كيف أنت اليوم «جبر»؟ عفوا، ما أخبار دكتورتنا اليوم، أراكِ بخير، صباح الأنوار.

– وبتوتر ظهر في عينيه، رمى لي «صباح الخير» سيد «فضل»، هل من أخبار عن القنصل؟ ولابد أن أزور طبيباً، تشوه جسدي، عايزة امسك شعري، لو سمحتِ فين الملاقط يا «لمياء»؟

– الطبيب؟ أجل لا بد من ذلك، مع إني أراك بحال جيد، لكن لا بأس من الطبيب.

– والقنصل، وكيف جئتكم إلى هنا! إنتوا فين؟ (وهو يشبك شعره!)

– تعلمين صعوبة الاتصال، أنت يا سيدتي، وتلعثمتُ.

أرجو أن تتفهمي ما سأقوله د.«سميرة»، (أخذ يضرب بقبضة يده على فمه): – سأتفهم فقط أخبرني الحقيقة، ماذا تود أن تقول؟

– نحن فوجئنا بك هنا، لا نعرف كيف أتيت من «كاليفورنيا«! أنتِ هنا في ضاحية من ضواحي الأراضي الليبية.

وجنّ علينا وبانفعال شديد:– ماذا؟! ليبيا!؟ أهذه ضاحية في المملكة الليبية، مستحيل في أية ولاية أنا؟ كيف وصلتُ إلى هنا؟ لا، لا، لن أصدق.

– ونحن أيضا نتساءل «جبر» أعني د.«سميرة»، علينا مساعدتك وعليك أن تتفهمي الوضع! وعن أية ولاية تتحدثين؟ آه، فهمتُ، هذه ضاحية

خارج الولايات الثلاث لا تتبع أية ولاية.

. أخبرني أنت أين كنت؟ أقصد أين كنتِ؟

تراجع انفعاله قليلاً، تحسس أطرافه:

– بعد ما كنت فيه لن أستغرب شيئا، لا أذكر إلا أني في طريق جبلي «بكاليفورنيا»، ثم ظلامٌ سحيق، وكوّة بعيدة يدخل منها ضوء، وأنا أصحو وأصبو جاهدة للخروج من ذلك الظلام باتجاه الكوّة، باتجاه بؤرة الضوء، لا أدري كم استغرق ذلك، وأصوات كأنها رياحٌ بعيدة، صفير لرياح تأتي من بعيد جداً، تحمل تهامس بشر بلغات غير مفهومة، لا شيء سوى الظلام كأني في نفق مظلم وكبير، من موقع كوّة الضوء البعيدة خمّنْتُ بأنّه نفق اسطواني كبير يعوم فوق الماء، وكما لو أن الجاذبية فيه منخفضة، كنت أحبو وكأني أحبو في فراغ بالكاد تلامس أطرافي وركبتي الأرض أحبو عائمة ولكن بمشقة وبطء شديدين رغم انخفاض الجاذبية، وزلزال يهز النفق العائم فوق الماء لأجدني هنا بينكم، لن أخبركم بشيءٍ آخر، لن تصدقوني. و(سكت، وسرح بنظره غاب في فراغ).

– اصح يا «جبر»، هيا يا صديقي، أنتَ معنا، أنتَ الآن بِخير. سلامتك من هذا الكابوس.

– يااربي، بالله عليك اذهب وابحثْ عن صديقك واتركني وشأني، سأتدبر أمري، أحمد الله أني وصلتُ مكاناً فيه بَشَر، أنت لا تدرك أن تعيش حيوانا بأربع قوائم، وبذيل قصير لا يقوى على نش الذباب، الرحمة يارب.

أينك أبتي؟

همّ بالخروج تعلقتْ «لمياء» بذراعه تتوسل إليه أن يبقى، تداركتْ سريعاً، ورجتْها أنْ تَهدأ، وأفهمتْها إنّ المكان بعيدٌ، وعلينا وضع الكثير في حساباتنا قبل أن نفكر بالمغادرة. أما انا فحمدتُ الله أنْ لم يسمعه غيرنا هذا الأبله الأشكل. أية مهزلة هذه!

ربما عدم استيعابي للأمر، ربما تفهُّمه أنه يعاني، جعلني متفائلاً، فشعور الإنسان بالمعاناة يعني رفض الواقع، عليّ أن أتعامل مع الوضع ببرود، بفكاهة، ببساطة، لأن البؤس والاختلال ليس جديدا على أهل الضاحية، وجديّتي لن تزيدني إلا توترا، ربما ستدفع بي إلى الأسوأ مثله، وها هو يشدّ شعره كفتاة، هذا ما كان ينقصنا! لا وربي.

سارحٌ بنظره في جدول ملاصق للسور وباغتني:

– ما هذه الخنفساء الغريبة؟ غادرتْ الجدول تحاول تسلّق السور وسقطتْ، للمرة الثالثة تحاول وتسقط!

– هنا لا نأبه للخنافس، مع إن جدّتي تقول أينما توجد الخنفساء توجد العقرب، لكنها تكتفي بحملها في ورقة أو خرقة ورميها خارجا دون قتلها، الخنافس تتشابه ربما ليست ذاتها التي نراها كل مرة.

– هههه هههه، ذاتها؟ وهل للخنافس ذوات! إلا إذا سجلنا لها دورها في المقاومة البيولوجية! لكن العجيب أمر العقارب هذا! لم أنتبه لها في رحلتي، أنا لا أعلم كم يوما بقيتُ «مِعْزة» في مدينة الحيوان لكن «زَنْدَبيل»

قالتْ لي تُعيّرني (طوال هذا الوقت ولم تتعلمي لأنك عَنز)، عيرّتني فِيْلة!

لم أفهمْ العلاقة بين الخنفساء والعقرب! (ثم رفع بصره ناحية شجيرات الحديقة)، يتحسس أطرافه مستغربا، وباغتني:

– هل تزرعون القطن يا «فضل»؟ هل توجد أنهار؟ أعلم المملكة الليبية ساحل طويل على البحر.

ارتبكتُ لسؤاله! واحترتُ في «المِعْزَة» وهذا التقمص السريع لسميرة، وتغييره السريع للموضوعات، ولم أفهم المقاومة البيولوجية! وتعذّر كبح ضحكتي وعيني على مقبض الشعر الوردي فوق رأسه. كيف أقنع نفسي بأنه غير «جبر»؟

– بمملكتنا! القطن؟ لا يا دكتورة، يحتاج الكثير، الكثير من الماء، لا نيلَ هنا. ضاحيتنا تزخر بالزيتون والنخيل والموالح، لدينا أودية تسيل عقب الأمطار، جميلة وديساننا ورائعة وخصبة، لو مكثتِ هنا سنتشرف بزيارتك لها. هههه، هههه، فقط لو تزيلي هذه المقابض حتى نتفاهم هههه! (لم يهتم لي).

– في زيارة أخرى إن شاء الله، ما أجمل أزهار القطن رغم عمله المُضني. بعد أن انخفض سعره واحتكره الانجليز، باع والدي بعض الأفدنة من أراضينا في (سنبو)، واشترى فندقاً استثمره في «القاهرة» وأسكننا «العتبة»، لأحظى هناك بدراسة أفضل.

– يا عيني عليك يا«جبر»، عذرا، يا له من أب عظيم، يفعل هذا من أجل أن تقرأي وفي ذاك الوقت، أقصد منذ العشرينيات! أخبريني د.«سميرة»

كلي شغف لسماعك.

(ما كنتُ أسمح لوالدي أن يفعل ذلك! المهم أشغل هذا الفقاعة بشيء)

. طبعا. فترة الحرب العالمية الأولى، فترة حاسمة، تلبّدتْ سماء «سنبو«برياح جدب، وتهاوت أعناق القطن الذي نعوّل عليه، ولَوِيَ النفوذ الأجنبي ذراع اقتصادنا، ذلك منذ عام مولدي (1917)، فأهمل الفلاحون نتاجهم، وهم يذرعون البنوك جيئة وذهابا يستجدون قروضا على محاصيل قطنهم فرفضتْ، وصارتْ تطالبهم بأقساطها، وارغموا على التخلي عن بيع القطن لتحتكره وسعره وتصديره شركات اجنبية معينة، وزادتْ الحكومة الضرائب، فاضطررنا إلى توديع «سنبو«، وخضرة حقولنا ورائحتها، وخلعتُ ثوبي الأزرق الذي أحبّه، غادرناها لأجل الاستثمار وإتمام دراستي بالقاهرة، لكنها لم تغادرنا. حينها ربما في العاشرة.

(يا للصدف، «جبر» أيضا مهووس بالأزرق، فهل شعر بها؟ بدا لي «جبر» كمخلوق شبه بشري، هجين غريب! واكتئب فجأة).

– ولمَ الكآبة؟ احك «جبر»، عفوا احكي دكتورة.

. تصور في عام واحد فقط خسرتْ مصر اثنين وثلاثين مليون جنيه، لا تتشاءم من عام مولدي، ففيه تولى الحكم (فؤاد الأول) سلطان مصر. (وابتسمتْ).

ومشدوها أنا من فصاحته!! – ومداعباً – وبدتْ عليك بوادر النبوغ قبل العاشرة.

– لا تبالغ سيد «فضل».

– لكن الناظر «سيد بكري» لم يكن ليبالغ، أليس هو من هرع إلى والدك يخبره: (بنتك سميرة نابغة، أوْعَى تسيبها هنا، خُذها وروح القاهرة!) وأشار عليه الانتقال بك إلى مدارس القاهرة بعد أن لفتّ نظره بنبوغك في مسائل الحساب، وبسرعة الحفظ والاستيعاب، وتفوقك في قراءة القرآن؟ في العاشرة حفظتِ نعي «سعد زغلول» بالجرائد، تجلسين على «الدّكة» ترددين نعيه على زوار والدك في بيتكم دون العودة للجريدة!

– دنْتَ عارف كل حاجة أهوُ! بس دي أمور عادية.

. ولمْ تكوني عادية، أيووووة، لا تتواضعي. كثيرة الصمت إلا للسؤال، هادئة ورصينة منذ صغرك خلاف الأطفال، تتسللين مجلس والدك تلتهمين نقاش الكبار في الوطنية والسياسة، شغوفة بمعرفة كل مفيد، طفلة تلعبين بِمَكنة الخياطة، وهي ترسم خطوطها على تصاميم ملابسك، كنتِ موسوعة، تعزفين على العود، ولديك معمل لتحميض الصور في منزلكم. مبهر هذا، لكنك غريبة الأطوار!

– كيف عرفتَ كلّ هذا!

– وفي الكُتّاب أثْنَى عليكِ الشيخ «حماد عطوه بدر»، وكنتِ مُغرمة بقراءة التاريييييخ والسير الذاتيييية للشخصيات المتميزة!

– (ويحه، يبتسم على تذييلي للكلمات أمغطها ممازحا) فعلاً مغرمة بها جدا، نعم، وأذكر الشيخ «بوبدره» بعمامته البيضاء، هذا أنتَ عارف سيرتي

بالتفصيل – وتبتسم – آه يا سيد «فضل»، ولما أسأل «بابا» إزاي يا بابا بيشتغل المذياع؟ إزاي بيسير القطار؟ إزاي التلغراف؟ كان رده واحد (بالعلم يا سميرة)، كبرتْ معاي الأسئلة وتغيرتْ، وجوابه زي ماهو (بالعلم يا سميرة). وحشتني يا بابا.

كنتُ مرتاحاً مع روايتها التي شدّتْني، لكنها لم تفلح في تجاهلي وجه «جبر» كأنه مختل وهو يقول (وحشتني يا بابا)! وكانت منسجمة وهائمة مع زفتى والقطن ووالدها غَفَتْ بها عن أزمتها، وتسترسل.

– قرأتُ الابتدائية في مدرسة (قصر الشوق)، كنت أحبّ صويحباتي وسعيدة بأني الأولى دائما، أما المتعة الكبيرة ففي مدرسة (بنات الأشراف) الثانوية الخاصة أيضاً بالقاهرة، لن أنسى مديرتنا السيدة (نبوية موسى) الناشطة والسياسية المعروفة، كانت حازمة وشديدة وجادة، تتفقدنا والفصول والمعلمات وكل التفاصيل، كنا بنعملّها ألف حساب، تسير واثقة تمزج القوة بالوقار بجلبابها الطويل وخمارها الذي ترفعه عن وجهها خلفاً فوق رأسها، بس احنا الطالبات ومعظم المعلمات فلا نعرف غطاء الرأس هذا الذي تلفه «غزالة» و«لمياء». (لمْ تسألني عن علاقتهما ببعض! ولا عن علاقتي بهما! مرتاح لذلك، ومندهش من تماسكها، لا يمكن لإنسان مصدوم أن يتحدثَ بهذه الطريقة!)

وتضيف..

سأسرّ لك أمًرا، في الأول الثانوي قمتُ بإعادة تبسيط وصياغة كتاب

الجبر وطبعَ والدي على حسابه ثلاثمئة نسخة، وأهديته استاذي «محمد أفندي حلمي»: «جاز لي أنْ أتقدم بكتابي الجبر الحديث إليكم بعد انتهائي من تأليفه وهو الثمرة التي نتجت من غرس أياديكم البيضاء، فهذا الكتاب راجية أن يحوز عطفك السامي ورضاك.. المهداة.. سميرة موسى علي».

– إيه العظمة يا عظمة! أنت ولدتِ كبيرة! (اصحا يا صديقي)!

– ووزعتُه على زميلاتي مجانا، وحرصا مني كتبتُ في الصفحة الأولى «كل نسخة بدون إمضاء المؤلفة تعد مسروقة».

– مذهلة، هذه إشارة لحقوق الحفظ!

– والجميل أن السيدة «نبوية موسى» مديرة الثانوية قدّرت تفوقي، فأنشأتْ لأجلي معملاً عندما تقدمتُ بطلب نقل إلى المدرسة الحكومية بسببه، فقد كان ترتيبي الأول دائماً، وكانت مَدْرَستي تحظى بمنحة حكومية لهذه الهبة والنعمة، كنتُ حريصة على وجود المعمل.

– معملا لأجل متفوقة؟ مديرة فوق العادة إذاً!

– أنتَ مُحق، لو تعلم قصتها الغريبة والمدهشة لعرفتَ إنها استثنائية؟

بذرة في أحشاء أمها عندما غادرها والدها الضابط إلى الحبشة، تتململ جنينا متمردا في عتمة الأزل، ارتمتْ في أرضية الدار يحمل كفُّها الفقدَ، بكتْ، وبكتْ، وتعلقتْ برقبة الثكلى المكلومة، ترفدها أخيها الأكبر، دعكتْ رأسها بصدره، ففاض بقلم حاكتْ به داخل الجدران النصوص المكتوبة وسط صفحات الكتب قبل المدرسة.

– تعلمتْ الكتابة محاكاة دون مدرسة؟!

– تلك قصة لن تصدقها، تخطّتْ العاشرة بثلاث، تطلعتْ إلى المدرسة، قال عمها (البنت للغزل وليست للخط)، تنكرتْ في ملابس خادمة لتتقصّى في المدرسة عن الرسوم، وتقمصتْ دور أمٍ تستفسر لابنتها عن المطلوب، لابدّ من خَتم ولي الأمر للبتّ في الأمر، ولابد من رسوم لتسير الأمور، توارتْ بالختم عن أمها وختمتْ المستور، وباعتْ إسورتها ليرى معصمها النور.

– هذا منذ الثلاثينيات تقريباً؟ أي عظمة أنتم! وصحتُ (تعالي اسمعي يا لمياء)!

– بل قبل ذلك «فضل»، لك أن تتصور في 1923م كانتْ ضمن الوفد النسائي المصري للمشاركة بمؤتمر المرأة بروما، وكتبتْ في «مصر الفتاة» باسم مستعار، وفي «الجريدة» أيضا، ونُصبتْ مديرة للعديد من المدارس، يااااه وألفتْ كتب.

– ياااا ربي؟! أتسمعين «لمياء»؟! – ساهمة في السرد –

– كانت زميلة العقاد وربما فاقته لغة، الثلاثينيات أجمل مراحلها، كانت حينها زيتونة وارفة تعدّت الخمسين، وألّفتْ رواية «توب حتب»، وأنشأتْ مطبعة، و«مجلة المرأة» بعدها تعرضتْ للهجوم من حزب «الوفد» الحاكم، أغلق مدارسها ومجلتها وتعرضت للتفتيش، والتحقيق والاعتقال.

لكن سيبك من ده خليني أسمعك أبياتها:

يا مصر يا فخر المدائن والقرى

كم لجّ دهرك في العناد وأكثرَ
يا أم «آمون» غدوتِ بحاجة
لذكائه المخبوء في جوف الثرى
الله يرحمها توفيت أبريل هذا العام؟

– توفيت منذ العام 1952؟ منذ خمس وستين عاما؟ معك في نفس العام؟ أقصد هذا العام، الله الله الله ْعلى «مصر»، وعلى قدوتك وعليك! لا أصدق!

أخذتْ الحميّةُ «لمياء»

. أتعلمين؟ يبدو أن ذلك جيل استثنائي ففي تلك الفترة أوفدتْ «حميدة طرخان» رائدة حركة التهضة النسائية بليبيا والملقبة بـ«العنيزي» نسبة إلى زوجها للدراسة في تركيا لخمس سنوات، وفي العام 1917م بدأتْ بفتح مدرسة في بيتها لتعليم النساء مباديء القراءة والكتابة، وبعض المهن والأمور الحياتية، إثر ظروف الحرب والتشرد، لو تعلمين! تتحدث مع العربية، اللغات، التركية والإيطالية واليونانية والفرنسية. جيلهن استثناء بلا جدال.

– «حميدة العنيزي»، كأن اسمها مألوفاً لدي.

. ولا أظنك سمعتِ عن جمعية «نجمة الهلال» النسائية الليبية منذ 1908؟ مشْ بس تدبير منزلي وتطريز داخل ليبيا! فقد جمعت فيها المرأة الليبية التبرعات لصيانة آبار مكة وجبل عرفات، وأيضا لمشروع سكة الحجاز!

. معقوول؟ ده هايل ده!

– إنت الهائلة يا دكتورة، لكن هل صحيح عارضَ والدك دخولك الجامعة بعد كل هذا التفوق، وكل تضحياته لك من أجل تعليمك؟ أحقا هددتِ بالانتحار، ورمي نفسك من الشباك، فتراجع؟ دَنتِ بكذا قوية! .

– صدمني أبي بذلك يا أخي، كان الموت أحبّ إليّ، حتى فاتني الكثير من المحاضرات، ووعدتُ د.«مشرفة» بتدارك التأخير؟ أعجبه اصراري وردي: سأحاول.. سأحاول.

لكن بجد، من أين لك بهذه المعلومات سيّد «فضل»!؟

– وبجد لن أخفيكِ، استفزتني شخصيتك فاقتفيتُ أثرك، في «سنبو» و«القاهرة» وحتى «أمريكا»، أراك طفلة في قريتك تقرئين على لمبات الكيروسين تغالبين النوم.

– آه.. وشقيقتي «فكرية» تتوعد بإطفائه، متسلطة، عكس الصغيرة «عواطف» تخشى ازعاجي، ويعزّ عليها تدلّي رأسي من وسادتي هزمه النوم، أحضن الكتاب فوق صدري كحلم. تكتفي هي بالنظر إليّ! كم اشتقتهم!

(كيف لو تعلم أن «عواطف» اليوم مُسنّة لا تزال تحتفظ «بالمشبك البروش» والقلم والاكسسوارات).

– ما بك دكتورة؟ ما هذه النظرة الحزينة؟ ما بك؟ د.«سميرة»؟

– وأين «أمي»! أين عائلتي؟ تجهّم «جبر» وصار يهذي وقطع حديثه صمتٌ كأن فيه شجوناً مخفية، و..

عذراً سيد «فضل» يجب أن أهتم ببعض الأمور، تعرف لا أهل لي هنا،

ولا حاجيات، حتى لا ملابس، فقدتُ أوراقي مستنداتي، أموالي، حقيبة يدي، لا شيء معي، أنت لا تعرف أن تصبح إنساناً خالياً وفارغاً من كل شيء.

استفزّت «لمياء»:

– بل نعرف يا «جبورة»، نقدّر ذلك جيدا، (وتداركتْ)، ومن غيرنا خبر الفقد يا سيدتي؟ أضعنا الوطن والبيت والأهل والمستند، نعرف كيف يصبح الواحد منا فارغا حتى من جسده! كيف يتحول مسخا، لو تعلم أنك ذاتك الفاقد ذاتك «جبر»!! أنت حبيبي «جبورة»، ونزلت دموعها، وغادرتْ إلى الداخل بخطوات سريعة، مع قدوم «غزالة» نحونا، تفاجأتْ بمنظره، وصرختْ: لاا، هذا ليس معقولا، ونزعتْ ما بشعره، لن أقبل بذلك، أبدا. انْفَعل «جبر»، ثم أخذ يرتعد ويشدّ على أسنانه، ويهز رأسه أماماً وخلفاً وهو ينفض بكلتا يديه، وينتف شعره من جانبيه ويتمتم من أنا؟ أين أنا؟

– أنت «جبر» أقصد أنت د.«سميرة» اهدئي.

– لا... لا... ابتعدوا لستُ «سميرة» أنا المتحوّلة، أنا المشوّهة؟ أريد مصر... أهلي... بربكم ساعدوني، لا يمكن أن استمر مسخاً هكذا؟ يكفيني كابوس «العنز»، لأجدني امرأة في رجل! ماذا حلّ بي يا ربي؟

ولم تتمالك «غزالة»

– بل أنتَ (سيِد الرجّاله) يا «جبر» لا تقل عن نفسك هكذا، ستتعافى ستفرج يا «جبر»، عد إلى رشدك أيها الغالي.

حمدتُ الله أنه لم يكن ليستمع إلى «غزاله» وهي تمدحه «بسيِد

الرجّالة».

– صلوني بطبيب جراح، افعلوا أي شيء لأجلي، كيف سيراني أهلي وتلامذتي وزملائي، كيف؟.

هرعت «غزالة» بالمهدي ..

نام «جبر»، واستيقظ السؤال في صدري، ما هذا التشظي الذي نعوم فيه؟ هل أصبحنا أجساداً تحلّ فيها أرواح الموتى! ولا محلّ لنا حتى في المقابر.

* * * * *

– 3 –

«غزالة»

ربما في «الثلاثين»، ربما أكثر، نحيفة وتميل إلى الطول، بيضاء البشرة، شديدة سواد العين والهذب، أنف مستدق، رهيفة الشفتين، إنها مرسومة وواضحة التقاسيم دون جاذبية. تبدو هادئة، رزينة وقليلة الحديث، تنطق كلماتها ببطء فتأتي عميقة بعيدة، دؤوبة في العمل، نظرها مُثبت على ما بين يديها، رغم أنها هنا، كأنها ليست هنا! كأنها خيال قادم من بعيد ليبتعد من جديد!، ومع هدوئها تبدو قانطة حدّ التجهم، هي نقيض «لمياء» تماما، تعمل «غزالة» صباحاً بالمشفى، وتناوب أحياناً ليلاً بعيادة خاصة، وأرجو ألا يطول عجز «جبر» الذي سيضاعف ذلك إن لم يكن عبئا آخر، «غزالة» لا يهمها سوى عملها ومردوده، وألّا تؤثر أحداث الضاحية في دكان عمي «فرج» أو في خروجها لبرامجها.

تعرّف إليها «جبر» أثناء مُكوث والدته في المشفى العام، رغم دخلها المحدود تحرص بأن توفر الدواء على نفقتها عندما يشح من صيدلية القسم وكثيراً ما يحدث ذلك، تتفهم وضعهم ونزوحهم من مدينتهم خالي الوفاض، وتكتُم الأمر عنه تفادياً للإحراج، إلا أنه اكتشف ذلك عندما اشتكى مرافق مثله من شح الأدوية وأنه مطالب بإحضارها من صيدلية خارجية في كل مرة.

لم تخفِ سيرتها عن «جبر»، وأمّها تعاني وحَامَها، هرب والدها إلى

«لندن»، بعد تسرّب اسمه للأمن في قائمة للمعارضة، وضُبطت أمها متنكرة باسمٍ وهمي للحاق به، ما أودى بها إلى السجن في قضية احتيال وتزوير، لتولد «غزالة» بعد خمسة أشهر في سجن النساء، وتُطلّق أمها، تكفّل زوج خالتها بإخراج الأم من السجن، وتعهد بتربية «غزالة» للملمة الموضوع الذي يمسّ زوجته وبناته حسب قوله، تزوجتْ أمها بآخر، وتربّتْ هي مع بنات خالتها في بيت مُوسر يملأ البطن، ويُدمي القلب، «فغزالة» حملتْ عارَ سجن أمها، وغَيرة بناتِ أختها، واستهجان ثقافة تعيب نشأتها في بيت غريب، فبقيتْ الخادمة الشريدة، حتى غادرتهم بِعُقدِها إلى القسم الداخلي لاستكمال التمريض، واستمر زوج الخالة في الانفاق، كبرتْ وعُيّرتْ بذلك همسا وصل «غزالة»، لتهربَ بعذابها إلى بيت أمها تؤرقها وصمة سجنها، وتربيتها في بيت زوج خالة، ثم مع زوج أمٍ غريب! لتنتقل إلى العيش مع جدّتها لأمها، والعمل بمشفى الضاحية، مسحتْ بكلماتها الدافئة بردَ النزوح، وأنه ليس عارا بل ظرفا وملجأ، هدْهَدَتْه بأنّ جدّ والدتها لجأ إلى الضاحية منذ الخمسينيات، بعد نزاعٍ بينه وبين رجل من قبيلة جارة على مطامير تُمُور، أدّى إلى مقتله بعد شجّ رأسه بفأس، وكان الحل عرفيّا بأن يغادر القبيلة، فاختار الضاحية.

قدّر لها «جبر» خدمة أمه، وصراحتها فتزوجها، وربما زاد من تلاقيهما أنها أيضاً تعيش مأساة الأخ الأسير، تقاربا بالمشفى وترك لها رقم هاتفه فقد تتأزم حالة الوالدة في أية لحظة، وحدثَ فعلاً.

تتجول رائحة الموت ساخرة داخل أروقة المشفى تنتقي ما تشاء من الأرواح، تذوب في تلك الرائحة التي نراها حتى يصعب تفاديه، ربما التعود

على رائحة الموت هو سرّ تماسك «غزالة»، وكأن المستشفيات مكانٌ للموت وليست للنجاة منه، عبثا يهرع الناس إليها هرباً منه، وعبثاً بكى «جبر» أمّه كثيراً، أكثر مما بكى على عائلة «صالح» وأكثر مما بكى بعدها على «أبيه»، بكى عليها أكثر مما بكى عليها أبوه و«نصر» و«لمياء»، قد كان «جبر» الريشة التي تهزها أية نسمة، لا يحتمل مواجهة المشاكل ولا الضغوطات، ليكون قدرَ «غزالة» مثلما كانت قدره!

هو أكثر من تفاعل مع تنبؤات عمي «الغناي» وأحبّ البحر مثلما أحبّه عمه «الغناي»، وبعد خروجنا من «القصر» يتوقع الحوادث كلما تخيّل جَرَدْ عمي «الغناي» الذي لم نعرف مصيره؟ يقول إنه يرى جَرَدْ عمي «الغناي» يحلق كطائرة ورقية بيضاء في فضاء الضاحية وناحية الشمال ناحية البحر، يخفق كراية بيضاء تسبح مع الشمس والسحب والنجوم. يرى في كل ظاهرة للجرد علامة. إذا تماوج الجَرَدَ فارداً أجنحته تفاءل واستبشر، وإذا تراقص ضماً وانفراجاً، ينزل الغيث وتخضّر السهول، لكن إذا ما تناثر جَرَدْ عمي «الغناي» إرباً وضاع في فضاء الضاحية، فيطلب منا أن ندعو الله أن يخفف النائبة، كان يشير بأصبعه إليه مُلحّاً عليّ في رؤيته، أخذتُ وقتاً طويلاً قبل أن أتخيل معه جرد عمي «الغناي» كما يراه هو حقيقة، فهل يجب أن أتخيل معه اليوم عالمة الذرة؟ أما «العَنز» لا شك أنها حُمّيّ فقاعة.

تتزاحم الأسئلة في ذهني، ما ذنب «غزالة»؟ لتنام اليوم بعيدا عن زوجها في ذات الغرفة! ولماذا د.«سميرة» بالذات هذه؟ وهل انتهى «جبر» بذاكرتها، ولم يبقَ لنا منه إلا صورته؟ لا أظنها خياره، وإلا فهو يعلم أنها لا تحتاجه، فـ«مصر»

بها ألف «جبر» يتحدث عن الدكتورة عالمة الذرة. أما كان الأجدر لو كان اختياره أن تلبّس أحد المطموسين هنا في ليبيا؟ أقلّه ما عاش هذا المسخ بعقل امرأة وأعضاء رجل ذكورية. ترى هل ستأتي اللحظة التي أعرف فيها كيف التقاها؟ بالأمس ارتأيت أن يرافقني لدكان الحاج «فرج» مستغلا غيابه ومناوبة ولده في البيع، من جهة لأكسر حالة الانغلاق والارتباك منذ اصابته، ومن أخرى لتتفقد ما يلزمها، خطواته حذرة وملتزم الصمت ونحن نقطع الشارع نحو محل البقالة، يتأمل العامل الأفريقي الأسمر الذي يبتسم وحده، تفاعلا مع سيطرته على خرطوم المياه، وتوجيهه لتلطيف الجو وترطيب المكان وتهدئة تمرّد الغبار، باغث به للحظات وجوه صناديق الخضار والفاكهة المتجاورة بعناية أمام رصيف الدكان محدود المساحة، داخل المحل اكتفتْ بالتأمل، وأومأتْ بلا عندما سألتها عما تريد، سعدتُ بهدوئه ما يدعم أنه بخير، وأجد مبررا لزيارتي لبيته دون تساؤلات فضولية، أثناء رجوعنا وقف وأطال النظر في زاوية الشارع يمين البيت وابتسم، استبشرتُ، خِلته عرف سيارته، أجاب بالنفي، توجستُ اضطرابه، جذبته من ذراعه برفق وسريعا نحو البيت، سألني: مَن ذاك الشيخ الواقف بزاوية الشارع؟ أخبرته بعدم وجود أحد، أشار عليّ أن أتبعه لأراه، تبعته ولم نجد أحدا، أصرّ على أنه كان هناك، شيخ وقور ومهيب محاط بهالة ضبابية، مسترسل الشعر وخصلة جانبية بلون الحناء.

* * * * *

وإلى متى سيبقى موضوع «لمياء» معلقاً معي؟

وباسم «سراب» كتبتْ على صفحتها:

«الصباح يشبه امرأة بلّلها المطر ليتنفس العالم، تتلاشى من رئتيه زفراتٍ ليحيا، تتجمع غيمة تُرخي جدائلها بين ذراعيه، وتعود إليه. وأنت يا أمي لا تعودين، ولن يعود ما خبأتهِ لي، دُفنتِ هنا ودُفنَ تحت أكوام بيتنا، أوصيتِ لي به من الواحات، الثوب الحريري الأحمرالمُوشي بالفضة، أكمامه المنقوشة الوسيعة، وسرواله الساتاني الأحمر مطرّز الساقين، وتلك الرّيحيّة بُلْغَتي المزدانة بخيوط الحرير الملونة، ومرصّعة ببضع فصوص لامعة، طويتِها بدفء وسط قطعة قماش بيضاء حتى لا تتأثر فضتها بالرطوبة، وأودعتهِ حقيبتك البُنيّة، وكحرصكِ على نوم مولودك، وضعتهِ بحذر في أعلى رفّ دولابك، سمعتكِ تهمسين لخالتي بتأجيل شراء حولي الحرير الذي تتغير أوصافه وموضة خطوطه كل أشهر، نومُ مولودك صار أبديا يا أمي، آآه يا أمي، ليتهم دفنوا كل حرير الأرض وبَقيتِ لي، دُفن ما خبأتهِ لي، ودَفَنتُ معه خفْقَ قلبي، فهل تعودُ القلوبُ المردومة يا أمي! تتلاشى النساء زفراتٍ، وتعود كل صباح مع الغيم، فهل صرتِ غيمة يا أميمة!»

أتأمل كتاباتها باسمها المستعار، وأفسرها كما يروق لي، كسرتْ قلبي عليها، ألا يكون لها عالمها الخاص؟ مُعلّقة في ذهني كسرابٍ في خطواتٍ تقترب وتبتعد لتغيب وتغيب.

آخر ما صرّحت به ستسعى للحصول على تقدير عالٍ في سنتها النهائية، والتي حال دونها النزوح، والظروف النفسية القاتمة التي اكتنفتها، زد على ذلك

انغماسها ببرامج التمكين المتعلقة بدعم دول شمال أفريقيا والشرق الأوسط، استغرب التسمية! احتلتْ البرامج كل اهتماماتها. مقتنعة بالثورة والربيع الذي أزهر لجان التمكين على حدّ قولها. عندما رأيتها أول مرة، كانتْ بالسنة النهائية التي لم تنته. كنتُ قبلها لا أعرف إلا أن اسمها «لمياء» عندما يستأذنني «جبر» بأنه ذاهب للعودة بها من الجامعة، كان بسيطا ولا يجد غضاضة في ذكر اسمها، ولأنني كثير التردد على «جبر»، وكثيراً ما تكون تغطية الهواتف منعدمة ما يضطرني كثيرا للضغط على جرس الباب.

– مَن؟ .. مَن؟

– «فضل»، هل «جبر» موجود؟

– نعم. لحظة.

وتغيبْ اللحظة ليتعامل «جبر» مع الباب، لم ألقِ بالاً، ولم أفكر بالصوت الناعم السريع الذي يأتي من خلف التراس.

إلى أن كان يوماً غاب فيه السؤال مَن؟ فقد فُتح الباب فجأة، وتفاجأتْ هي بي، وهي تلملم دثاراً على رأسها وبيدها كراستين ملونتين.

– أووه... عذراً، أنتظر طفلة الجيران حسبتُها وصلتْ.

– لا بأس، قولي «لجبر»، «فضل» ينتظر.(مع وصول الطفلة).

– حاضر، وتهز رأسها تؤكد بإيجاب (ما يعني عليّ أن انتظر حتى تُنهي حديثها مع بنت الجيران).

قولي لها، هذان البحثان عليها أن تختار واحداً وترسل لي الآخر.

وتنظر إليّ مبتسمة معتذرة عن التأخير، (غادرتْ الطفلة فلحقَتْها منادية تعالي)، وتنظر إليّ ثانية معتذرة مرة أخرى عن التأخير.

قولي لها إن لم يعجبها، فلتذهب بسرعة إلى محل التصوير، هي تعرف مكانه فقط أخبريها أن تختار بحثاً آخر بسرعة فالعناوين لديه محدودة.

– عفواً «فضل» سأعلم «جبر»، وجرتْ بسرعة نحو الداخل.

هي حيوية لدرجة تطغى حيويتها على أي انطباع آخر، صنفتُها أقرب شخص في العائلة «لجبر» في طباعها، وهي بشوشة، وسريعة الخطوة مثله، ينبئ عن ذلك استعجالها فتح الباب تحسباً وصول الطفلة، ثم تشظيها بيني وبينها أثناء وقوفي منتظرا، وملازمة الابتسامة وجهها، ناهيك عن تذكرها تغطية رأسها في ذات اللحظة عند فتح الباب.

الوقت عصراً، وشمس الصيف تستمتع بمشاكسة البحر لتتبخر مشاعره رطوبة تعتلي المدينة، بينما تدلتْ خصلة سقطتْ على وجهها ملتصقة بصدغها تعذر حجبها، عندما تفاجأت بي كانت الصورة قد اكتملتْ حينها دون قصد مني.

«لمياء». مضيئة، جريئة الملامح، فاتنة النظرة، وطفاء – على رأي أستاذ الأدب – فاحمة الحاجبين، طويلة العنق، مكتنزة الوجه، قصيرة وممتلئة، لكنها هيفاء ما زاد نهوض صدرها. لولا قصرها فهذه أوصاف الجمال في شعرنا كما درستُه وأحببتُه. كانت هذه المرة الأولى التي رأيتها فيها، وإلا لكنتُ مازحتُها واعترضتُ على طريقة البحث الجاهزة هذه!

وعُدْنا وأمام الباب هذه المرة...

- «فضل»، قولي «لجبر» أنتظره.

ذلك بعد حوالي شهرين، كانت تودع صديقة لها عند الباب، غادرتْ الصديقة وسألتها عن «جبر» قبل دخولها، وابتسمتُ لها، تعمدتُ الابتسام بابتسامة تخلو من براءة عنّفتُ نفسي عليها احتراما لصديقي، وردتْ الابتسامة، وهذا يكفي إلى حد كبير.

في المرة الثالثة، كنتُ أحملُ دعوة حفل زفاف أختي، رافقتني أختي الصغيرة التي تكفلتْ بالجرس، أنبأتْهَا أنها تحمل دعوة، ففتحتْ لها، كنتُ بالسيارة وكانت أكثر جمالاً وحيوية وهي تستلم الدعوة وتنظر إليّ مبتسمة، تشجعتُ وهمستها عالياً (ضروري اتجوا)، وأومأتْ إيجاباً وهي تواري ابتسامة كبيرة، لم تفلح بطاقة الدعوة في حجبها وهي تضعها على وجهها استحياءً، وتوالى فتح الباب وتوالتْ الابتسامات والهمسُ اللذيذ عند السؤال وليس أكثر.

واليوم لا ينفع أن اقول اعلموا «جبر» أني أنتظره، فهو صار»سميرة»، وأنا بالنسبة إليه ذاك الغريب!

فهل سيعود؟

* * * * *

- 4 -

وصل «نصر» من العاصمة صحبة طبيب «أعصاب» مصري كان في زيارة لأحد المصحات الخاصة، أتم «جبر» أسبوعه الثاني متلبساً عالمة الذرة المصرية، وقد تكون هي من تلبّسته، ودرءاً للتوتر مازحتُهم: الطبيب مصري، وعالمة الذرة مصرية، يا لحظ «سميرة»، قياسا على المثل الشعبي، (جتْ تلعبْ واتتْها حدْرَة)، لم يضحكا، دخلنا ثلاثتنا بعد الاستئذان من د.«سميرة»، دخلنا على «جبر» حاول «نصر» معانقته فدفعه مستنكراً.

- عفواً يا سيد؟ من هؤلاء سيد «فضل»؟

- أخوك «نصر»، عفواً أقصد إنهما الطبيبان، هذا د.«نصر» ومعه صديقه الطبيب الذي طلبته.

- نعم، فقط استغربتُ طريقة سلامكم على النساء الغريبات! لِمَ لا تفعلون ذلك مع «لمياء» و«غزالة» (كتمتُ ضحكتي) وقلت له وهل نجرؤ؟

- لا عليك، سأُفْهِم د.«نصر» أن يكون أكثر تحفظاً، فأنتِ سيدة محترمة ولكِ تقاليدك، وغمزتُ «لنصر» الذي بدتْ عليه الصدمة وهو العملي المتماسك ففهم وأردف..

- نعم. حسناً. اعذريني دكتورة. حقاً أتأسف. نحن أطباء وعلينا

فحصك، وأظنك تقدرين ذلك وأنتِ العالمة؟

تبعثرتْ ردوده وهو يلتفت هنا وهناك يتفحص المكان، ووجوه الأطباء ثم:

– نعم، ماذا يجب أن أفعل. د.«نصر»؟

– بعض الأسئلة فقط أجبني، عذرا، أجيبي وأنتِ مرتاحة، تبدين بخير سيدتي أنت عاقلة ورائعة، وحتى جميلة، نقدّر أنك في ظرف صعب ومُبهَم، وجدتِ نفسكِ من طريقك لزيارة مفاعل نووي على طريق جبلي بضواحي كاليفورنيا إلى هنا بضاحية في ليبيا.

كان «نصر» يتحدث إليه وكان هو يسترخي شيئاً فشيئاً، لقد أدخل عليه كلام «نصر» المُطمْئِن والذي أشعره بأنه يتفهم حالته ويقدرها، أدخل عليه إحساساً بالسكينة والدعة. هه! كيف لا وهو يصفه بالجميلة!

قاطعه الطبيب: ايه ده؟ إزاي مش سامع صوت الرصاص؟ علينا إنهاء الفحص بسرعة، تعلم أني معرض للخطف.

. ويصيح «جبر»: الله! دَنْتَ مصري!؟ حاروح معاك، خذني للقنصل، لن اتركك..

. حاضر، بس اهدأ بس، استنكرتْ فاستدرك: اهدئي.. حاضر زي مانتي عايزة، واقتربَ من «جبر» مرتبكاً يفحصه ببعض الأجهزة لقياس مدى استجابة أعصاب أطرافه وحواسه والتي قال إنها سليمة من الناحية البيولوجية، لكنه لاحظ وجود تيبس كبير يخيّط كل عضلات جسده، ثم طلب من

«نصر» أن يمده بصورة مقطعية للرأس.

كان «جبر» طيلة الفحص كطفلٍ فضوليّ يتفحص أدوات الطبيب وطريقة عمله باهتمام شديد، ولم يغب عنه أن يحرص على تغطية جسده باللحاف المزركش الذي طلب من «غزالة» أن تساعده في ستره به باعتبارها امرأة يجوز لها معها ما لا يجوز لغيرها، وصوت الرصاص يربك الطبيب الزائر.

سأله الطبيب:

– ألا تذكرين من كان معك على الطريق؟

– زميلي الباكستاني، موظفا، قال أنّ المعامل الذرية أرسلته لمرافقتي.

– وماذا حدث في الطريق؟

– لا أعرف سوى أننا وصلنا الطريق الجبلي الوعر بضواحي «كاليفورنيا«، منظر ولا أجمل، حتني سحره أن استعجل الحلم الذي أنتظر، الاطلاع على تجهيزات معامل الذرة وآخر بحوثها بالولايات المتحدة، كان المكان شاهقا في مستوى الحلم، كنت أحدّثُ مرافقي بذلك، لا أعرف إن كان يستمع الي فلم أكن أنظر إليه، كنتُ مشغولة بالطبيعة، بالطريق إلى السماء لأهبَ «مصر» الشمسَ، لا أعرف ماذا حدث بعدها؟

– ألا تذكرين شيئاً عن رحلتك ومجيئك إلى هنا؟

– لا أذكر سوى كأنني كنت في غفوة في ظلام سحيق، وأنا أجاهد للخروج من ذلك الظلام باتجاه بؤرة الضوء التي بدتْ بعيدة، لا أدري كم

استغرق ذلك.

– ولا أصوات؟ أليس من أصوات دكتورة؟

– بلى. أصوات رياح ليست قريبةً، وكلام بَشر بلغات غير مفهومة.

– والمكان من حولك؟ صفي لنا المكان؟

– لأنك الطبيب، ولأنك «مصري» سأخبر ولأول مرة.

لا شيء سوى الظلام، أهوي في ظلام سحيق، سحيق، وانتفض لأجدني في غابة أنظر من خلال «عنز»، وأكتشفُ أني بلا جسدي، جسد «عنز»! وغرابة، وحكايا، والفيلة «زندبيل»، ومجددا ظلام سحيق كما نفق مظلم كبير، ثم كوّة ضوء بعيدة، من كوة الضوء البعيدة وحركته السابحة شعرتُ كأنه جسم اسطواني ضخم يعوم فوق الماء، وكما لو أن الجاذبية فيه ضعيفة، داخل النفق الكبير أحبو وكأني أحبو في الهواء بالكاد تلامس أطرافي وركبتي الأرضية، أحبو عائمة ولكن بمشقة وبطء شديدين رغم انخفاض الجاذبية، وهزّة عنيفة وارتطام بأجسام هلامية رطبة وإذا بي في هذا المكان ومشوهة الجسد ثانية، لو تعلم! عشتُ كابوساً طويلا حتى هنا، الكوابيس التي زادت بعد وصولي، أشعر كأن أحداً يطاردني، كابوس مرعب يتكرر كل ليلة، و«العنز»، وتلك التماسيح التي تزحف نحو الغابة كانت مرعبة.

– «عنز»؟! وكم بقي كابوس العنز؟ كيف حدث؟

– غابة حيوانية لا حدّ لها، مقسمة محميات وساحات، حيوانات

تتحدث مثلنا، تتعايش أليفة مع مفترسة، فئران وقطط، نمور وأسود، قردة وفيلة، رخويات المختبئ منها أكثر مما يظهر، يهطل المطر مرة كل أسبوعين من الصباح حتى المساء، غابة طرف بحيرة تخرج منها التماسيح وتعود وسط رعب لا تتصوره يا سيدي.

– يا إلهي؟ أين هذا؟ أووه عذرا أظنني تماهيتُ مع خيال «جبر» اعذروني.

– لم أفهم ماذا تعني أيها الطبيب؟ هل أكمل؟

– كيف كنتَ تأكل. تغتسل؟ ماذا عن دورة المياه؟ أقصد كيف كنتِ تدبرين أمرك؟

– سعيدة أنا بك، أسئلتك دليل تصديقك لي. كنتُ أخشى ألا يصدقني أحد. أنا نفسي لا أصدقه، أتمناه أضغاث أحلام. صدقني أيها الطبيب أرجوك ولن تندمْ، قد تجد فيه علاقة لتشوه جسدي.

– أصدقك، نحن في عالم لا غرابة، كل شيء صار ممكنا، هات غير المألوف سيد «جبر» أقصد د.«سميرة».

– بل شَدِيد الغَرابة، كما الأساطير، في حالة صدمة كنت، لا أركز على شيء وألحظ كل شيء، غائبة وحاضرة، اقتادتْني مجموعة من النمور في صمتٍ إلى مجلس حكمائها، فهمتُ وأنا خائفة أنّ عليّ مرافقتهم ففعلتْ، تسير بي حوافر «المعزة» بينهم بخفة، جماعات، جماعات حسب قطيعها، وفرادى كأنها مرسلة في مهمة، عبرنا ممراً من الأشجار، طويلاً وبعرض مترين

أو أكثر، لنصل قاعة فسيحة، على بابها نمران، وفي وسطها وعلى شكل حلقة يتقرفص ذئبان، وثعلب، وكلب، يستمعون بانتباه إلى «زندبيل»، فِيْلة أنثى عرفتُ (فيما بعد) أنها تجاوزت الخمسين هي صاحبة المشورة وإن كانت الزعامة «للشمبانزي» الذي شغل زاوية القاعة في متكأ يخصّه وحده يخطّ بعصا قصيرة على الأرض ويرمقنا بنظرة ناضجة لا مبالية، أما المَلك فلا يتدخل إلا إذا خرجتْ الأمور عن السيطرة وقلما يحدث. هذا ما اكتشفته عند مخالطتي لهم.

– بالطبع تأذيتِ؟

– كانت القاعة مُغلقة بالأشجار إلا من المدخل، وتلتفّ أعاليها لتشكل سقفا من الأغصان كثيفة الأوراق، المكان نظيف ومرتب، ونمران عملاقان على جانبي ممر الدخول الذي يقود إلى القاعة، أحد النمرين أخرج لسانه وفتح فاه نصف فتحة كانتْ كافية لأن أصرخ (دنا حاعترف بكل حاجة يا بيه) لولا أنه تراجع، اقترب مني الذئب الأول وبادر سؤالي بلهجة سريعة: من أرسلك إلى هنا؟ أنتِ غريبة عن الغابة؟ مع هزّة وانتفاضة من رأسه فهمتُها إنذارَ تهديد، عَوَىَ الذئبُ الثاني خلفي انتفضتُ وجريتُ نحو الفِيْلة، اعترضني الكلب، صرختُ أستغيثُ: يا ربي ارحمني، فتراجعوا جميعهم ما إن سمعوا صوتي ووقفوا متأهبين في حالة استنفار، كنتُ في حالة لا يمكنني وصفها، مشتتة وتعسة وعطشى وأريد أن أبكي وصوتي مسحوبا مني كما الآن، كنت كما اللحظة أيها الطبيب، وصرتُ انتحب كما اللحظة أيها الطبيب.

– اهدئي، وصلني وصفك وأثمنه، أو لستِ عالمة ذرة! وصف دقيق سيدتي. أكملي الآن قصة «المعزة».

صمتتْ لدقائق وردتْ:

– أشكر لطفك، نعم أبحث في الذرة، وعندما أعود «مصر» سأنشئ معملاً خاصا بي في منطقة الهرم بمحافظة «الجيزة» أنا توصلت لمعلومات هائلة. وما يهمني الآن أيها الطبيب تفسير هذا التغير الذي طرأ على جسدي، كيف انقلبت ذكرا؟ كرهتُ ملامحي، والأكثر الاصطدام بهذه الزوائد المشلولة!، ليست ثمة مشكلة أخرى لدي، إلا كيف جئت هنا أقدر أنه ليس ضمن مهامك يا «دُكْتر»..

كنت أحبس ضحكتي وأنا أرمق توتر الطبيب والتفاتاته المرتعشة إثر سماعه أصوات الرماية، ثم مندهشاً يلتفتُ على «نصر» ويرتد بصره إليها إلى «جبر». أحْرَجتْه بهدوء: لا تقلق يا دُكْتر هذا شيْ طبيعي عندهم، غير طبيعي أن تمرّ ليلة من غير موسيقى الرصاص.

أحرجتْه، فتجاهلها، وهمس، أنا متلهف اسمع قصتها مع الحيوانات لكني لا أريد أن أرهقها، سأتركها ترتاح الآن ونكمل بعد ساعات.

– بل سأكون مرتاحة لو استمعتَ إليّ، أيّة ساعات ستريحني وأنا مُحتجزة زمناً مع حيوانات تحسب الزمن بهطول المطر، بالثمار، منسوب البحيرة؟ «زَنْدَبيل» تلك الفِيْلة الحكيمة بخرطومها أبعدتْ الكلبَ عن طريقي وضمتني به إلى صدرها وانتظرتْ الزمنَ الذي استرديتُ فيه أنفاسي

ومعدّل نبضي. هكذا قاستْ الزمن! أفهمتْني أن رفاقها معذورون فصوتي لا يشبه صوت الماعز، ليس فيه لحن «الثُّغاء»، إنه قاسٍ كصوتِ البَشر، وأخبرتُها أني تائهة من أهلي ووجدتُ نفسي بينهم وفي غابتهم، وطمأنتني أنهم أهلي وأني «معزة» حسّاسة وستضمّني لقطيع «مَعز» لطيف لا يختلف عن معزها، وستسمح لي بالمواطنة والإدلاء بصوتي لاختيار رئيس القطعان الأسبوع المقبل ويجب أن أكون عند حسن ظنها.

حَبِيسة «عَنز» وغابة لا إنس فيها، لم أخبرها ببشريتي، كيف ستصدقني «زَنْدَبيل» تلك الفِيْلة وهي تراني «عنز» إذا كنت أنت الطبيب ما زلتَ تراني «جبر» آاه ما أتعسني.

– بل أصدقك؟ وهل انتخبوا رئيس القطيع؟

لا أعرف هل أضحكُ أم استهجنُ انغماسَ الطبيب مع هذيان «جبر» وتخريفه! استفزّني فتدخلتُ: أيّ تخريف يا دكتور وأيّة انتخابات؟ من ذا الذي سيحاسب الأسد؟ ومن سيعترض؟ إنه يفطر ويتغذّى ويتعشّى عليهم! واعذريني د.«سميرة» أو «جبر» أو أي كنت. وتنحّيتُ جانبا.

– لم يغبْ هذا السؤال عني يا «فضل»، لكن قد يحدث في أيّ مكان أن الملك كما الأسد يفطر ويتغذى ويتعشى على لحم محكوميه، ولا نسأل حينهاعن جدوى الانتخابات؟ فلِمَ نُعفي الملك الإنسان ونجرّم الملك الأسد حين يفعل؟ لماذا؟

على الأقل في تلك الغابة المُقَنَّنَة الأمور مستقرة، والجميع متعايش،

النمور تعمل ما تريد في صمت، وتقدم الفرائس للأسد في صمت، وتتقبل القطعان موت صغارها الدغافيل والجراء والحملان وغيرها بطيب خاطر فالموت هنا قدرٌ لا هروب منه فلم الشقاء الذي لا يورثُ سوى الحسرة! ما فائدة صراع لا يُغيّر من الكفّة شيئا؟ هذا ما لمّحتْ به الحكيمة «زندبيل».

أخبرتُها أن الصراع وإن لم يغير الكفّة تماما لكنه يجعلها تتأرجح، أنْ تتأرجح الكفّة يا «زندبيل» أفضل من أن ترجح كفة طرف واحد دائما، الصراع يا «زندبيل» يجعل الموت عليّ وعلىَ أعدائي، زجرتني الفِيْلة الحكيمة وحذرتني لو أُذِيعَ هذا الهمس فأنتِ الوجبة القادمة للأسد. وحذرتُها أنّ المهادنة لن تطيلَ عُمر الاستقرار، وسيأتي الدور على الجميع، دعكتْ رأسها بخرطومها وكأنها رصّت فيه كلماتي، فالحكماء لا يعلنون عن مشاريعهم.

– بالله عليك كيف جَرتْ انتخابات رئيس القطعان وبِرعاية مَلكية أسَدِية؟

– وبالله عليك أنا امرأة شفّافة و(دُغري) ولا يروق لي أسلوب التهكم (بتاعك ده) يا «فضل». اسمعني أنت أيها الطبيب:

كان أسبوعاً يموج بالحركة بين المجموعات القطعانية وبينها وبين المترشحين بواسطة مبعوثيهم، مجموعات إناث الفيلة تشرف عليهن فِيْلة مُسنّة تعدّت الأربعين، فذكور الفِيَلة تغادر إناثها لأخرى جديدة، فأدركتُ ما يفعله الرجال بالنساء، ثعالب تتملق وتقترح الحيل ذكرتني بقصص الثعلب

بالصف الثالث، النعام كأنه أبله وشكله مخلوق طيب، القنافذ كمغلوب على أمره، «الشمبانزي» يتشمس ويضع رجلاً على رجل واثق من فوزه فهو الأذكى، والظباء كعذروات لا يَجْدنَ سوى الاستعراض، الرخويات كالديدان تشكل الأكثر عددا لكنها لا تظهر بسبب ضآلتها وانزوائها في الأماكن الرطبة والمظلمة ولابدّ لها أن تعيش على عائل تقتات منه، كنتُ أختلي بعيدا حتى لا أصاب بالعدوى، محشورة أنا في قطيع الماعز تتدافع نحو بعضها في مساحة محددة دونما سور! قطيع أليف محب للالتصاق لولا هذا الذكر النتن خَطّرعليّ قُتُوّات الحَارَة، تلتصق الصغيرات خلف أمهاتها تخبئها وراءَها، الماعز من القطعان العشبية التي لا تُخشى، وبالمقابل فريسة مشتهاة، تموجُ الغابة، كل مترشح يريد أن يُقْنع برنامجُه الناخبين ليضمنَ الفوز، والترشح حقٌ للجميع، حتى تلك التي في المياه كالدولفين أو «لا فقري» في البحيرة أو في المياه الضحلة كالاخطبوط، ترشّحتْ حتى الحكيمة «زندبيل» فلم أفكر لمن أمنح صوتي.

لن تصدقوا درجة النظام، المترشحون أربعة هم «الشمبّانزي» و«النّمر» و«الأخْطبوط» و«زَنْدَابيل»، وكان الانتخاب مباشرا في ساحة كبيرة جدا وشبه مستوية، مجلسا مرتفعا للملك الأسد، ولبوته وأشباله وحراسه وحاشيته، اخْتِرتُ ضمن لجنة فرز الأصوات لأنني محايدة وغريبة. ينتشر النمور في نقاط استراتيجية للحراسة، وقف الأربعة في خط أفقي يبعد أحدهم عن الآخر بعشرين مترا، الأخطبوط يمثله حوض ماء لأنه لا يعيش إلا في بحيرته، والجميع ينتظر زئير الأسد للإعلان عن بدء التصويت المباشر.

– لا أتهكم سيدتي لكنك فعلا بالغتِ، نعم بالغتِ، كيف سيتدافعون في مرة؟ ومشكل التشابه؟

– لا تستعجل «فضل»، زئير الأسد أحدث زلزالاً ورعبا، وبدأ التقاطر والمشاركة ما يُوصف لدينا بنجاح العملية الانتخابية، تسمح بوابةُ الحرس للقطيع المتنوع بالدخول، يقصد الناخبُ جهة مرشحه المفضل، دون تقييد منح الصوت لنفس النوع، فيُحسَب له صوته ويغادر للجهة الأخرى حتى لا يتمكن من الإدلاء من جديد. بدأ الانتخاب منذ طلوع الشمس وسينتهي بمغيبها.

– عجيب، عجيب، عجيب. وبعدين!! لكن ألا يوجد حبر؟ الأسهل أن يغمس قائمته في الحبر، علامة على مشاركته.

– العجيب يا سادة أن الرّخويات كانت تتقاطر من أماكن الرطوبة والقمامة والمستنقعات تزحف داعمة «للاخطبوط»، الوحيدة التي تعصّبتْ لنوعها، كنتُ أخشى منه على «زندبيل»، كيف قبلوا ترشّحه وهو كل ما يفعله مِن بُعد حتى التزاوج، أتصدقون يتزوج من بعد!

– يعني لو فاز سيحكم من بعد؟ يخرب بيتك يا «جبر» على هالقصّة. عُذرا امتعتنا فعلا د.«سميرة»، أقصد كم قاسيتِ، فعلا كم قاسيتِ! د.«سميرة»!

لكن ألستِ معي لو فاز سيحكمهم من بعد؟ ثم هل لديهم ميزة التمديد؟ مُضحك صح؟

– وفاز يا سيد «فضل»، كما توقعت، فالرّخويات أكثر الحيوانات عددا ولا يهمها سوى الأكل، فاز الأخطبوط وهو أكثر اللافقاريات ذكاءً، نعم فاز «الاخطبوط» وأقنعهم بالحكم من بُعْد، مثلما أقنع الرخويات من بُعْد بالتصويت له. الرخويات حسمتْ النتيجة، مَن يصدق؟

كنتُ من ضمن لجنة فرز الأصوات باعتباري محايدة ومن الخارج وشهدتُ إعلان النتيجة ورفعها للملك لاعتمادها.

– عشتِ «عنز»؟ أنا طبيب يا سيدتي وأقدر المعاناة النفسية التي مررتِ بها ولو كابوسا، وأدرك الآن سرّ تماسكك؟

– أريد استعادة شكلي أيها الطبيب، أرجوك أفعل لأجلي أيّ شيءٍ، سأرسل لك قيمة العلاج التي تطلبها وافية من «مصر» حالما أصل. وستُكرّمَكَ «مصر».

– اطمئني سيدتي أنت عظيمة وفخر لنا جميعا وستكونين بخير. ودمعتْ عينا الطبيب.

حسبته نسيَ «جبر» لولا أنه التفتَ إلى «نصر»:

مشغولون بالتغير على عقله، ويرهقه جسده! قصة «العنز» أظنها كابوسا نتيجة الاصطدام أثناء السقوط في الهاوية، ولكنه أمر محير حقاً، وطالب بتعجيل الصورة المقطعية والتخطيط الكهربائي للدماغ.

أنتِ بخير د.«سميرة».

قاطعتْه:

– لستُ بخير، لستُ بخير..

– اهدئي سيدتي، أنتِ على حق لا بد من تفسير... الصور المقطعية والتخطيط أولاً، اهدئي الآن.

– سأهدأ. أبق معي لا تتركني، سأهدأ لكن ليس قبل أن تشرح لي عن المقطعية هذه وما معها.

– استريحي سأبقى وسأستمع إليك، وسأخبرك، هو تصوير طبي يعتمد على الأشعة السينية، بطريقة متطورة، لتكوين صورة ثلاثية الأبعاد للعضو المراد تصويره للكشف الدقيق عن المشاكل.

– وكيف وجدتم هذا الجهاز المتطور جداً؟ من أين لكم؟ لم يصل حتى أمريكا؟ أتسخر مني؟ أنا تخصصي في هذا المجال؟

– منذ سنوات دكتورة، أول عملية به في لندن. منذ ستة وأربعين عاما، ونحن نصدقك، ولذا لُقبتِ (بمدام كوري الشرق)، تستحقين اللقب.

استرخ «جبر»، واسترسلتْ هي:

– درستُ الذرّة بعد الأشعة السينية، والمفاجأة توصلت لمعادلة للحصول على الذرة بتفتيت المعادن الرخيصة! أنا فرحانة بِدا أوي، أنا عايزة استثمارها في المجالات السلمية، عارفين أمنيتي إيه النهاردة؟ (أن يكون علاج السرطان بالذرة مثل الأسبرين). أنا أجريتُ بحوثاً مهمة في معامل جامعة «سانت لويس» بولاية «ميسوري» الأمريكية، وكنت في طريقي لمعامل نووية لأجدني هنا!! عارف يا «دُكتر»؟ في قاعة البحث هناك تنسى

كل الدنيا خلفك، وكأن الله لم يخلق إلا متعة الاكتشاف، كنت أبحث في أي شق بين مسامات الهواء الساكن، قد أظفر فيه بفكرة تقودني لمعلومة، لا يفصلنا عن الحياة سوى حاجز لشريحة زجاجية كبيرة، تطل على سهل أخضر، وأفق ضبابٍ مُشاكس، أتحفز للوصول معهم إلى المعجزة، يعملون فريقا واحدا كلّ يستحث رأسه الهطول، إنهم يكتشفون دون جلبة، يتحدثون صمتا بأعينهم وأصابعهم مع الأنابيب والأجهزة بمنتهى الحميمية، تبتسم ملامحهم وتقطّب في علاقة نتائجية، آه أيها الطبيب!

– يا لعشقك للذرة سيدتي، – قال لها –.

وأسرّيتُ في خاطري (مصدّق روحه «جبر»)

– أنا أعشق العلوم وأحبها موت، ولذا دخلتْ كلية العلوم مع إني كنت الأولى في التوجيهية على مصر كلها، ومجموعي كان يؤهلني كلية الهندسة في حين رفيقاتي يأملن دخول الآداب، لن تتصور فرحتي بالبالطو الأبيض جنب أستاذي د.«علي مشرقة»، تركنا السنة الماضية. ولولاه ما كنتُ لأبقى معيدة في كلية العلوم، وضع استقالته على مكتب رئيس الجامعة في حال رُفض تعييني لأني الأولى على دفعتي بالجامعة وبامتياز، كم حزينة على فراقه، لماذا لا يموت إلا العلماء؟ أيّة لعنة حلّت بنا! استغربت تحمُّس الطبيب وهو يرد من أعماقه:

الله عليك، أنت دُرّة يا عالمة الذّرة! دنتي د.«سميرة» بحق وحقيقة!

– آمّال لما تعرف أني أسست (هيئة الطاقة الذرية) في –1948–

بعد ثلاثة أشهر من إعلان إنشائها عالمتوسط، دنا لَفتَ انتباهي اهتمام غيرنا بامتلاك أسلحة الدمار للإنفراد بالنووي في المنطقة، عذراً أنا شغلتكم بحكايتي عن فحصكم، أنا بس استغربت أول عملية بالجهاز اللي بتحكي عنه أزاي ده؟ تدخلتُ لإنقاذ الموقف: أووه عذراً لم يقصد دكتورة وأجبتها: أعلمُ أن هذا غير منطقي، لكننا في أمور كثيرة لا نخضع للمنطق. وفجأة نحو النافذة وتبتسم. سألها الطبيب: ما الأمر؟ قالت شيخ خصلة الحناء، التفتنا ثلاثتنا ولا أحد. عاد «الطبيب» إلى «نصر»: يؤسفني د.«نصر» بعد الذي استمعنا إليه منه ومنكم، أن أقول أن حالة «جبر» غريبة، ولأول مرة أصطدم بمثلها، لم يحدث حتى في الأحلام ولا المنام ولا في الأفلام أن عاشت ذاكرة امرأة معروفة وميتة ومن ماضٍ مختلف في جسد رجل حقيقي موجود في الواقع الآني أو العكس.!، ذاكرة ترى ما حل ليس إلا تشويها لجسدها، لا تعي أنها ميتة ولا تعترف أنها في جسد غيرها، ولا تغادره! ورجل تحوّل مسخا يتحدث بلسانها ولا يعي من أمره شيئاً، لم يحدثْ أبدا، شاهدتُ تنوعا في تقمص الذواكر لكن ليس على هذه الصورة ذات العلاقة المأساوية، وبديمومة لا تنقطع، ولا أظنه ينفعنا فيها أي تصوير طبي، أنا عاجز تماماً د.«نصر» بكل أسف أعترف أنني بعد التفاصيل التي سردَها، أصدق أنها فعلاً ذاكرة د.«سميرة موسى» عالمة الذرة المصرية، أما «جبر» فليس أمامكم إلا مسايرته ربما يشفى مما هو فيه، الحمد لله أنه لم يتقمص شخصية عدائية، رزقه الله وهو البسيط في بيئة متخلفة بعقل عالمة ذرة، بل حبانا الله بالتعامل مع عالمة ذرة لولا هذا الشذوذ والتباين الفكري!

ولم استوعب قصة «المعزة» والسؤال كيف غادرها إلى «جبر»؟ يضعف واقعيتها، ربما كابوسا قبل مماتها يعكس لا وعيها، الأمر المقلق والجدير بالوقوف عنده هو احتمالية تفكيره في الانتحار! فليلازمه أحدكم.

– أثمن جهدك، أنتَ طبيب قدير، انشطر أخي بين شخصين نقيضين، انبثقتْ منهما شخصية ثالثة، شخصية هجين، لكن ما رأيك لو أقدم تقريراً للجهات المسؤولة قد يكون في نقله لأحدى المصحات الأجنبية مخرجاً لحالته؟

– نعم د.«نصر» ربما.

ها قد قال الطبيب كلمته، ووعدها بإيصال قصتها للسفير المصري ولمصر كلها، بس تلتزم بالعلاج، فماذا بعد؟ أظنه يمزح!

وفي كل مرة أسأل «نصر» عن ملف «جبر» للعلاج بالخارج، يتأسف لإهمال السلطات.

* * * * *

وأنا؟ من ينظر إلى شقائي؟ أحكمتُ عليه صمتي، وتائه ومفتون «بجبر» ومصيبته، التي تضاف لمصائب «لمياء» و«غزالة» ليزيد الحمل، لم أزر عائلتي، ولم أعزّي والدي في مقتل أبناء عمومتي، أثناء نزاع على أرض محروثة، وذاك الشرخ عرّى قبيلتي لردم حفنة حبوب! كل موسم حرث، تسقط رقاب الرجال، كل موسم حرث، تلعن الأمهات الأرض التي تأكل الشباب لتطعمنا الشعير، سقط الثلاثة على أرض قبيلتهم الواحدة. وتعيّرني «لمياء» بخالي القضية!

نشرتْ «سراب» في سلسلتها المساء ليس رجلا .:

«إيه، أيها المساء.. كيف ابتسم لك وأشرّع قلبي المفجوع! وأنكثُ لك جدائلي المعقوصة بالحزن والتعديد، واحضن حكاياك! كيف؟ وأنا أرى أخي يتسلّل أمام المرآة يرتدي حمالات زوجته، بعد أن يرصّها بحشوة لتتشكل نهدين! وأنا أراه يحشر أعضاءَه في إزار ضيق يُخفيها! ويشدّ مقدمة شعره بملاقط وردية ويصر أنه «سميرة»! كيف أجد حضنا يعانقك، وجفون زوجته تشكو لي ما أنت تعلمه؟ مَن ينأى عن جمالك أيها المساء! مَن ينأى عن عذوبة ريقك، وبرد غزلك، ودفء دثارك الأسود الطويل، لكنني لن أكون، والمساء ليس رجلا ولن يكون.

. بلى. وسأكرر.. المساء رجل، وأنا المَعني، وأنتِ «لمياء» لن أقبل بـ«سراب». وسنهتم بـ«جبر» حتى يشفى، لا تقلقي. متى تصدقي إنّ حبك عنيف؟

. رجاء «فضل» لستَ المعني، فلا تحملني بوح «سراب»، وأنتَ مجرّد رجل رسمتُه على لوحة مفاتيح ذات مساء ليس رجلا.

وغادرتْ المحادثة، وانقلبتُ إلى شقائي، فماذا أخبرك أنا أيها المساء؟ فالمساء ليس امرأة، إذاً افتح لي قلبك واستمع إلي.

* * * * *

«الأقدامُ المَشْلولَة لا تَصْنَعُ الزّلازلَ
وَلو أُشْعِلَتْ تَحتِها كلّ برَاكين الأَرْض»

*****

- 1 -

ومع أنها الأكثر تماسكاً، هي الأكثر تعثراً باسمه في كل مرة، وبعد أنْ يئستْ من علاج الطب، ارتأتْ «غزالة» أن يكون الشفاء بزيارة الوليّ الشيخ «الصالح»، ستتقرب إليه بكبش في ليلة جمعة حيث يجتمع الصّلاح، كما أفهمتها زائرة في العيادة، لم تستطع التأقلم مع أنه غير «جبر»، والأدهى أنه امرأة! كم هذا قاسٍ عليها، وفي كل مرة أطمئنها بأن الله سيهبها على قدر نيتها الصافية وهي الصابرة الهادئة والكتومة والطيبة حدّ السذاجة، لكنها ليست متفائلة، بعد أن اعتدنا تأخره طويلا في دورة المياه تقول رأته يتسلل الدرج إلى السطح ويعبث بالصحن اللاقط، وبالأمس فكك ملحقات الصحن القديم، وصار يقلّب قنوات التلفاز، يتابع ويستغرب، وكلما حاولتْ سؤاله بدا عليه الارتباك والخوف، فكم هي بائسة!

أذاعت «للمياء» أن أخاها الإعلامي النشط، قوضته أسوار مليشية، ارتعشتْ نظرات والده وتبعثرت مشاعره وهو يرجوه ألا يفكر بإحضار أمه أو أخواته خوفا من كسره بهن، لا يعلم أن هذه هي الزيارة اليتيمة لوالده، تصلهم أخباره، قيل لهم قد ربط بحبل في صندوق سيارة الدفع الرباعي هو ورفيق له، وجرّهما في ساحة المعتقل أمام بقية المحتجزين، غادرتْ أنفاس رفيقه، ودخل هو في غيبوبة لمدة يومين، وغاب جسده في جراب كسور، شفي بعدها على اعوجاج لم يمنعه من فرحته بالمشي دون معين، فرحة حسده عليها أحد المسلحين، تسلىّ بها، وهشم ساقيه بالرصاص مرة أخرى، تتألم «غزالة» كثيراً لكنها كتوم.

يومها قلتُ «للمياء»:

– هوّني عليك، ليتنا مثلها، ونعلم أخبار «صالح».

. لا تنبش مواجعي يا«فضل»، كَمدُ أمي وموتها قهرا عليه، يفتّتْ كبدي ألف مرة في اليوم، بين عينيّ كأنها اللحظة، حدّ البهجة بزفافه، نسيتْ أنها معلمة، وهي تناشد جارتنا ألا تدع ابنتها تقترب من سرير العروس، فلابد أن يكون أول من يطأه طفل ذكر، حتى تبكّر العروس بولد، وقفتْ أمي تحرس باب الغرفة، إلى أن جيء لها بابن «نصر»، ورمته فوق فراش العريسين وهو في حالة ذهول لا يعلم ما يجري، وكم راقصتْ ابنه مزهوة، تعيّر به ابنة خالتي ممازحة لإنجابها بنت:

أوليدي خِيرْ من الفْ بْنَيّة ** الّلي ضِحْكتْها كرْ كرْ كرْ

اللي ضُوقتْها تحتْ البَاطْ ** اللي فزْعتْها غِيرْ عْياطْ.

آآه.. لم تفرح أمي «بصالح» المفقود، ولا بولده البكر. ولم تشهد عطّيته العلنية، عكس ذواقة البنت التي في السرّ تحت إبطها، حسب رأيها.

. هوني عليك يا غالية، يجبر الله «بصالح». ليتني أستطيع المساعدة.

– وكم هو مرعب التسلية بساقيّ أخيها، أن يصاب بالعجز وبدم بارد. إثر الخبر أُصِيبَ والده بجلطة دماغية أدخلته في شلل نصفي.

– حاولت تهدئتها، يبالغون ليس كل ما يقال صحيحاً.

– بلى، وماذا عما رأته «غزالة» بعينها، ذات ليلة مناوبة، جِيءَ بفتاة

تبدو في العشرينيات، مع مُسلحَين اثنين وامرأة خمسينية، الفتاة في حالة إعياء شديدة، شعرها يتأرجح من عربة الإسعاف، يغسل العرق وجهها رغم ليلة الشتاء الباردة، يعلوه الاصفرار إثر نزوح الدم عنه، الخمسينية حنطية البشرة شعرها متموج وقصير، شدّته عشوائيا بمقبض شعر أسود، بها سحنة جمال رغم صلابتها، كانت برفقة المسلحين ما يعني أنها في دور السجانة، الفتاة في حالة اجهاض، تنزف بشدة، أُدخلت قسم الجراحة، أصرّت السجانة على الدخول معها غرفة العمليات بطلب من المسلحين، لكن القابلة رفضتْ بعد مهادنتها، وكأنها على معرفة بمرافقيها، ربما مألوفان لديها، وبعد تهامس ساخن وحذر، فهمتْ زميلة «غزالة» من الفتاة أنها محتجزة مع أخريات، لفظتْ المسكينة أنفاسها قبل أن يعرفوا اسمها أو اسم ذويها، تم سحبها في نفس الليلة من العمليات دون تقرير طبي، ساد الصمت والخوف غرفة العمليات، وخارج غرفة العمليات، لحقنا الخوف حتى بيوتنا وأضافت «غزالة» أخذوها معهم.. لا أحد يعرف سرها، ليلتها تقول «غزالة» عرفتُ أن حال الشباب أسوأ بكثير، أسوأ بكثير يا «فضل»، ما جعلني أفكر كثيراً بأخي «صالح».

– لا تقلقي، هؤلاء المسلحون مدْعَاة شفقة، إنهم مع المواطنين مثل المحققين الغُرباء، تصير المِحن غَريبة عنهم والجميع متهم، هم غرباء حتى عن الحياة، التي هي لديهم فرصة، وهؤلاء المساجين باب رزق لهم، حتى الحرب لديهم فرصة لغنيمة لا يرى فيها الواحد منهم إلا سيارة دفع رباعي أو دورة في الخارج، ولو مات فهو شهيد الغنيمة، أي بؤسٍ أن تسجن ليكبر

غيرك!

لم تَرقْ لها مواساتي، رأتْها تشويهاً للثوار الحقيقيين، قالت إنهم يحمون «فبراير» من السراق والحرب فُرضت عليهم. لا يجب التعميم، بل كما قلتَ يا «فضل» حالات فردية. اعتذرتُ لها لا أريد أن اخسرها من أجلهم. بالأمس أرسلتْ «غزالة» في طلب أخيها الأصغر ذي الحادية عشر ليقيم معها فقد تطول حالة «جبر»، وقد ينتقل للدراسة هنا فلا بد من وجود ذكر معهما بالبيت وكونه أصغر سنا لا يسبب وجوده حرجاً «للمياء».

تحافظ «غزالة» على هدوئها أو ربما تحاول، لا علاقة لها بالصراعات، وعلاقتها بالجيران محدودة بحكم عملها معظم النهار مضافاً إليه بعض الليالي في العيادات الخاصة، حتى السيد «بوشنوارة» صاحب البيت قد جاء مرة واحدة بعد إصابة «جبر» واساها وناولها كيساً، لم أعرف محتواه ربما نقوداً أو بعض المشتريات دعماً لها في محنتها. سألني:

– ماذا قال الأطباء عن «جبر»؟

– سيكون بخير، اللحظة نام بفعل الدواء.

– إذاً سأغادر ليرتاح، (والخيوط الحريرية المدلاة من شنوارته تهتز مع حركة رأسه متأسفا)، «جبر» شاب طيب، وأنت صديق أصيل، متى رغبتم اتصلوا، متأسف لحاله، وها هو رقم هانفي لا تتردوا، لولا انشغالي بالانتخابات لبقيتُ جانبكم.

– أووه. هل ستترشح للانتخابات؟

– كيف لا تعلم!؟ الحقيقة الأهالي أصروا، وهدفنا خدمة الوطن والمواطن، ألا تتابع التلفزيون؟ سينقلون برنامجي الانتخابي ربما مساء اليوم، سنحاول أن نفكّ أزمات المواطن الخانقة.

– طبعا.. طبعاً... سنتابعه لأجلك.

بعد أن غادر السيد «بوشنوارة»، سألتُ «غزالة» عن عمله الحالي، «فجبر» لم يكن يتحدث عنه كثيرا، تلعثمت المسكينة وقالت لا أعرف، لا أعرف سوى أنهم من الميسورين، زرتهم مرتين في بيتهم الجديد.

إذا السيد «بو شنوارة» سيترشح عن دائرة الضاحية!

* * * * *

– 2 –

قررتُ أن آخذَ «جبر» في جولة لشوارع الضاحية.

استقبلتني «لمياء» بالباب الخارجي للفناء، ابتسمتْ مرحبة ومعتذرة عن هذه الربكة الطارئة، صار الوشاح مسترخيا دون ضغط، وسمحتْ للجزء الأمامي من شعرها بالحرية.

– أهلاً «فضل» اعذرنا، نحن نعبر مشكلة لنتعثر بأخرى.

– وليتكم تتعثرون بي، ليتَ هذا يحدث.

– ومتجاهلة حقا لا نعرف ماذا كنا سنصنع معه لولاك، لكنني أراه متماسكا، يتصرف مع وضعه بوسطية أكثر، صار أكثر تفهماً.

– شاكستها: لكنني غير متماسك ولستُ وسطيا، ولا متفهما مثله، ولا أحبّ عنادك، ما أجملك ليّنة، جرّبي مرة واحدة كوني رطبة معي، كنتُ أهدهدها وهي تهزّ بيدها غصن الشجرة القريب من كتفها في إيقاع متواتر وتبتسم، وكلما اتسعتْ ابتسامتها أخفضتْ رأسها شقاوة كأنها تستعذب غنائي عليها.

ردي علي، سأنتظر الغيم حتى يصيبني، يكون من نصيبي.. بالليبي (الْعِينْ فالعذابْ اتْحَمَلْ.. ترجَاهُمْ رجَا لِينْ يَقْسمَوا)، وتشهق وتكمّم فمها بيدها: وطيّ صوتك، «غزالة» داخل، وردتْ تهمس بغناوة عَلَمْ: (مادامْ الْغَلَا

عالقَسَمْ... الناسْ بالغلا ليشْ شَاقيًا؟)، أستثارني ردّها، رجوتها بلقاء ولو قصير وفي أي مكان تختار، رفعتْ حاجبيها مستنكرة: طماع، مستحيل، خلينا في «جبر»، هو فعلا متفهم نسبيا، ألستَ معي؟

. اليوم أنا سعيد ومعك على طول، بجد هو كذلك، لا تنسي أنه يتحدث بمنطق عالمة الذرة، وأستاذة الفيزياء، هل تعلمين لم تكن لديه مشكلة البتة لولا أنه يستغرب جسده، لا أظنه سيكون على هذه الحالة لو تقمّص رجلاً، أما الآن فهو تماما كما يصف نفسه، إنه مسخ. عن نفسي تمنيتها حلّت في نائبة من نائبات برلماننا، أو ماذا لو أقنعتها أن تنتحل شخص «جبر» وتباشر عمله بدلا عنه؟ ستُذهِل عبقريتها كل من في المؤسسة! «جبر» لم يعد موجودا ولا دور له، ولم يعد يشعر بمعاناته! نحن نشعر بها، ود.«سميرة» تعاني نيابة عنه، ألا تتفقين معي؟

– لا أستوعب ما تقول، ألا تلاحظ أن تعاطيك مع «جبر» بأنه «سميرة» غير منطقي؟ وأنه مبالغ فيه! سحرتك وربي! أظنك ستجن، ولا تذكرني بأنه امرأة، والأمرّ عندما أضع نفسي بدلاً عن «غزالة»، هي زوجته، أنها في أزمة من هذه النقطة بالذات، تنام قريبة منه، تنتظر ما يُنتظَّر من رجل، فينظر إليها بعين امرأة لامرأة، باتتْ علاقة تأزم، أنت كرجل لا تعلم الصراع الذي تعيشه «غزالة»! هزني كلامها، دخلتُ عليها منتحبة، منهارة، (ومع حياء «لمياء» وارتباكها وهي تنقل ما قالته لها «غزالة» إلا أني شعرت بجرأة ما عهدتها فيها).

أنه لا يشعر بي يا «لمياء» كان يحادثني وهو يضع يده على كتفي

ويتحسس ذراعي ويمسح على شعري ببراءة امرأة، وكنتُ في حالة من النشوة والإحباط، ليتك تتفهمين الجمع بين النشوة والإحباط، أتعمّد استبدال ملابسي أمامه فلم تتحرك فيه شعرة، حاولَ مساعدتي ببرود وهو يبادر يتلمس صدري لتثبيت حمالتي وشدّها خلفاً أعلى ظهري، صحتُ فيه، كُن رجلاً لمرّة واحدة واكذبْ عليّ. لمتُها يا «فضل» على كلمتها، فاعتذرتْ: ضعيفة أنا يا«لمياء»، أضمّه أحياناً متحججة بأني أشكرها «هي» على موقف، فقط لأني أريد أن أضمّه «هو«إلى صدري، لأشعر بأنفاسه، اشتقتُه «لمياء» اشتقتُ أن يضمني «جبر» أن يحنّ إليّ.

واصلي «غزالة»، حاولي معه، لابد وأن يتحرك فيه شعوره كرجل، الإنسان قد يتشظى لكنه لا ينسلخ عن نفسه تماماً. (قلت لها).

الحقيقة أثرتْ في هذه التفاصيل الصغيرة كثيرا، والتي لم أكن لأنتبه لها لولا الإفصاح عنها من «لمياء» التي ترويها وهي تتفصد عرقاً وحياءً، لا شك أن حياءَها رغم تبدلها حال دون تفاصيل أخرى.

لو تعلم «لمياء»، الشعور الذي انتابني في الرغبة بضمها وهي تبثني تفاصيل «غزالة».

طلبتُ منها أن تهيئ لي مقابلته، وتختار ملابسه لأنه صار يستعير بِدَل «غزالة» وقمصانها، قلتُ لها سآخذه في جولة ميدانية علّه يتذكر شيئاً يُسهم في استعادة شخصه، سأمَهد له أنه «جبر»، وأننا في 2017.

رحبتْ «لمياء» بالفكرة، قائلة إنه حتى حبيس البيت، يستحيل عليه

الظهور أمام أهل الضاحية، الذين يضخمون القصص ويؤولونها، أسرعتْ إليه، وبقيتُ في انتظارهم، لا زالت رشيقة وسريعة الفعل والخطوة رغم التحول الذي طرأ عليها، بدءًا من ارتخاء الوشاح، إلى غياب الجلباب ليحل سروال جينز مع قميص طويل نسبيا يتماشى وامتلائها قليلاً.

لا زلتُ انتظر، ولا زالتْ تلك الخنفساء تجاهد لتسلق السور، ولا زالتْ تسقط من النقطة ذاتها، المرحلة ذاتها، وكلما فكّرتْ في تغيير المسار تتراجع نحو بؤرة السقوط، تحاول نفض أجنحتها الصلبة لامعة السواد، لكن مجالها هو من القِصر محدود حيث لا يلحق حتى نقطة الفشل في كل محاولة، الجميع يكدّ في هذه الحياة حتى الخنافس! ذكرتني حركتها بلعبة ابن أخي «دعسوقة» الذي يستمتع بأمرها من خلال «الريموت»، إلا أن تلك جميلة، برتقالية اللون منقطة بالسواد.

أطلتْ عليّ «غزالة»، من باب المنزل الداخلي، تنزع بقايا خيط من قميص لأخيها يبدو أنها انتهت من رتقه للتو، وبصوت حنون تحاول رَفعَه:

– أهلاً «فضل» ألا تشرب القهوة أولاً.

– لا عليك، سنمرّ بالمقهى أنا و«جبر»، سنشربها هناك. لم يتفق معنا إلا في شرب القهوة!

– هل تتوقع أنْ يسيرَ الأمر عادياً، ألا تخشى أن تنتابه حالة الهستيريا، ربما يسبب لك خارجاً الكثير من المتاعب، من المستحسن أن يرافقك أحد أصدقائكم.

– بعض الأمور تحتاج أنْ نفعلها وحدنا دون مشاركة الآخرين، بعض الأفعال لا تقبل أن يشهد عليها أحد.

– (وهي تعيد الإبرة إلى بَكَرة الخيط) وبعض الأمور تكون غريبة حدّ الخروج عن السيطرة، لا نستطيع كتمانها مهما حاولنا، لابدّ وأنْ يُفتضَح أمرها، أرجو أن تسير الأمور كما تشتهي «فضل».

– وكما تشتهين «غزالة».

وعلا احتداد صوت «جبر» وهو يصرّ على ارتداء حذاء «غزالة» بينما تقنعه «لمياء» بالعدول عن رأيه.. لأ.. مش ممكن... كيف أخرج بحذاء رجالي؟ أصرَّ على حذاء «غزالة» وخرج «جبر» بخطواته المريبة الغريبة، وهو يرتُب بيده على شعره.

– أصلاً سيد «فضل»، أنا موافقة وسعيدة بالتجول في ضاحيتكم، كنت سأطلب ذلك بنفسي لولا أني استثقلتُ الأمر.

– كيف حالك اليوم د.«سميرة»؟ أراك رائعة، صدقيني حذاؤك السابق أجمل بكثير.

– لكني سأخرج هكذا، ولن أضع على رأسي هذه المحارم التي تضعها «غزالة» و«لمياء».

– فقط كوني بنفس الهيئة التي وصلتِ عليها هنا، فقط بسروال وقميص حتى لا تلفتين الانتباه، فنحن شعب (قصقاص)، يعني «حشري»، «فضولي»، خرج يتعثر بحذاء «غزالة» وهيئته التي صارت مستهجنة مع

منطوق د.«سميرة» صورة ذميمة وبشعة.

خرجنا وأنا أحمل حذاءً احتياطياً علني أقنعه على تغييره في السيارة، ويسأل عن كل شيء، وأصر على شبك شعره القصير قبل الخروج، وعلى معرفة معنى «قصقاص» بالتفصيل، الحقيقة ألحّ، بل هي التي ألحّت وليس هو، هي لا تفوت شيئاً إلا وتعرفه، الغريب أننا جميعا متقاربين عمرياً لكننا نراها أكبر منا بكثير، ونتعامل معها بهذا الشعور وأحيانا ننسى بمنطوقها وجه «جبر» الفقاعة، فهل حُسِبَتْ لعمرها سنوات موتها الخمس وستون؟ رغم النشاز فرضت شخصية د.«سميرة» نفسها علينا، أحيانا تتحدث بسرعة فتزيد دعابتها إثارة، مرحة ولطيفة، وحساسة، وخفيفة الظل رغم الشذوذ، لكنها واثقة فرضتْ وجودها ما سيفرض بدوره أن نتحدث بلسانها، أليستْ هي التي تتحدث فعلاً وليس «جبر»؟

ترى من الذي يعاني؟ أهو «جبر»؟ أم عالمة الذرة!!

* * * * *

أكثر من نصف ساعة لم نتحدث، انتظرتُ أن يقولَ شيئا، أن يسأل، لم يفعل، يخرج رأسه من نافذة السيارة كأنه يبحث عن شيء ويعود، يلتفت فضولا على المارة والسيارات، الآن بالذات أصرُّ على أن يكون «جبر»، استفزني فسألته: – ألم تذكرك الشوارع بشيء، ألم تتعرف على محل عمي «فرج»؟ كوشة «العايب»؟ شارع المولِّدات؟ زنقة المَكَبْ؟ شارع الجُملة! مدرسة شانِق روحه؟ السوق المحروق؟ جزيرة الحشيش!

– انت بتكلم مين؟

– أووه عفوا.. أقصد هل عرفتِ شيئا هنا د.«سميرة»؟

– كيف وأنا أراها لأول مرة؟ حتى أنها لا تشبه «سنبو«ولا «القاهرة» ولا مدننا في شيء إلا في طريقة مشي البشر! يتشابهون في تعابير وجوه بملامح غائبة، لا أعرف، كأن بينهم حزن مشترك، اسمع مني وما تزعلش؟ بينهم عَباطَة مشتركة. و(ابتسمتْ دون أن تلتفت إلي).

انحدرتْ بنا السيارة نحو الطريق المؤدي إلى المشفى العام، ويطل عليه مقر عمله، لم يتعرف عليه، دفعتُ إليها بأنه مقر عمل صديقي «جبر» الذي يشبهها تماما ونجزم أنه هو، وبه زميلته «فتحية»، لم يرد، سألته: ماذا لو تستثمر ذلك بانتحال شخصه، وتكسب عملاً؟ استنكرتْ، فهذا تزوير لا يليق بأخلاقها، أخبرتُها بأنّه عمل إنساني من أجل «جبر» فهو مجرد شخص احتياط قد يُستغنى عنه لو تأخر أكثر، والآن هو مفقود وسجلناه في إجازة مَرضية، ثم بعملها سيُنتَفع من عِلْمها وسيكون لها الأجر. طيب يا ستي فقط

حتى نتمكن من الاتصال بالسفير؟ لم أصدقْ سمعي وهي تقول لي ما دام الأمر كذلك سأفكر. في شارع المشفى حمدتُ الله أن مياه الصرف خامدة في هدنة، وإلا سيكون مغمورا، وستكون السيارات قوارب وسط المستنقع، المستنقع منحسر، فقط جسور من حجارة رماها الناس يعبر عليها المارة، استهجنَ وغطّى أنفه وهو يهز رأسه مستغرباً، استفزني أكثر، صحتُ فيه..

– لا يا شيييييخ حتى هذا المنظر نسيته! وهاهو المشفى الذي ماتتْ فيه أمك، وتعرفت فيه إلى «غزالة»! (كان سارحا لم يلتقط إلا «غزالة»).

– بخصوص «غزالة»، سأسرُّ لك بأمرٍ كنتُ سأفضي بالأمر «للمياء» لكنها صديقتها وقد لا تكون قدر المسئولية فيسوء الأمر أكثر، أنت رجل، لكن اسمح لي.

– ماذا حدث؟ أقلقتني!

– يؤسفني اخبارك إنّ «غزالة» شاذة، تستميلني وتتحرش بي، والأدهى تخاطبني «جبر»! ألا تعلم أنني امرأة مثلها؟ أرجوك ابحث لي عن مقامٍ آخر.

– لا.. لا. «غزالة» بائسة، هي ليست شاذة، جِدي لها العذر، فقدتْ زوجها «جبر» الذي تشبهينه تماما، وتراه فيك. سأنبهها للموضوع. بس وحدة.. وحدة.. لم أجد مكانا للفاصلة.

– (إنت بتتريأ عليّا)! والصندوق؟ منذ اليوم الأول تسألني (أين وضعت الصندوق؟!).

– أي صندوق؟ لا تهتمي، الآن فقط تأملي الأمكنة، وتعرفي على

ضاحيتنا.

أدقّقُ معه لأشعرَ بملامسته الأمكنة، وهل المكان غير ذاكرة؟ فكيف لفاقدها! يااااه وكأنني الآخر أرى الضاحية لأول مرة، لم أنتبه للتفاصيل الصغيرة إلا الآن، أين كنتُ وأنا أمرُّ عليها مشغولا مستعجلا لا أعرف إلى أين ستهرب الخُطى! يفترش الحزن أرصفتها يسري في أقدام الباحثين عن درب، وفي مفاصل المتسولين، وباعة مناديل الورق الذين طحنتهم مفاصل الحكومة، وتشمئزّ أن تشتري الورق لموائدها من طفل متجول، حكومة تخشى أن يُصاب أنفها بحساسية الشّعب. اليوم فقط اكتشفتُ أنّ المُتسوّلة عند المطب العشرين قبل جزيرة «كُليب» لا جيب لها، وأن بائع قُصاصاتِ الأدعية كفٌّ مُتعفّف، هذا ما رمتْه في عيني خبيرة الملاحظة، ولم أكنْ لولا تهكمها لألحظ مشاعر «محمود» المدلوقة على سور المدرسة (انحبّك يا سعاد)، ضحكتْ ملء قلبها على بوح الجدران، «داعش تتمدد» «وقدامك حفرة» وسهم يشير إلى «مأتم عيت لمْسلوَح»، ضحك الفقاعة حتى أدمع ثم بجدية استغربتْ عمارة البيوت! قالت مستوى الطراز في الحي الواحد متفاوت جدا، تتجاور واجهات القصور الرخامية والمنقوشة بالجبس المغربي، وفيلات المناسيب الفخمة، مع المباني البسيطة، والبائسة مسلوخة الجدران! لا يمكن تصنيف سكان المكان! طبقته! أهم من الأغنياء؟ أم الفقراء؟ أم ما بينهما؟، وسألتني تتبعون أية ولاية من ولايات المملكة الثلاث طرابلس؟ برقة؟ أم فزان؟ أكدتُ لها إن ضاحيتنا خارج الولايات الثلاث، وأنها لا تخضع لأية منها، إلا في أمور صغيرة، ثم أن عهد الولايات انتهى منذ 1963م. لكن لا زال لدينا ثلاث

حكومات! ولا دولة ولادستور ولا رئيس بعد.

تستنكر رافضة برأسها يمنة ويسرة وتلحقها بلا لا لا.. يكفي مزاحا.. ما أراه واقعا، لا تستغفلني، نحن في مصر كنا في نظام ملكي أيضاً حتى هذا العام قام الضباط بثورة 23 يوليو عزلوا فيها «فاروق» آخر الملوك، كان أبرزهم «عبد الناصر» و«محمد نجيب»، وحنستنّى ترسي على أيه؟

– رسيَتْ وشبعتْ. تقلد «نجيب» الرئاسة سنة واحدة، وعندما طالب بعودة الحياة النيابية المدنية أُجْبِرَ على الاستقالة ووُضِع تحت الإقامة الجبرية، وترأس «عبد الناصر»، وبعده «السادات» ثم «مبارك»، وعلى فكرة كرّمتكِ الدولة المصرية، وأقام سلاح الإشارة حفلا في أرض الجزيرة، و«السادات» منحكِ وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى. وعلى فكرة كمان، دُول كلهم عسكريين .

– حصل إمتى كل الكلام ده؟ وكمان بتتكلم مصري! (ويضحك «جبر» بل د.«سميرة» حتى تخرج عن طورها).

– أما نحن بالمختصر المفيد، فقد أسقطَ «القذافي» الملك «ادريس» في سبتمبر 1969م، حتى أسقطه أنصار فبراير بمساعدة الناتو في 2011، في حرب أدتْ إلى نزوح الجميع، وكل مدينة «القصر» ألا تذكرين القصر دكتورة؟

وهي تقهقه برقّة بشعة:

– أكيد هذا ما قاله عمك «الغناي» الذي لن أؤمن به، أخرجتني

من عقلي سيد «فضل»، كم أنت ممتع ولطيف، وطريف تسمية مدينتكم «القصر» ومَن هذا الناتو، أهو قائد عسكري؟ لم أسمع به!

– هو عسكري لكنه ليس شخصا. هو تحالف غربي، تحالف لدول الغرب.

– ليتني أسمع عن تحالف غربي دون النقطة، أستاذي «مشرفة»، قال «خير وسيلة لاتقاء العدو أن تكون قادراً على رده بمثله»، دفعني رأيه لدراسة الذرة، خاصة بعد كارثتي «هيروشيما»، و«ناجازاكي» اليابانيتين، من سبع سنين (أكيد سمعت عنهم)، وفكّرتُ في تغيير البحث الذري فيما يفيد الناس، كالعلاج من (السرطان) الذي أودى بحياة أمي، توفي أستاذي العام الفائت، كم تأثرتُ عليه وما زلتُ، لن أنسى دعم صديقتي اليهودية الممثلة «راقية ابراهيم»، التي شدّت أزري وصبرتني عليه، كم كانت ودودة.

– صديقتك يهودية؟

– ومالوا؟ كأنك مستغرب! علاقة المرء بربه تخصّه وحده، يا أخي ولو مش كلنا مسلمين؟ دي المعابد والكنائس جزء من تاريخنا، وجميل تنوع الطقوس بيثري عادتنا، ليت الحياة تقف على التعبّد بأي شكل، مسجد أو كنيسة أو حتى كوخ. ألستمْ على دين واحد؟ لا تنامون إلا على القتل، كم هو مدمر الاقتتال بين أصحاب الديانة الواحدة، وصديقتي «راقية» ممثلة جميلة ومثقفة، ذكية وقوية. بدأت حياتها بالخياطة للأمراء والملوك وقادتها علاقاتها إلى العمل بالتمثيل.

– هي أيضا منذ الخمسينيات؟! عذرا لا أقصد. أعني أما زلتما على تواصل؟

– طبعاً، هي من عمري، نسكن «العتبة»، وهي بحارة اليهود في حي «الجمالية» القريب منا، تزورني في شقتي بالقاهرة مكان اهتمامي بأبحاثي، أبثّها أمنيتي في نقل بحوث الذرة لـ«مصر»، مرحة وتفهمني (عالطاير)، تعمل الشاي لأجلي، وتدللني بالمهلبية! وتعشينا مع بعض في «الاوبيرج». مكان جميل جداً، لو زرتنا حااعزمك فيه. واقتضبتْ.

– ما بك؟ اللحظة وأنتِ مبسوطة!؟

– من أيام شفت معها كابوساً بشعاً بين غفوة وصحوة تشاءمتُ منه، رأيتُ اللهم اجعله خيراً «راقية» تلبسني طوقاً مخيفاً برؤوس مدببة، وكانت عيناها تدور في بياضهما كممسوسة، خفتُ، ودفعتُها عني (اخرجي بره.. اخرجي بره..)، وكأنه حقيقة، وصحيتُ مرتعبة!

– (لوّحتُ بأصابعي الخمسة أمام عينيه) «جبر» اسمعني ماذا بداخلك مَن يلقنك؟ هل أنت مُقيّد؟ سجين؟ أخبرني يا صديقي، أرجووووك، وصرتُ أنتحب.

– لم البكاء سيد «فضل»؟ الإنسان سجين ومقيد في زمان ومكان، وحده الخيال يسافر.

– وهل يستطيع سجين نفسه أن يتخيل، أن يحلم، أن يكتب؟ «جبر» لا يستطيع فعل ذلك، أنتِ فجّرتِ الأرض مثل كمأة وتحرّرتِ.

– لم أفهمك! لكأنك تقصد أن العجز دائما يلاحقنا. سيد «فضل».

وهل عجز أكثر مما هو فيه؟ حتى المشفى الذي تناثرتْ فيه أنفاس أمه، وجمعه بأنفاس «غزالة» لم يتذكره! صرّح بإنه أكبر من المشفى العيني بالقاهرة، حيث كانت تقدم خدمات مجانية لمرضى السرطان، بل هو لم يكتفِ بنسيان الطوابير إنه يستغربها!

تساءَلتْ: لم لا يتظاهرون بدل وقوفهم في طوابير؟ إن أعدادهم مهولة تستطيع أقدامهم صنع زلازل لو حرك كل واحد منهم فقط قدميه! أتعلم؟ أنا اشتركت في ثورة الطلاب بنوفمبر 1932م، تقصى عن السبب بنفسك.

–الأقدام المشلولة لا تصنع الزلازل ولو أُشعلتْ تحتها كل براكين الأرض.

– هاتْ هذه الشريحة لابدّ لي من انتزاع سرّها، (وانتشلتْ نقالي من أمامي).

– أتعلمين؟ أنا أحببتك أكثر من «جبر» هذا الذي أبحثُ عنه فيكِ؟

– عفواً سيد فضل (بدأ عليها الاستغراب الشديد).

– أرجوك أنتِ «أختي» لا تسيئ، فهمي ولا تقاطعيني، دعيني هذه المرة أقول ما أريد، أنتِ عاقلة وستتفهمين، أحببتُ التعامل مع عقل، يتفهم ما أقول ويرد عليّ بما يجب أن يرد، عندما أحدثك صرتُ أنسى ذاك الميت فيك القابع داخلك، المُخجل المعيب، وكثيراً ما يحدث أن أنسى صديقي «جبر» لأستمع من عالمة الذرة عن أبحاثها وسيرتها وذكرياتها، عندما استمع إلى سيرتك أقول ماذا سأجني من الاستماع إلى ذاكرة «جبر» التي أعرف

مآسيها؟ وماذا سيفعل «جبر» بهذه الذاكرة أليس من الأفضل أن يبقى فيك؟

أحياناً أقول، ليتني أستطيع أن أطلق عليه رصاصة الرحمة ليستريح، هذا «الجبر»، لن يعود «جبر» طبيعياً أبداً لن يعود، وما أتعسني بهذا التشاؤم؟ آه يا سيدتي. حدثيني سيدتي عن سيرتك، حدثيني.

– (وتفكك الهاتف)، بالتفصيل لم أفهم ماذا تعني سيد «فضل»، لكني فهمت بالمجمل ما قصدته، أن الواحد منكم يعاني، أنت تعاني سيد «فضل» هل نعود لترتاح؟ نحن أيضا تاريخنا لم يكن كله انجازات مشرفة، عانينا كثيرا من الإقطاع، والحماية والانتداب، وتظاهرنا كثيرا، أليس لديكم مثقفون؟ أين النخبة؟ طالع هذه الشريحة بالهاتف!

– هذه الشفرة تحمل رقم الهاتف ولا اتصال بدونها، دعيه واسمعيني.

لم تعرني اهتماما، تلعبُ أصابعُها بأحشاء الهاتف الذي لم يعدْ كذلك ولسانها يناظر ويتحدث عن دور المثقفين أين تظننا نعيش؟ كان «جبر» مسالما ولا يركّب جملتين ذاتَ علاقة، أشعر برأسي كبالون مُليء زيتاً يتسرّب إلى طبلتيّ، لا تعلم أننا سئمنا التنظير ولا حاجة لنا بعبء المسئوليات، كنتُ سأقول لها ذلك، لكن شقيا تعسا ينام في صدري قال لها: وزير كهربائنا مثقفٌ، لديه مكتبٌ فخمٌ، وربطة عنق لكنه لا يَعي أن انقطاع الكهرباء ساعة واحدة يسبب كارثة اقتصادية! ودكتورنا في الفكر لديه شهادة مؤطرة من جامعة مشهورة لكنه لا يقرّ أنّ من يسلبك شيئا ليس ليرده إليك!

– هل أنتَ بحاجة إلى الراحة سيد «فضل» هل نعود لنرتاح؟

كررتْ ذلك فانتبهتُ لنفسي، ماذا؟ هل قلبنا الأدوار؟ هل صرتُ بالنسبة إليها مأساة مثلما أنظر إلى «جبر».

– أنا بخير، كوني مرتاحة، دعيني أتجول بك.

– أووه يا إلهي، به تحديد مواقع وخرائط جديدة للعالم! يمكنني فعل الكثير به! في البيت ستعرض لي كل الأجهزة، كل الأجهزة، الذبذبات تملأ فضاءكم، أنتم مكشوفون «فضل»!

وضعتْ يديها على صدغيها وصرخت (أوو.. نو..)، مدهش هذا، أنتم تعيشون زمن غير الزمن، ضاحيتكم ظاهرة تحتاج دراسة سيد «فضل». ما سر ترديكم وسط هذه الثورة المعلوماتية؟

– الله يهديك يا دكتورة لا تغرنّك هذه المظاهر، ففي مرّة نلعب معركة أحرقنا أكبر مطار، ولا اتصالات رغم ما ترينه فالشبكة دائماً مقطوعة، ولا وقود والنفط حتى الرَّكب، ونمطره للعالم منذ الواحد وستين.

– تلعبوا معركة! والواحد وستين! وهذا أيضاً قاله «عمك الغناي»؟ أقدرُ الآن أنكم لم تتمكنوا من الاتصال بالقنصل المصري، أنتم في أزمة أنستْني أزمَتي! لم أصدق لن أسافر إلا بمحرم! ونساؤكم أخبرتني «لمياء»، قدنَ الطائرات منذ 1974م، بتواريخكم! وتخطنها لقيادة الطائرات الحربية. ما هذا الاختلال؟ أجبني «فضل» وكنْ منطقيا، قاطعتُها: بل قل لي أنتَ سيد «جبر» ألم تتذكر شيئاً؟ عفواً د.«سميرة» ألم تذكركِ معالم ضاحيتنا بشيء أبداً أبدا؟

– أبداً سيد «فضل»، ما بك بدا عليك الغضب؟ هل أسأتُ إليك؟ فقط ما أراه واقعا وذريعة عمك «الغناي» لم تقنعني.

– وهذه هي الحقيقة التي عليك الاقتناع بها، بدأت تستخدمين عقلك الحقيقي، فكري ملياً. تضحك ومرة أخرى: أنا على الجدران، فهمت عبارات الحب، بس جرذان وطحالب صعبة أوي! هل هذه مشكلة بيئية؟ هل تعاني ضاحيتكم من الجرذان والطحالب؟ وعبارات الكرامة وفجر ليبيا أكيد نوادي رياضية شديدة التنافس؟ (بددتْ توتري).

– ستقتلينني من الضحك حرام عليكِ، هي فعلاً شديدة التنافس، لكنها مجموعات قتالية تلعب مع بعضها لعبة حرب! والقتلى من الطرفين شهداء حتى لا يغضب أحد!

– ما هذا؟ وربي أنه العجب؟ ما سمعته، ورأيته في هذه المدة القصيرة، ما يجعلني أشكّ في صدق تاريخنا، لأن من يسيء استخدام الفكر لن يكتب تاريخا نزيها، يا ريت تعطوا التاريخ حقه سيد «فضل»! (وبكتْ. بكتْ د.«سميرة»، نعم ليس «جبر» الذي بكى ليس «هو«إنها «هي»!).

– اهدئي أيتها الماجدة اهدئي هل سنتبادل البكاء!! ما أروعك، بعض الوجع لا ينفع معه الكلام الأدبي، نظّري ما شئتِ.!

– و«داعش»؟ أهو إعصار!

– (هربتُ منها) أنظري هناك د.«سميرة» هذا طرف الضاحية به درب يقال إنه يقود إلى نهر الخروج، مسكون بغرائب الأمور. لكنها أصرتْ على

«داعش»، اكتفيتُ بأنه اعصار بشري رهيب تأتي به الريح، يقطع رؤوس من يكفّرهم، كان يستمع وهو في ذهول شديد، ويمتعض وجهه رعباً مما يسمع، ويشير برأسه مستنكرا مندهشا، حتى صاحتْ وتشير بيديها: – اسكت.. لا.. لا يا إلهي، أين تعيشون؟ الحمد لله إننا في «مصر» لم نسمع بهذه الكارثة! بالتأكيد أنتم معزولون عن الإعلام الخارجي، لم نسمع بهذا، وعلى «مصر» قفل حدودها معكم فوراً، اتصل لي بالقنصل المصري حالاً، الباين الطبيب كمان خذلني، أنتم على حافة هاوية، بل أنتم في قاعها، وعادته حالة الهستيريا كما توقعتْ «غزالة»، وصار كما كل مرة، ينتف شعر رأسه، ويضرب على ركبتيه، ويخبط صدره، لم أستطع القيادة أوقفت السيارة وأنا أندب حظي، وأنا أخفي عنه أن بين صفوف «داعش» مصريون، وفيها هناك دواعش من كل جنسية، وصرتُ أغني عليه وأهدهده، حاضر، كل ما تريدينه سيتحقق الليلة، سأتصل به مهما كلفني الأمر، اهدئي أرجوك هيا د.«سميرة» (وهي مستمرة في هستيريتها الغريبة توجه لكماتها لوجهها وصدرها). وأخذت تهذي: أين أنت يا شيخي؟ لم لا تطير بي بعيدا! دعنا نرجع البيت، ألحّيتُ عليها، أخبريني أولا عن شيخك الذي ترينه وحدك؟

لكنها ردت باضطراب، محاولة التركيز، كنتُ سأسألك إن كنت تعرفه، أول مرة رأيته يوم رافقتك إلى دكانة العم «فرج»، واقفا في زاوية الشارع ويبتسم لي. صار يظهر كل مرة في مكان بخصلته المحناة، ولأنه يتصادف أن يختفي كلما أخبرتكم عنه جنّبتُ نفسي الإحراج. لنعدْ إلى البيت «فضل» أشعر بالاختناق. الاختناق الذي بدده ظهور «المستبلي» فجأة ليقطع الطريق،

وهي تصيح بي، انتبه «فضل»، أوقف السيارة دع هذا الدرويش يعبُر، لا شيء يريحني مثلهم، متى رأيتُ درويشا أدركُ أن الله قريب.

عَبَر «المستبلي» بسلام، وتنفستْ هي راحة غريبة، حينها دستُ على مكابح البنزين وأطلقت العنان للسيارة نحو البيت، تركتُ بقية الجولة ليوم آخر. أتمنى ألا يكون هناك يوم آخر إلا ويصحو من غيبوبته، وإلا سأخبرها بالحقيقة، لابد لمفكرة مثلها أن تتعامل مع الواقع بمنطق، ولو كان واقعاً مختلاً مثلها، إنها أهلٌ لذلك رغم اختلالها، بتُّ أفكر في هذا المنحى حقيقة.

* * * * *

– 3 –

أتباع «بوشنوارة» يملئون الجدران بملصقاته الملونة، وينشرون صورته بتلك الشنوارة التي ألصقها برأسه بعد عودته من الخارج، مائلة تقتحم كل الميادين، تتدلي من طاقيته بخيوطها الحريرية الزرقاء تميل في خيلاء حتى الرقبة، تزين نواحي الطرقات والميادين المهمة، يتمدد أتباعه ويمدون لافتاته تسبح متتابعة في فضاء الطريق المزدوج الرئيسي، وبيته مفتوح يستقبل الوافدين والمبايعين.

(الشنوارة) في حالة مشبوبة ومختلطة بالنشوة والقلق، فالمترشحون لهم من المزايا ما يبرر توتره، إما متحزم بعِرْق دمٍ طويل أو مُلتَحِف فرو حزبٍ ثمين، ورغم جيبه، ورغم الوعود التي يتلقاها من وسطه ووسطائه فهو يعلم أنه (لا يَنْشّد بهم ظهر)، فلا أحد سيراقبهم وهم يضعون أصواتهم التي قيل أشتراها منهم، لا أحد سيراهم أمام الصندوق الزجاجي من وراء الستار بعيداً في قاعة الصناديق، والكولسة على أشدها فليس بُدّا من الترتيبات للحدث العظيم. يتحدثون بذلك في الزنقة، في المقهى، في دكان «عمي فرج»، وفي سوق الخضرة، وفي محطة الركاب وحتى في البوابات الأمنية، بل وفي مركز الحجامة لطرح الدم الفاسد، وهم كثر الذين باعوا أصواتهم له، ولا أحد سيضمن مصداقيتهم إلا الذمم، مثل من باع صوته الانتخابي لا تهون عليه

ذمته، أليس الصوت هو الذمة؟ يجوب «بوشنوارة» الدوائر الحكومية والقنوات الإعلامية، يبتسم، ويلوح، ويَعِد، وأشاعوا أنه يشتري الذمة بألفي دينار، عندما سمعتُ بهذا عادت لي الصورة لذلك الملفوف الذي ناوله «لغزالة» أيكون ثمن ذمتها؟ هل أشترى صوتها أيضاً؟ وهي التي لا تهمّها الانتخابات ولا همّها مَن يَفُوز فيها! ولِمَ لمْ يعرض عليّ أنا الآخر؟ هذا ما جعلني أشكّ في الشائعات المتفجرة، لن أصدق ما لم أسمع منه بأذني أو أتلقّى شيئاً عينياً، هو لم يطلب مني سوى متابعة برنامجه الانتخابي على الشاشة المرئية، الحقيقة، خطابيٌّ هو برنامج واعٍ وجديرٌ بالمبايعة، صرّح للمذيع أولوياتنا، التمكن من مكافحة الهجرة من أفريقيا نحو البحر. (وتمكين المظلات القادمة منه للنجاح في تمكين لجان التمكين المنبثقة منها للتمكين بالداخل)، كان «بوشنوارة» يتحدث ويشرح ممتنا للتمكين، مجاهداً بالاحتفاظ على وقاره، ومتشبثا ببعض المصطلحات الضرورية، فقد تطرق إلى الرقم الوطني، والشرعية، والمجتمع المدني، والهيئات القضائية، ومكافحة الإرهاب، والمذيع يهز رأسه مؤيداً ومعجباً، تحمّس «بوشنوارة» كثيراً وهو يبين أن ليبيا ليست للجرذان وحدهم، وليست للطحالب وحدهم، قال لا بد أن نعترف بأن ثمة أناس ليسوا «جرذان»، وليسوا «طحالب»، لابد من الاعتراف بكل الشرائح.

المذيع: هل تقصد الترحيب بثلاث حكومات، «سيدي»؟! لكن «بوشنوارة» لم يهتم وأجاب بكلام آخر.

ضحكت د.«سميرة» ضحكة واسعة وذميمة، وقالت: كلامه لطيف، أهذا نموذج للمترشحين!

– ما رأيك لو تتقدمي للانتخابات؟ أن تستثمري وضعك واحلالك عالمة ذرة ومفكرة متنورة بوجه «جبر» لخدمة الضاحية؟ وتذكرتْ، لا.. لا.. «جبر» لا وزن له، «جبر» مواطن مهمش غير مقنع، ما رأيك أن نشتري لك اسم وجه لشخصية مرموقة تتقدمين به؟ ستحصدين الكثير من الأصوات، لكن لا.. لا.. حتى هذا غير مجدٍ، من سيدفع؟ وكيف سنغطّي وجه «جبر»؟ يا للبؤس! لن ينجح «جبر» في شيء، أيعقل لم يعد يصلح لشيء! سنكتفي بمباشرتك لعمله، أعي أنها مهمة صعبة، وسأساعدك في الدخول إلى مكتبه، أما اقناع زملائه فهي شطارتك.

– ويا لأفكارك الغريبة! يا دي «جبر» ده! وسيبك من «بوشنوارة»، ما يهمني علاقة هذه الخنفساء التي تتداعى هنا بالعقرب، لم أصادفهما في كابوسي، أنا صحيح عالمة ذرة بس أعمل حسابا لكلام الجدّات، يعني لما الجدة تقول لا تشرب الحليب لو تبدّد على الأرض، لأن جنّها سيعضك من شفتيك، نعلم أن السبب غير منطقي، لكن ثبت أن الحليب المتبدد عرضة للتلوث، وقسْ عليها. أجدادنا كانوا بيردوا الظاهرة لأسباب ميثولوجيه، دي الأساطير أول من علل وفسر الكون؟ بس معروف عني عدائي للمعتقدات التي تسفّه العقل، أريد القول علينا الانتباه لعلاقة الخنافس بالعقارب، أفهمتُها ألا تقلق فنحن نعمل برأي الجدات في مهادنتها، ومتى اقتربتْ نكتفي بحملها بلطف إلى مكانٍ آخر.

يزعجني أسلوبها الخطابي العلمي الذي يغلبُ عليها كل مرة، إنه لا يتناسب و«جبر»، أخبرتها لدينا معتقد آخر مشترك بيننا، (أن بعض الوجوه

ليست وجوه حياة)، بمعنى إن الإنسان الاستثنائي يرحل سريعا. أظنني سأؤمن به دكتورة.

– هو فعلا عندنا، بس ده بالتأكيد خُرافة.

– خرافة؟! طَبْ بلاش من الذرة. ألا تذكرين خاطرة التمني التي أبدعتِ فيها؟ هي خير دليل أن التميز يرحل سريعا. لا تهتمي فقط اسمعينيها.

– يااااه.. خواطر وأمنيات مراهقة، كتبتها وعمري تسع عشرة سنة.. ده كان ممكن من خمستاشر سنة، بس أنا لسه عايشة! انت بتفاول عليا!

. بالله عليك متّعيني بها، أنتِ مُدهشة. حينذاك، أمنية جدتي أن تزور روضة الشيخ «الصالح».

. إنها طويلة، سأختصرها.

تمنيت... وتمنيت

وما أغنت الأماني شيئا

ثم تمنيت أن أكون أديبة ناجحة

أوتى من سحر البيان، ما يسمو بالمعاني، ويهذب النفوس

فأصف الطبيعة بسهولها الهادئة، وجبالها الشامخة

وثلوجها البيضاء الناصعة، وغاباتها الجافة القائظة

ومياهها العذبة الصافية، تنساب بين الاشجار

فتعكس فيها السماء الزرقاء

تمنيت... وتمنيت

فما أغنت الأماني شيئا!

هل تتحقق الأماني؟ وتُجاب الرغائب؟

وهل إذا تحققت

تهدأ النفس الثائرة المتمردة ؟؟ وتقنع ؟؟!

كلا لن تهدأ، بل ستتجدد الأماني

وتزيد.. فأتمنى.. وأتمنى

ولن تغنينى الأماني شيئا !!

نظرتُ إليها لأثبت لها أن الجمال يموت سريعا، بقي وجهها في منشورها ووجدتُ أمامي وجه «جبر».

* * * * *

- 4 -

كنتُ أتخيل أنْ تفتح «لمياء» الباب، لكنني فوجئتُ بفتى صغير نحيف، مريح الملامح عرفتُ منه أنه «حسن» شقيق «غزالة» وأنه يقرأ بالأول الإعدادي، وقد جاء لقضاء العطلة معها، تقديرا لظرف عمه «جبر» وربما انتقل للدراسة هنا. قال: لحظة (ودخل يخبرهم قدومي).

تمنيتُ في هذه اللحظة الكثير، وحلمتُ بالكثير وأنا أسلّمُ رأسي لمسند كرسي الحلم في دقائق الانتظار التي منحني إياها «حسن»، تمنيتُ أن يكون «جبر» مرتاحاً ونائماً، وأن تخرج لي «لمياء» في أبهى طلّه، في فستان كالذي زينته في حفلة زواج أختي، كم كانت رائعة ومليحة وجذابة ليلتها، وكان مساء الأحلام، كنتُ قد ولجتُ الباب الخلفي لمنزلنا ووقفتُ حيث الممر المؤدي إلى المطبخ، بعد مكالمة وردتني من أمي لإيصال سلك الكهرباء الذي سبّب انقطاعه جَلَبة في (صالة الخيمة) المنتصبة بالشارع الأمامي لبيتنا، توقفتْ فيها الفرقة الموسيقية، وانقطعت فيها الأنفاس المكبوتة مع انقطاع وصلة الزمزامة «المطربة الشعبية» في: «اللّي شاغلْ عقلي يا يَمّي ** متْباعدْ حَارقْلي دمّي»، وخَبتْ فيها حمى التنافس بين الفتيات في عرض الجمال، فتصادف أن كانت «لمياء» مع أختي الصغيرة لإدخال غرض من المطبخ إلى الممر... لحظة ارتبكتْ هي فيها بوضوح، ودارتُ ارتباكي وتشجعتُ بأهلاً «لمياء»، كانت

لحظة قبل أن أغضَّ فيها طرفي وانصرف، وكانت لحظة قالت فيها مرحباً «فضل»، ووضعتْ ما في يديها فهبط كل شعرها مع انحناءتها أمامها جانباً حتى لامس الأرض، ووقفتْ ولم تنتظر، غادرتْ بسرعة، لابد أن وجودي قد صدمها وهي بدون وشاح وذاك الفستان الأحمر حتى ركبتيها أبان عن استدارة ساقيها، وقد شدّت خصرها بشريط أزرق ملكي داكن زادها حُسناً، كانت أكمامه ملتصقة حتى منتصف ذراعيها، وتستدير فتحة عنقه باتساع واضح مع استدارة عنقها لتظهر كل نحرها وجزء بسيط مما سمح له شعرها خلف رقبتها، عضّت على شفتيها بعد ابتسامة مقتضبة رأيتُها حقلَ ابتسامات، ثم مرحباً، فبدتْ شفتها السفلى متقدمة قليلاً زادتها جاذبية. لحظة لا تُنسى رغم غض الطرف.

لن أنسى تلك الطلة أبداً و.. قاطعتني «غزالة» داخل حُلمي.

- كيف حالك اليوم «فضل»؟

- نعم، أهلا، ما أخباركم أنتم؟ وكيف «جبر»؟

- الحمد لله كل يوم يفاجئنا بطرفة، لو تعلمْ! الليلة قضاها ساهرا وهو يقلّب قنوات التلفاز، ومرة أخرى ركب السطح، لحقته، كان قد فكّك الصحن اللاقط حتى انقطع البث! ثم انزوى يكتب. أظنها مذكراتها هي.

- رائع، صغيرة تتسلل إلى سطح بيتهم تتأمل «القمر» وتقول عنه لذويها كلاما لا يفقهوه، أريد قراءة ما تكتب، أين هو الآن؟

- سأفعل.. دقائق، تفضل ادن كرسيك من الطاولة ريثما نكتمل.

– اسمحي لي ما دمنا وحدنا أن أسألك عن أمر الصندوق الذي بحوزة «جبر»؟ قال أنك تسألينه عنه كثيرا!

همّتْ بالرد، باعدتْ بين شفتيها وحصلتْ الكلمة، ارتبكتْ ثم متلعثمة:

– أيّ صندوق؟ أووه «فضل»، ألا زلتَ تصدقه؟ إنه يهذي، ادن كرسيك سنأتي حالا. (وانفلتت إلى الداخل).

هل حقا يهذي؟ «جبر» ربما، لكن د.«سميرة «لا تهذي، أبدا لا تهذي.

في الفناء الأمامي جلستُ، حيث لا يمكنني تجاوزه إلا نادرا لغرفة الضيوف، هنا قرب زاوية السور كانتْ ذات الطاولة البلاستيكية المستطيلة الصفراء يتبعها أربع كراسي بنفس اللون، كثيراً ما جلستُ و«جبر»، وكثيراً ما أسرّ لي عن حاجته هنا للأمان، وعن مغامراته في «الحي 2»، لا شيء يُزعجه مثل تلك الفتحة التي يحدثها إبهامه الطويل في جوربه فيبرز كفضولي غير مرغوب فيه، لا شيء إلا ضغط الدجاج المرتص في أقفاصه أمام مذبح الدواجن لعمي «الْعَرَج»، كُنا في عجالة عندما أجل مُكرَهاً انقاذَ دجاجة عَلِق رأسُها بين القضبان لحين عودته من المدرسة، كم كانت حسرته وكم بكى ليجدها ميتة مخنوقة، ولا شيء أشدّ رُعبا كاستفراد «بومريفق» به ليبتزه بذراعه المبتور حدّ المرفق حتى يتنازل له عن إفطاره، وهول عقابه لولا احتمائه بظهر جدّته بعد أن كشفتْ أمه أنه خبأ ربع الدينار بجيبه الخلفي، وسمع فيها للمرة الأولى أنّ السّرقات الكبيرة تبدأ ببيضة، فكيف الذين بيضتهم الأولى حجم

وطن! لا شيء يرطب جفاف حينا مثل أنفاس الجدات، هنّ من طقوس الحي، فقلما يخلو بيت من متكأ الجدّة، وحقيبة دوائها الصغيرة، وصندوق مقتنياتها العجيب، أو دولابها، أو وسادتها المحشوة بالحلوى! «جدتي» لأبي تقيم معنا، بينما تقيم «جدتي» لأمي في بيت خالي. كثيرة مواقف «جبر» المسالم، ضُبط وفشل في محاولة هروبه اليتيمة من المدرسة الثانوية وتم استدعاء والده، وكيف هُنا لم ينفعه هروبه من جدّية «غزالة» إلى دلال «فتحية»! كانتْ أياماً.

وكانت رذاذاً بارداً أيقظني غفلة.

– صباح الخيرات أنتَ هنا؟

– أووه! «لمياء!» صباحي أنتِ، يا للحظ، قلتِ ستسافرين.

– ليس بعد، كانت لدينا ورشة عمل في العاصمة، أُجِلَت حتى الشهر القادم نحتاج المزيد من الكوادر الفاعلة، وأنتَ متى ستذهب لزيارة أهلك، ما أخبار «الحي 2»؟

– هاتفتُهم، عَلِموا أني ملازم «جبر»، عاد أهلي بعد أن رمموا جزءاً من بيتنا ليستقروا فيه، عاد الذين لهم بيوت إلى بيوتهم أو ما تبقى منها.

تعلمين ما نجا من حرب 2011، دُمر في الحرب على «داعش» 2016 والنزوح مرة أخرى، الآن العودة شحيحة وسط الدمار والفقد. ومنهم من يخشى الذخائر والألغام التي لم تنفجر! أي شعور وأنت تتوجس في كل خطوة لغم؟ مرعب!

– إلا نحن بيتنا تضرر حد العدم، ليت الدمار لحق فقط الجدران، من الصعب ترميم هتك النفوس! اشتقتُ حينا «فضل».

– كلنا اشتقنا حينا، فقط أكملي هذه السنة التي علّقتِنَا فيها، وابتسمي أرجوك، أكاد أنسى ذلك، وعديني.. ابتسمت ثانية وثالثة، ثم..

. ما بك فضل أنت مثل أخي، لا تقلق، لا أفكر بشيء الآن. لولا «جبر» ربما أغادر طويلا.

سأعتبرها مزحة منك، طيب.. ستسافرين بعد ورشة العمل إلى «تونس»؟، ولماذا المقر الدائم للجنة ليس بالعاصمة؟ كيف ستمكنون المرأة من هناك؟

– ما هذا السؤال! «تونس» أكثر أمناً، «تونس» أفضل للعمل، وأيضاً المكان الأنسب للسيدة نائبة رئيس المفوضية الأوربية والممثلة السامية للشؤون الخارجية والسياسية الأمنية للاتحاد الأوروبي.

– (تَبْ تَبْ تَبْ)! ما أطولها من صفة، على أساس لا يحبون الألقاب الطويلة، وهل الممثلة السامية تشرف بنفسها على عملكن، يبدو مهماً دور الاتحاد الأوربي؟

– ألا تعلم إن اعتماد الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً يمنح (الاتحاد من أجل المتوسط) صفة المراقب في الأمم المتحدة، يعني أنه مهم؟

– كل ما أعلمه أن سفير الاتحاد الأوروبي لدى المغرب صرح أنه لا يؤمن (بالاتحاد من أجل المتوسط، لأن الانقسام بين العرب لا يسمح بتنفيذ سياسة اقليمية قوية).

– ها أنت متابع جيد، وماذا أيضاً سيد «فضل» واختلفت نبرتها.

– زعلتِ، نعم أنتِ زعلتِ، دعينا من هذا الحديث إذاً. لن نفسد اللحظة. مؤمنة أنت كثيرا بدور الاتحاد.

– بل عليك أن تعلم أننا في هذا الربيع الثوري نعمل بهدف تحريض النساء على تسلم مَهامهنَّ في ترسيخ الديمقراطية، وفي برامج التنمية والنهضة، وهو سيدعمنا.

– أقدر لكُنَّ ذلك صدقيني، فقط دعيني أراك قبل أن تسافري (لا أريد خسارتها).

ما عهدتها بهذه العصبية، لم تعد «لمياء» تلك الطفلة المعجونة ببساطة أزقتنا الصغيرة التي شدتني إليها، كبرتْ في هذه السنوات العجاف بعد 2011.. كبرتْ كثيراً، شحّتْ الابتسامة، لا تتحدث إلا عن الثورة والتغيير، والتمكين، حتى أنها لا تأبه لكلماتي الملغمة بالعاطفة، غابت لمعة عينيها، ورعشة شفتيها عند تعانق نظراتنا، وغابتْ الآن إلى الداخل على مناداة «غزالة» لها وكأن استعصى عليها الخروج «بجبر» إلى حيث مجلسنا.

عندما اقترحتُ عليها الاستفادة من حوارات د.«سميرة» بأفكارها الغنية، ردّت قد يأخذنا الحديث لمواضيع حساسة، وأنها لن تكون مسترخية أمامها، تخشى أن يستيقظ أخوها «جبر» دون سابق إنذار ويضبطها كيف تفكر! أصبتُ بالدهشة: أيسيطر عليك أخوك وتخشينه حتى وهو فاقدا ذاكرته؟! أألوم «لمياء»! إن كنت نفسي أخشاه؟! حينها عرفت أنها تهرب إلى «سراب»

لتبوح، بالأمس كتبتْ: ثرثرة

«بعد الدلال. وحيدة في مفترق طرق، من يصدّق! ولم أتصورني أصمد، الرغبة في البقاء تلدُ القوة ينتشل المرء نفسه، ففعلتْ، لم يبق لي هنا إلا هو، فهل..؟ لا أرغب في علاقة وارتباط، لكنني بحاجة لرفقة، ترميم قلبي أولا، أخبرتني الصدمات، أن لا شيء يروّض الريح غيره! وشوشتني، أنّ القلب هو العين التي تدمع، ترِفّ أهدابه إلي السماء، إنه صومعة التأمل والوسيلة إلى اليقين، حُرٌ قلبي كإرادة، لكن عقلي رهين هذا الثرى!»

. علّقت لها على الخاص: هذا القلب مُلكي، سأصنع له من كفّيّ محارة، وأربيّه لؤلؤة سلام، سأكون مِرْوَد بلسم لعينيك، أحبكِ، صدّقي «لمياء».

. كفّ «فضل»، لست المَعني، وأنا لستُ هي.

. ولستُ «فضل»، رجل لوحة المفاتيح أنا، كما تريدين، يا «سراب».

ما هذه العلاقة المختلة أيضا! متى شاختْ «لمياء»؟

وإلى متى ستستمر هذه المعاناة، لن أطمئن نفسي «بجبر»، أكثر من ثلاثة أشهر وأنا بين ثلاث نساء، والحال هو الحال.

وصل، يبدو عليه الشحوب والإنهاك، كأنه يحمل على كتفيه كل دمار «الحي 2».

– ما بك «جبر»؟ عفواً ما بك د.«سميرة»، أتشعرين بالمرض؟

– تلعثمتْ حياءً وهي تهمس، ربما عرض نسائي أخرّت قواعده محنة الزوائد المحدثة! صار «جبر» سمج الملامح، وهو يثني إن لجسدنا نحن

النساء لغته الخاصة، كدتُ أخنقه، لولا ابتسامة تحبسها «لمياء»، وعبرة خنقتْ «غزالة»، هذا ما كان ينقصنا! صدمتُ لأمره حتى أني أنكرت على «لمياء» ضحكتها، ورجوت «غزالة» أن تتفاءل خيرا، ما استثار «لمياء» فوصفتني بالتناقض.

– لا عليك منهما، اقتربْ «فضل»، لدي كلامٌ مهم.

– أيووووة، هكذا أفضل بدون سيّد، شوقتني، ما الأمر!

تداركت ما فيه، وتسارعت كلماتها – لم أنمْ من فظاعة وغرابة ما نقلته لي ذبذبات شاشاتكم، الصحون اللاقطة فوق أسطحكم في حالة صخب لا أعرف كيف تنامون تحته!! أنتم لوحة استقبال لمصادر مهولة العدد، وأكثرها لا ترونه، تمطركم بمخدرات تستحثّ النوم،، تصور نواياكم، تعيد تأهيلكم، وترتيبكم من جديد، أنتم وزوائدكم وألسنتكم، وفضاؤكم وترابكم محتلون، لا أعرف ماذا حلّ بالفضاء! في أمريكا لم يصلنا هذا!

– هذه نعلمها، نعم محتلون هذا ليس سرا، ليت هذا يقنعك إننا في الـ...، وليتك ترتبين للوظيفة، لا تنسي ستباشرين عمل «جبر» غداً، سأمرّ عليك صباحا.

– كفّ عن تخيلاتك واسمعني، الغريب أن الموجات تحلّق متتابعة أسرابا، كأنها تلاحق شيئا في الفضاء، تطارد شيئا استعصى عليها! جسما يطلق نحوها اشعاعات مضادة تعيق انتشارها جسما غريبا، لا هو معدنيا ولا هو خشبيا، وليس له شكل محدد ويظهر لها بصور مختلفة، وتطارده

مجتمعة.

– كيف ذلك؟

– لا زلت في البداية سأفكك الشيفرات، أظنه نسيجاً! إنه جسم أبيض منسوج، وطرفه مطبوع برسم لم أتبينه جيدا، يتحرك بسرعة، قد أحتاج مساعدة زملائي، فقط لولا هذه الزوائد المُعِيقة التي أحملها دونما قيمة، لو نبتَ لي قرنا استشعار لكانا أجدى منها، أظنها السبب في إعاقتكم.

– وهل أسرُّ لك أنا بأمر عن إعاقتنا؟ المفتش الدولي الكبير للذرة ورئيس وكالتها، لما شاف المشروع النووي الليبي، أذاع لزميله أثناء عشائهما معا في مطعم «الغزالة» بالعاصمة، وهو يذيب ملعقة السكر في كأسها، «إن علماء ليبيا يتقدمون على نظرائهم العرب بـ25 عاما» لحظتها، تراقصتْ الكؤوس على طاولاتها ثملى، وغنتْ «لميادة» (سِيدي أنا سِيدي)!!

– لم أسمع بالمفتش الدولي! منين ده؟ جانب نظري؟ سيدي أنا؟

– والعالم الذري النابغة، القادم من الشرق، صرّح أنه ذُهل من قدراتنا النووية. ورئيس حكومة يؤكد لجريدته في 2002، إنّ ليبيا ستكون أول دولة عربية نووية! (بالفصيح كده، كلهم غنوا علينا فاستبينا وابتلينا!)

– هايل والله، لابدّ لي من زيارته، أنتَ فاجأتني، من أين أحصل على ترخيص؟ يا الله، بدل مفاعل أمريكا هُبْ لمفاعل ليبيا! مش ممكن! مش منطقي! أنتم السنة اللي فاتت فقط نلتُم الاستقلال!ولا أعرف هذه الأسماء، بس برضو حلو، اهتم بتصريح الزيارة يا «فضل»، انتَ مالك مَخْضُوض

ومصفرّ كده ليه!؟

– واتخض ليه! بس يؤلمني أنْ نخذلك، لا تتفاءَلي بنا كثيرا، قُمنا بتفكيكه، قدّمنَاه قُربَاناً للفتوّات من أجل سلامتنا منهم أولا، وسلامتنا من النووي ثانيا، فلو بقيَ بأيدينا لما وجدتِ ضاحية أو بشرا هنا في استقبالك.

– أجد صعوبة في استيعاب ما تقول، أنت لستَ مضطرا لمجاملتي لهذه الدرجة لتبيّض وجه بلدك، أقدّر أنّ أمامكم الكثير، الإنسان المهزوم وحده من يخترع الأوهام هروبا من هزيمته، لتغطية فشله، هل هذا ما تشعر به؟ هل تعرضتم لهزائم متكررة سيد «فضل»؟ لا بأس أجدُني الآن كذلك، أنا في مرحلة تطمين فقط، ليتَ لي أذرع اخطبوط ولا هذه الزوائد.

كم أشفق عليها من زوائدها! ألا تعلم أننا نفجرها وسط أحيائنا، وإن بقيتْ لا يتناسل منها إلا شبيه «جبر»!

* * * * *

وصباحا، يقف «جبر» بشحمه ولحمه في بهو بيته ليقول لي:

ما رأيكَ في منظري؟ أليستْ هذه قيافة صديقك «جبر»؟

وددتُ لو أحضُنه، بل أنتَ صديقي «جبر» الذي أحبّه وأفتقده رغم قربه، لم تنتبه لي، اعتبرتْها كلمات اعجاب بمدى نجاحها في انتحاله، فهل تُدرك المطبّات الحقيقية التي عليها تجاوزها في العمل ومع الزملاء والزميلات الجميلات؟ خصوصا صديقته «فتحية»، هل عليّ أن أفصح لها بعلاقتهما؟ كيف لم يخطر ببالي قد يصحو برؤيتها فيعود! أسرّ لي لولا «غزالة» لارتبطت بها، فهل يحدث؟ سيباشر العمل، بل د.«سميرة» ستفعل، قلة من الناس يدركون ما بعد الخطوة الأولى، بل إن بعض المواقف تصعّب عليك ذلك، كأن تنتحل شخصا لا تعرف عنه شيئا لتجد نفسك أمام مدير عمله، أو معجب، أو ذا علاقة خاصة، تماما كموقف د.«سميرة» فهل تُدرك «العالمة» الخطوة التالية؟

في مقر العمل الزملاء «علي»، و«محمود»، و«سعد»، و«فتحية»، و«سناء». ذكرتُ لها أسماءَهم بالأمس وأكّدتُ عليها في درج السلالم. وإنهم شباب في عمرها بحكم العمل بالحواسيب، المدير فقط يقارب الستين، لكنه فاحم الشعر وكل مكالمة بنغمة، وأكثرها اتصالا النغمة الشعبية (غير عليّا ردْ، ماعندكشْ مُشكلة)، والمدير لن يكون محلّ احتكاك.

الصمت سيّد الموقف كان، رحّب به الجميع، (أهلاً «جبر»، حمدا لله على سلامتك، وين هالغيبة)، ومشدوها أنا بينه وبينهم أنتظر الزلاّت، تبتسم

لهم العالمة فأبتسم لهم معها، ثم تسرّح لساني: طالعْ «علي» يا «جبر» أما زاد وزنه قليلا؟ تهزُ رأسها ومع أول كلمة: فعلا زاد وزنه لكن ليس كثيرا، واو، فهمتْ أني أعرّفها عليه وأضافتْ (ليس كثيراً)!! ستنجح.. ستنجح أسرع مما أتوقع، لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل. سلّمتْ بحرارة على الجميع وهي صامتة، وإذا بـ «فتحية» تشيرُ له نحو كرسي مكتبه: ها هو كما تركته يا «جبر» لم أسمح لأحد بالاقتراب منه، تفضل. فردّت العالمة عليها بابتسامة ونظرة باهتة (وشكرا يا «سناء») فكان المطب الأول، وقع قلبي، واستنكرتْ «فتحية» استنكارا مُغلفا بمزحة مسمومة: نعم يا سِيدي؟ تدخلتُ: عليكَ بترضية «فتحية» كيف تُخطيء اسمها؟ ستزعل «سناء» أيضا (وأنا أشيرُ نحوها)، نحو «سناء»، (أكيد العالمة ضبطتْ القصد). وعليك الاعتماد على «محمود» فيما تراكمَ بعدك من عمل. (لم يبق إلا «سعد» ستعرفه دون تعريف).

مُرتبكٌ أنا في هذه الدّوامة أكثر منها، ولو تظل صامتة لكان أفضل، تعلمتُ أنّ الصمت أفضل علاج لتفادي الأخطاء، الآن تعلمت ذلك.

مبروك عليك العودة لكرسيك واتجهتُ بها نحو مكانه، جلستْ هي مكان «جبر» أمام جهاز الحاسوب، وتسمرت أنا أمام صفحة «سراب»:

«المساء ليس رجلا..

سأستدرجه بقَبَسٍ يفضح خُطوَه المُستتر، وجلالة حُضُوره اليحموم، وعينه الهَتُون، لنرقص رقصة المالح، على فراش النزف الحار، ننكث وسائد

الوجع، نتعانق تحت لحاف الخيبات ونضحك بجنون. وأخبرك حكايا أطلتْ من وسادتي: أثناء مرافقتي «نائلة» إلى أهلها في «الجبل الأخضر»، بعد ولادتها لابنها بشهرين، شكتْ لجدتها الثمانينية بعدها وحنينها، نامي في العسل يا «نولة»، الله لا ترد أياما مضتْ، في معتقل «الْعقِيلَة»، كانت «مغلية بنت يادم» تُهيء ثديها لصغيرها ذي العام ونصف، عندما سحبها الطلياني من وسط رفيقاتها، وطفليها، وجرها للساحة، وسط صراخهما يتبعانها، يتعثران في خطواتها اليائسة، كتّف يديها وراءَها، وربطها الحَبشي الغليظ على عمود في الشمس، كان الحبل يلتف كأفعى من قدميها الحافيتين حتى استقر على ضلوعها، وسط عويل وصراخ صغيريها، يتطلعان إليها وهي تغرق في الدموع والعرق والقهر، تحني رأسها، تهدىء ذا الأعوام الأربعة ألا يجزع فهي بخير، لكن أخاه الرضيع يتمرغ في التراب، يطلب الثدي، لم يفق من صدمة انتزاع الحضن، (أرفعلي خيّك لَفُوق السّاع يرضع، وتردّه لعماتك)، حاول رفع أخيه للثدي البعيد، يصل بطن الأم المقيدة ويهبط، يئس ويئستْ ولم تيأس الحسرة، مرّ صبي ربما في الثانية عشرة، شيع لها الرضيع، مرتبك ومضطر، أنزله، حرّر الثدي أولا، وأعاد رفعه إليه، قبضه الرضيع بكفيه متعلقا بصدر أمه وهو يمتص حلمته، يتنفس، ويتنفس، ويمتص، توشوشه، وتتمتم «مغلية» للرضيع ولأخيه وهي في أحلك اللحظات، يتنفس الرضيع ويتنفس، ويمتص حلمته، محمولا على يدي الصبي الشجاع، قبل أن يفاجئه سوط الحبشي فوق ظهره، انزلق الرضيع من بين يديه، وتبدد حليبه في تراب المعتقل، ذاك الصبي الشجاع، كان جدك يا«نولة»، هذي قصة حقيقية، مش خرّافة يا«نولة».

أخبرني جدك، أن رجلا منبطحا أمام برّاكة تخزين علف الخيل لعسكر المعتقل، والنمل طوابير يعبُر جسده، نبّهتُه للنمل، لم يكترث، ردّ بإن صغاره لم يأكلوا منذ يومين، وإنه ينتظر النملة تخرج منها بحبة الشعيرياًخذها، حتى يمتلىء كفّه.

ضمتْ «نائلة» صغيرها إلى صدرها، وبكتْ، وبكيتُ، لكأنها استشعرتْ مقتلها وصغيرها، بقذيفة جلاد عاد بأجنحة طائرة!

إييه أيها المساء الرفيق، سأقفل وسائدي على علاتها، هبْ لي صدرك ترتاح عليه حروفي، وينام هذياني!

المساء ليس رجلا فلا تسقطك عليه.

. بلى إنه أنا يا «لمياء»، ستنامين وحدك في قلبي، متى تصدقين!

. ومتى تتوقف؟ أنا «سراب»، يا رجلا على لوحة مفاتيح.

* * * * *

«مَن سَنُلاقي أمَامَنا في الجنّة؟
وَجه الرّسُول؟ أم الحُور العِين؟
أم أبْناءَنا المُغْتالين!»

*****

- 1 -

وعندما يتدخل القدر بجلالة قدره، وبترسانته العجيبة، يزيح كل ما في طريقه ليفعل، وبعد منتصف الليل رقم غريب يتصل. والأغرب أنه يقول «صالح».

– أنا «صالح». ما أخباركم «فضل» هل أنتم بخير؟ هل تستطيع أن تأتي لتأخذني من الجزيرة الثانية قرب الأعلاف.

– نعم؟! من؟ صالح؟! حي؟ أين؟ أنت بخير؟ هل أعلمتهم؟ حاضر قادم، (ما الذي ينتظرني؟!). تبعثرتْ كلماتي وأفكاري، صفير طبلتيّ صار جلبة أصوات، لا أذكر أني تخطيتُ الدرج ولا أذكر الهيئة التي غادرتُ بها الشقة، ولم أفكر بمخاطر الحرابة التي قد أتعرّض إليها في طريقي الموحش أقلها السطو على هاتفي، أو تهشيم ساقيّ، ربما رصاصة طائشة، الكهرباء مقطوعة والضاحية في خوف كامل، والمطبات المرورية كمائن العتمة ما تفنن القاطنون في صنع مثلها... منها المحدب المرتفع الذي يجرف باطن المركبة، ومنها الأخدود المحفور الذي تسقط فيه تتصدع، وهل أسوأ من مطباتي؟ لكن الأمر يستحق أنه «صالح» المقطوعة أنباؤه منذ اعتقاله من جهة غير معلومة في منتصف 2011، سبع سنوات وأكفّ اللعنة تصفع وجه البلاد، وأصابع الحرب تخنق رقاب العباد، سبع

سنوات قَبرت رؤوسا وزَرعَتْ رؤوسا، وسلبته زوجته وطفله، وكمداً غادرت أمه ولحقها والده، ومُسخت شخصية أخيه، هل علم دمار «الحي2»؟ وعن ركام بيتهم الذي ردم محبيه، وكيف أجرؤ أن أنفث فيه هذا السم؟

الجزيرة الثانية قرب الأعلاف ينتظر في مدخل الضاحية الشرقي، وشرق ضاحيتنا متفرع لا ينبئ عن جهة القدوم.

يا لسعادة «لمياء»، يا لفرحتها!!

أين كان صالح ومن أين أتى؟

تتزاحم الأسئلة داخل سيارتي التي تئن وسط الشوارع المظلمة والبيوت الأشد اظلاما، رغم صوت المولدات، ورائحة النافطة، وصور «بوشنوارة» تبحلق في هاتكي الظلام والمحظور، عاجزة عن البوح.

سيارة معتمة تقف في ناصية الطريق المتفرع، مألوفة ومرعبة في آن، فليس غريباً أن تمر بمحاذاتك في أي وقت، لكنها وفي كل وقت ترتعد معها فرائسك، تقاطعان فقط وأصل جزيرة الأعلاف، حتماً سأعرفه رغم العتمة، وسأميز رائحته رغم سحب الوقود، لن أتوه عنه، «صالح» موفور البنية خلاف أخيه «جبر»، مائلاً للطول، غليظ الرقبة، وعريض المنكبين، وظاهر الملامح، مضيء الوجه، جميل المبسم والمحيا، به أثر قُطَب لجرح في صدغه الأيمن لن أراه في الظلام، ينحدر كتفه الأيمن عن الأيسر قليلاً، «صالح» متمرد ومجاهر الشعور يكبر «جبر» ربما بأربع سنوات، درس هندسة النفط وتميز فيها، كان يستعد لإنجاز دورة في

«الجزائر» حالتْ بينها أحداث «فبراير»، لا أظنه يعلم بتضرر الحقول النفطية ونهب محتوياتها إثر عمليات التخريب وقربها من الاشتباكات، وكيف لو عرف بحرق الخزانات إثر إصابتها بصواريخ الحرب الدائرة بيننا وبيننا..

هذه هي جزيرة الأعلاف، أين هو؟ لا أثر لبشر هنا إلا ركام مكعبات التبن، كغرف مصمتة من سيقان الشعير المقلّمة بعناية فوضوية، يا لغبائي، كيف لم أفكر في استخدام الهاتف، إنه آخر رقم متصل، ضغطتُ على رقمه بسرعة، وبسرعة، شبحٌ ظهر من وراء مربع التبن، ووقف مكانه، لم يفلح اتصالي، هو من اتصل ثانية، ما إن رنّ هاتفي وترجلتُ، صاح: «فضل»؟ وصحتُ: «صالح»؟ فاقترب الشبحُ مسرعاً، تعانقنا طويلاً، كان حَنِينًا طاغياً كما لو أنه صديقي «جبر»، تعلقتُ به وبكيت «جبرا» كما الآن.

أين كنت يا «صالح»؟ تبدو نحيفاً هل كنت مريضاً؟ أين كنت؟ لم يرد، فقط قال، هيا هيا، وهو ينهشني من ذراعي ويتجه صوب السيارة:

– سأخبرك لاحقاً، أنت أخبرني يا «فضل».

– ما به «جبر» علمتُ أنه يعاني من حالة نفسية.

– غاب ثلاث ليال جاءنا ليقول أنه د.«سميرة». من أخبرك؟ كيف علمتَ «بجبر»؟ ليس هذا فقط، كيف عرفتَ رقم هاتفي؟ والضاحية.

– هذا سهل، أصدقاء كانوا بالضاحية، لا عليك الآن من معرفة

أخباري، وصلني دعمك «جبر» وزوجته، و«لمياء»، لا أعرف كيف نرد لك الجميل، أنت أصيل.

أخرجَ علبة سجائر وأشعلها بطريقة متوترة وسألني:

– هل البيت بعيد من هنا؟ بيت «جبر» أقصد.

– لا شيء في الضاحية بعيد إنها ضاحية كما ترى.

– ماذا قال الطبيب؟

– لا شيء عضوي، أنه تأزم نفسي شديد.

– الإنسان لا يصدمه ما قد يتخيله، الصدمة الحقيقية هي تلك التي ما لم يتخيلها أبداً.

– لم تسألني عن بقية العائلة وعن «الحي 2»!

– أشعل السيجارة الثالثة وبدأ يلتهمها، والتفت وأردف وبسرعة:

لم يبق منهم إلا «عائلة نصر» و«جبر» و«لمياء»، وأشاح بوجهه الناحية الأخرى وزفر سيجارته في مرة واحدة ورمى بعقابها من النافذة فأحدثَ شرارة تفاعلتْ مع التيار الهوائي المنقاد.

– أنا أسف «صالح»، ستجدهم (قدامك في الجنة).

– هه! مَن سنلاقي في هذه الجنة الموعودة؟ هل الرسول الكريم؟ أم الأمهات؟ أم الحور العين؟ أم أبناءنا المغتالين!

– أنت تَعِبٌ والوقت متأخر، ما رأيك تبيتَ الليلة معي حتى نُهيئ

أمرَ وصولك «للمياء»؟ وما أمرّ أن أقول لك أن «جبر» لن يعرفك! هل اتصلت «بنصر»؟

دعكَ جبهته بطرفي سبابته والوسطى مطولاً ولم يردْ، ثم التفتَ على صورة «بوشنوارة» وسألني: أتعرف صاحب الصورة؟ متى عاد إلى هنا؟ لا تختاروه، إنه أبو شيءٍ آخر.

– ومن لا يعرف «بوشنوارة»؟ ما به؟ ربما عاد من عامين او ثلاث، لا أعرف من أين عاد. أنقصدُ شقتي؟ هي فقط أربعة شوارع عن بيت «جبر».

– لا تختاروه، إنه أبو شيءٍ آخر، أبو من يدفع له،. لا.. لا.. بيت «جبر» أولا. لن أخرج منه، أنت ابق الليلة معي، وآمل ألا تخبر أحداً بعودتي. سأفهمك غدا كل شيء.

رضختُ لطلبه الذي طرحه بجدية حازمة لفّتَنا معاً، أخبرته بضرورة الاتصال بهم والتلويح بالخبر من بعيد وبالتدريج، وإن الوقت متأخر قليل، لكن الضاحية تنام مفتوحة العينين، الضاحية لا تغفو أبداً.

كان عناق العمر بين «لمياء» و«صالح»، كان عناق اليتامى والاحتياج والفقد، عناق المشاكاة والدموع والعزاء، كان عناق البكاء على الضياع، ضياع الأم ودفء الزوجة وهمهمة الرضيع، كانا يتعانقان وينتحبان، وكنتُ كل الهواء المتلاشي إلى رئتي من الألم، و«غزالة» تشهق بعبرة حسرة على النائم المُختل، كانا يتماوجان في صمت، إلا صوت

الحزن وسحّ الدمع المسكوب على الخدود المرتعشة، صار «صالح» يعدّد كنائحة، قتلوهم يا «لمياء».

أنتِ لم تري ركام دارنا إلا في الصور، لم تقفي على أسوارها المُهدّمة، لم تشمّي رائحة التراب المحروق، أنا تمرّغتُ عليه، ونبشتُ أثرَ أبي وانتشلتُ خشخاشة ولدي، وصورة أمي، ووشاح «نائلة» القرمزي، ولم أجدكم يا «لمياء»! شيّعتُ عيني للفضاء مكان شرفتِنا، هنا يلوّح لي من حضن أمّه يزيحُ وشاحَها بخشخاشته الملونة ويميل نحوي، وابتسامتها، وتراجعها لهفةً عليه وعلي، سقطتْ الشّرفة يا أخيتي، وهُما، والابتسامة، والخشخاشة، والوشاح القرمزي، تترنح «لمياء» في انهيارٍ ظاهر، ينبئ عنه شحوب وجهها وتقطع نظراتها لولا تلقفتها «غزالة»، وحضنتْ ظهرها بذراعيها، مالَ رأسها خلفاً ثم اتكأ جانباً، تلقّفها معها «صالح» وجرّاها إلى الداخل، تجاوزتُ معهما الباب الداخلي وتوقفتُ بالصالة حيث كنبة وكرسيان وطاولة صغيرة عليها قنينة ماء حمدتُ الله أن المُربِك نائم، رميتُ جسدي على الكرسي القريب، عجزتُ عن سكب كوب ماء، كنتُ حدّ العجز وقررتُ المبيت مع «صالح»، لا يمكن تركه لأظافر الهزيمة وحده.

أعتمدُ على «غزالة» في التخفيف عن «لمياء»، وكان موقفاً ليتعرف عليها «صالح» قسراً وفرصة، فهو لأول مرة يرى زوج «جبر»، سحبتُه نحو الغرفة الخارجية لكنه تصلب مكانه:

– أين «جبر»؟ – واتجه نحو الغرف –.

– نائم ولا يناسبه أن يستيقظ الآن يا «صالح»، إنه ينام برفقه المهدي تعال معي، سأبيت معك الليلة، لتقص عليّ ما جرى من لحظة اعتقالك 2011 إلى هذه اللحظة، تعال «صالح» وجذبته من يده.

– إيّه يا «فضل» لو تعلم هذه الليلة الثالثة التي لم أنم فيها، الصباح رباح.

كان حينها يسحب الغطاء الذي وجده مرمي في زاوية الغرفة على ساقيه دون أن يستبدل ملابسه، وغطّ في سباته.

* * * * *

الليلة الأولى التي أقضيها هنا، في بيت «جبر» في المكان الذي تتنفس فيه «لمياء».

مذ قال «صالح» الصباح رباح توفاه الله في نومه وابتلعه الفراش، ربما ابتلعته كوابيس جُملته واجتمعتْ مع أخرى استقبلتْه هنا، أنا لم أنمْ، مُشتتٌ بين «جبر» و«صالح» و«غزالة» كل منهم حكاية.

أما «لمياء» فحكايتها تعربد داخل صدري.

لم تعترفْ بالحُبّ، هو عندها كَعِنَاق، لَذيذ ولَحْظِي لا يعوّل عليه.

تسيلُ دموع الليل تستجدي طريقاً للحب، فهل الليل يمنح الأمكنة خارطة بنكهة مغايرة؟ هكذا بدا بيت «جبر» الليلة قُرب الأنفاس مختلفاً، أهي بخير الآن؟ ماذا لو تسلّلتُ إليها بحجة الاطمئنان؟ ماذا لو يضرب الله ثلاثتهم على آذانهم! ماذا لو تنظر السقف تبتسم لطَيفي فتأذن له بالدنو! ماذا لو وجدتُها مستسلمة وحدها قطعة من السكر المثلج أُحلّي بها جنوني، ليبرد لظى صدري؟؟

همس لي في أذني: نَمْ أيها الشقي الحالم. والأجدى أن تفكر في معضلة «جبر»؟ و«غزالة» التي استمرأتْ ترك «جبر» مع «لمياء» لتلتفت إلى عملها، وما سرّ الصندوق الذي تسأل عنه؟ وأين خبأه «جبر»؟ وما سر اشتراكه و«سميرته» في الأزرق، ولكل منهما قرين! ولماذا يُخفى «صالح» أمر مجيئه؟ لا يحمل معه سوى حقيبة قماش صغيرة؟ أشِحتُ بوجهي عن الهامس عن الوسواس، لكنني لم أستطع أن أتحاشى «جبر».

«جبر» الذي تطورتْ علاقتي به كثيراً بل تعقدت، عندما استكملنا جولتنا بالضاحية التي بدتْ لها موبوءة بالتناقض والحيرة، موشومة بالفزع والدم، كانت عيناه تتأرجحان ببلاهة مختل، ولسانه يحاور بمنطق مفكر، ولديه أسطول من التعابير لكل ما يراه، سألتني عما لو توجد مكتبة قريبة، فهي كما تقول تعشق الكتب وخاصة التاريخ والسيرة!

إذاً تحبين السرد دكتورة؟ (وباندفاع): ربما تأثير جدتي التي متّعتْني بسير «ذات الهمة» و«بن ذي يزن»، و«عنترة» و«بني هلال» وكثير سيد «فضل»، شدتني سيرة الأميرة «ذات الهمة»، إنها (فاطمة بنت مظلوم الكلابي).

– لأنها امرأة هذا انحياز سيدتي.

–لا تقل ذلك، أنت رجل واعٍ، هي بالفعل امرأة، لكنها مختلفة، تعال احكيلك. (كان علي مسايرته، وجلسنا في بهو المكتبة).

عقب ولادتها حزن والدها «مظلوم» لأنها أنثى بينما أخيه «ظالم» فاز بولده (الحارث) ما يعني أنه سيرث الحكم، فخبأ والدها أمر مجيئها عن أخيه وأهله وأودعها عند عائلة في بادية أخرى.

كنتُ استمع إلى «جبر» وهو يتحدث بثقة كبيرة:

متى بدأتْ جدّتي القص أراها، إنها هي (ذات الهمة) تختلس إليّ النظر من النافذة، وسبابتها على شفتيها أن اصمتي، وجدّتي تُسهب في قصتها، وكيف فاجأتْ قبيلتها (بني كلاب) بفروسيتها وشجاعتها، ويا بنتي دي ما (سابتش) عدوان لا داخلي ولا براني، من حرب مع (قبايل) «طي»، لحرب

الثغور مع الفرنج الرومان، الثغور دي المدن اللي (عالبحر) في الشام، تسترسل جدتي.. أذني لها وعيني على النافذة.

لو تعرفي يا «سميرة» دي هِربتْ يوم زفافها من ابنِ عمها في الوقت اللي هَم البنات راجل... عارفه ليه؟

– ليه يا جدّه؟

– (علشان) تحارب الروم اللي عارفه إنهم (حيهاجموا) بلدها في أي لحظة، كانت تحشد الرجّالة، والقبايل، عشان تحمي ثغور البحر.

أنت عارفة؟ هي اللي قادت الحرب ضد البيزنطيين، (اللي ابتدت من أيامات) الخليفة الأموي «عبد الملك بن مروان» حتى ايامات الخليفة العباسي (الواثق)، يعني يا ستي «سميرة» قرن ونصف زمان، (يعني كثير أوي يا بنتي زي عمري مرتين).

– أزاي يا جدة؟ هي كانت زيك مرتين؟

– يعني (ما ادّوئيشْ كثير)، أصل ابنها «عبد الوهاب» كمّل سيرتها.

– ابنها! مش قلتي أنها ما (أتجوزتش) يا جدة؟

– يخرب بيتك يا «سميرة» يا (وحشة إيه اللي عرفك بكده؟) أصل هي لما عرفت إن الخليفة (هارون الرشيد) عامل اجتماع وطلبها تحضر عشان يسمع برأيها، وياخذ بيه في الحرب اللي هي مهتمة بيها؟ كان أدلل عليها تتجوز ابن عمها ومش حيمنع جوازها الحرب، أتجوزته... بس سابتو وراحت الحرب. قام عملّها حيلة يدخل بيها عليها ورشَىَ عبدها بالكلام والمال إنو

لازم يشوفها، وإنو جوزها وادّالو منوّم حطوهولها في شرابها، ولما فاقَتْ عرفتْ اللي جرى، وحملت «بعبد الوهاب».. كبر في حضن أمه المقاتلة والفارسة الشجاعة، كبر فارس هو لآخر شجاع، وصار سندها مع رفيق قتالها (محمد البطال).

– ومين (البطال) يا جدة؟

– (ده كان عينها على البزنطيين.. يدخل مدنهم ويلم أخبارهم ويرجع بيها ليها... ده معروف بالحيل والخطط الحربية، دي عملت فيهم العمايل، دي تأسرتْ كم من مرة ونجت منهم.

– ست وعملت كده يا جدة؟

– آمّال يا بنتي آمّال لما تعرفي انها مع المقاتلين حاصرت «القسطنطينية» عاصمتهم وبنوا قصادها مدينة (المستجدة)، وعمل «البطال» الخوارق فيهم، يا عيني استشهد وهو بيحاربهم إيه يا عيني كان ماشي جاي بيوصل التموين للجيش من مالطا حتى الاندلس.

– وهي كمان استشهدت يا جدة؟

– هي انجرحت في المعركة، بس إيه؟ هي دخلت جوا عاصمتهم قسطنطينية.

موجات رائعة تصلني من «جدتي» وخفقان وذهول مع «ذات الهمة» تشير إلي من النافذة أن أتبعها، لم أقاوم النداء، أذني مع الجدة تطير بالقص من غرفتها، وأنا أطير مع (ذات الهمة)... أحكمت قبضتها على يدي وقبلها

قلبي وطارت.. متوشحة الجبين بالسواد، وجه جميل وجسد قوي وحركات خشنة، بادٍ الحزن العميق على ملامحها، لم تبتسم ولم تلتفت إلي وأنا أتأرجح وراءها لا تصل قدماي الأرض، ترتفع بي دون أن أشعر، لأرى أسطحاً من الأحياء نصف المضيئة، كان رذاذاً جلدياً يتساقط من جسدها يتناثر على الأسقف المكتظة بما غادر إليها من تحتها، أعني الأسقف، تسترسل «جدتي» في سردها، وأحلق أنا في مرابعه، في مرابع (دلهمه)، وعبد الوهاب، وها هو قصر الخلافة في بغداد... والرشيد، والصوامع.

عشقتُ تلك الأماكن التي طارت بي إليها «ذات الهمة»، وكان شيئاً قوياً يشدني نحو أخاديد دجلة والفرات واليرموك وبردى، كان حنينا لبابل، وأشور، ونينوى، والبتراء، وشامخة أعمدة صور وصيدا، ولحن موشحات يتبخر من فسيفساء الأندلس، لم تبتسم ولم تلتفت لي طيلة طيرانها بي، ترسل لي الأماكن أسماءَها منحوتة فوقها، لا أدري إن كان باتفاق معها أم بتدبيرها وحدها. تطير في كل اتجاه!

النيل العظيم يستلقي بثقة وسيادة، أنهار «مجردة» و«أم الربيع»، «قورينا»، «لبدة»، «أويا»، لم أعد استمع إلى جدتي التي وجدتني أعانقها.. وأنتحبُ وهي تُطمئنني هذا مجرد قص («يا بنيتي» انتهى مع أهله وناسو.. دنا حتى ما جبتلكش سيرة المؤامرات والدم... أمّال كنتِ عملتِ إيه يا «سميرة»)؟

صرتُ أبكي... أبكي، يا «فضل»، وكنتُ مندهشاً من «جبر»، بل من د.«سميرة» وهي تجهش أمامي بالبكاء، تبكي وتعتذر وتسجل «لذات

الهمة» انتباهها لمخاطر العدو مبكرا، بينما هي توقف عملها في هيئة الطاقة الذرية التي أسستْها لإدراكها بخطر امتلاك النووي من قبل طرف واحد. آه يا «فضل»، فقدي لأبحاثي كأم فقدتْ مولودها. ليتني أُبتليت طائرا بجناحين لأغادر حيث أريد.

. قلتُ لك أنك تأثرت بها؟ أجل هذا واضح. انتبهت ذات الهمة لمخاطر العدو مبكرا ومبكرا انتبهت لمخاطر امتلاك النووي من طرف واحد! ليتك هنا دكتورة ليتك معنا!

. ما بك «فضل»؟ ما هذا التشظي في الحوار؟ مع نفسي ومعك.. ومعك تجاهي؟ ألستُ أمامك؟

. هل تعلمين د.«سميرة»؟ ماذا لو مثلما قالت جدّتك، تعرّفتِ على دسائس القصور ومؤامراتها، (نظر إلي «جبر» باستغراب الذي يصدق نفسه أنه «سميرة»).

– وهل تظنني اكتفيتُ بقصّ الجدة البسيط؟ لسرد الجدات أثر الدهشة والبدايات الذي يأخذنا لتقصّي المزيد... قرأتُ التاريخ يا «فضل» متعرّج وملتوٍ كضفيرة جدتي كل جديلة في ضفيرتها حكاية لا تستقيم أبداً على خط، تقصّ جدتي وأنا أتحسّس ضفيرتَها وأتخيّل الديار ورُقم خيامها، تسردُ هي وأنا أقسّم لظم خرزاتها، كل لون ثغر، وكل طابور مرجان كردوس جند، كل شيء أمامي سيرة «ذات الهمة»، مجلس والدي هو قصر الخلافة، وخطوط الحرث دروب من قصر الخلافة ببغداد إلى صيدا وصور... وأنا أجمل فارسة

على أحلى فرس في عِزبة أبي، ربما في التاسعة حينها أرشقُ تلك العصا الرمح، وألوّح بها سيفاً.

– حققتِ الكثير د.«سميرة» أكثر مما تتصورين أكثر مما تحلم «ذات الهمة».

– ليس بعد، حلمتْ «ذات الهمة»، وما زلتُ أحلم، نحن نحلم فقط! علينا أن نفرق بين الوهم والحلم، الوهم كذبة أما الأحلام فلولاها ما استطابت حياة.

– أو ليست الحياة وهماً؟ فهل نحلم من أجل كذبة؟ بمناسبة الحلم، هل أسرُّ لكِ شيئاً. د.«سميرة»؟

كنتُ أراقب الحَمَام الذي يربيه أخي الصغير فوق سطح بيتنا في «الحي 2». لأعرف كيف يطير؟ كانت الحمامة تقفز أولا باتجاه الأعلى، تقفز، وتقفز، تحاول، حتى لحظة تحررها من الأرض، ترفع جناحيها، تتقدم وتطير، لحظة الإقلاع عند الطائر هي الأصعب، لابد له من القفزة الأولى، وكذا الإنسان، ليطير لابد له من القفزة الأولى.

– نعم هذا بالفعل ما يحدث، أنت رائع.

– ويبدو أن هذا أثّر فيّ، دائما في المنام أحاول الطيران، أقفز، وأقفز، ولحظة التحرر من الأرض ارتفعُ وأمد ساقيّ، وأنجح، صار لدي إيمان أن الإنسان لديه إمكانية الطيران، ما ينجح الجسد فعله في المنام يمكنه فعله في اليقظة. أظن ثمة وجه شبه بآلية رياضة الوثب الطويل!

تضحك حتى بان عليّ قبح «جبر»، وهزئتُ على نفسي وأنا مسترسل واشرح له عن حلمي بالطيران.

– أضحكتني «فضل»، لكنني شديدة الإعجاب بتحليلك.

تماسكتُ.. وأنت عقل، ومثلما ألهمتك «ذات الهمة» ستكونين ملهمة لغيرك! أذهلتني استجابتك لجهاز الحاسوب في المؤسسة؟ ودهشتْ لوقفتك في وجه المدير! نعم أنتِ مَن وقفَ في وجه المدير، وليس «جبر»، الذي لم يجرؤ حتى النظر في عينيه مخافة الطرد! واستغربتُ تفهمك لغنج «فتحية»!

– طيلة الوقت أشعر أني على وشك ورطة، كله ولا «فتحية»، بس دي ظريفة، في البداية حسبتُها تمزح، لكن يبدو أنها وصديقك «جبر» على علاقة متينة، أهو متزوج يا «فضل»؟ لأن «فتحية» قالتْ لي بكل جرأة: ما بك «جبر»؟ سأضطر للكلام ولأول مرة، صرتَ تتجاهلني! وغيرت رقم هاتفك، إذا مراعاة لزوجتك لا يهمني يا «جبر»، أقبلُ بها معنا، أقدّر وقوفها معك! أتعلم؟ صدمتني «فتحية» بكلامها دي خيانة دي!

– ماذا!! لا. لا. ماذا تقولين؟ نعم «فتحية» مرحة جدا، ومنفلتة، لا تهتمْ لها. أقصد لا تهتمي لها.

– بل تتحدث بثقة، أنا لا أعرف صديقك (بس الباين دي ماليه يدها منّو)، طبعا من الصدمة اشتطتُّ منها: نعم ياختي؟ وما حاجتكِ لمتزوج؟ ابتعدي عن أعشاش الناس، عيبْ! جحظتْ عيناها واغرورقتْ وباغتتني بمراسلات بينها وصديقك، ليست سوى لوحات، وورود جميلة، وتتهمني

بخذلانها، وترجتْني أنْ أعيدَ النظر، لم استطعْ الدخول معها في الدفاع عن النفس، وفشلتُ في اتخاذ موقف، هي الآن لا تفتك تخزرُ إليّ، بعد أنْ لوّحتْ باستخدام الرسائل ضدي!

– ويحها! هل ستتصل بغزالة؟ عذرا.. أوواه!

– وما شأن «غزالة»؟ ما بكَ انتَ الآخر يا «فضل»! ابحثْ عن صديقك قبل أن يُهدَم بيتُه. كيف يفعل ذلك!

«جبر» لا يقصد، و«فتحية» ذهبتْ بعيدا، نحن الرجال علينا ضغط ومسؤوليات، فنتبادل مع اللطيفات وببراءة أجواءَ فرح، لكنّ النساء يؤولنَ كلّ شيء، ويأخذن كل ما يقال بجدية مفرطة! لا يردنَ أنْ يتفهّمنَ! هذا كلّ ما في الأمر. وسرحتُ في عينيه (إن لم يكن لأجلنا فعد من أجل «فتحية»).

– بالتأكيد لستَ جاداً! دعنا من الهراء، المثير أن المنظومة المعلوماتية تشير إلى فساد حدّ الهزيمة.

– أنصحكِ بعدم التوغل في الانتقاد، ليس في صالحك. نريد الانتفاع بعلمك د.«سميرة».

عدتُ بها إلى المكتبة، تتجول وتعاين الكتب في أرفهها، كانت تتصفحها وتقرأ مقتطفات، التفتتْ إليّ: أي معضلة هذه، ما هذه التواريخ المكتوبة على الإصدارات؟ هيا عُد بي البيت، عليك أن تعلمني الليلة في أي كوكب أنا؟ ما هذه التواريخ العجيبة ماذا تعني عشرون بل خمسون بل ستون سنة مستقبلية؟ لماذا يقدمون التواريخ؟ وما هذه الأجهزة المتطورة والشاشات

الغريبة؟ كان «جبر» يترنح في مشيته وسريع الالتفات وظهر عليه اضطرابه السلوكي إثر الصدمة، تلقفتُه من ذراعه وأسرعتُ به نحو سيارتي عامدا البيت.

البيت الذي فاض بهيجان «لمياء» و«غزالة» وصلنا صداه عند الباب.

– كيف تسمحين له بإيصالك بسيارته، بل كيف تسمحين لنفسك بالركوب معه!

– احترمي نفسك «لمياء»، وماذا يعني ركوبي معه؟ رجل كبير ومحترم وصاحب البيت الذي نسكنه ويستعد للانتخابات معتمداً على ثقة الحي، ماذا لو أوصلني؟ وجدني في طريقه فأوصلني إلى بيت صديقتي.

– وأي صديقة في ذلك الحي الموبوء؟ حيٌّ مليءٌ بالحشاشين والمهربين؟ تجار الممنوع وخراب البلد. أتتاجرين في الممنوع!

– فُضّي عني شعاراتك، واسبحي في ثوريتك وربيعك وحدك، أريدُ أنْ أشتغلَ، لا شأن لكِ بأمري، أنا امرأة متزوجة وزوجي حيٌّ يُرزق!

– اصمتي. أنت زوجة أخي وتصرفاتك محسوبة علينا، تعلمين أنه غير مسؤول حتى عن تصرفاته، لا تعلقي شوائبك عليه.

– زوجة أخيك!؟ ذاك الذي لو تشعلين تحته النار لن يتحرك؛ لكنه يبقى زوجي ولا شأن لك بي، أربعة أشهر لم نقبض مرتباً، من أين لك أنتِ؟

– إلامَ ترمين؟ طبعاً أصرفُ من منح سفريات تونس، تعلمين سعر العملة؟

– وأين لي بمنح تونس؟ ماذا لولا واسطته في البنك؟

كان الصخب يصلنا حتى الباب الخارجي، امتلك الغضب لهجة

«لمياء»؟ ونظراتها شزراً نحو «غزالة» التي ما إن رأتنا حتى أجهشتْ بالبكاء واندفعت نحو «جبر» تستغيث به.

– أيرضيك يا «جبر» أن تتهمني في عرضي؟ ألست زوجتك؟

– ما هذا الجنون؟ ماذا تقولين يا امرأة. ودفعها بعيدا. والتفتتْ علي مستنكرة.

– لا تهتمي د.«سميرة».

والآن عليّ فكّ هذه العقدة الشائكة والمصمتة والتي لن تُحل أبداً.

اهدئي يا «غزالة» ألا تعلمين الوضع؟ ماذا سيفعل لك؟

صعُبَ عليّ حال «غزالة» الصامتة، قليلة الكلام حتى فاض بها لتلجأ إلى «جبر».

– ويثور «جبر» – ماذا سيد «فضل» من هو الذي ماذا سيفعل لها! أجننتَ أنت الآخر!

– وصرختُ في «غزالة» لأول مرة:

نعلم أنه زوجك لكن ماذا بوسعه أن يفعل لك وهو على هذه الحال؟ صار «جبر» يرتعش ويولول: أخرجوا بي من هنا، أريد بلدي، أنتم تتآمرون علي، تتآمرون علي، وأغمى عليه، حملناه ثلاثتنا إلى سريره، وحُقن بالمهدئ قبل أن يفيق، بقيت «غزالة» إلى جانبه وانسحبتْ «لمياء» متحجّجة بسؤالي عن الظرف الذي أجج توتر «جبر» في جولة الضاحية لتؤجج نيرانا من نوع أخر، وماذا ترمي جملة «غزالة» (أخيك؟ لو تكبرين تحته ناراً لن يتحرك؟).

إلام ترمي «غزالة»؟ وزد (أريد أن أشتغل)؟ أووووف! ؟ والطّامة لو اتصلتْ بها «فتحية»! ستفتح لنا جبهة جديدة، ليستْ غبية لا أظنها تفضح نفسها!

«غزالة» الخط المغاير للجميع، عندما يحتد النقاش بيني و«لمياء» عن الربيع والتغيير تدفع إلينا د.«سميرة» برأيها المحايد، وتدفع هي بخرطوم المياه نحو جدول الحبق، تبتسم، وترمينا بنظرة جانبية سريعة تقول فيها إنكم تضيعون وقتكم في جدال عقيم! وتباشر في ترتيب الأصص.

واليوم، ها هو «صالح» سرّ جديد يضاف إلى قائمة عائلة «جبر» إلى قائمة «الحي 2» مرمي على فراشه كقطعة قماش بالية، كجسد ميت لا حياة فيه، سقط دون أن يقتات لقمة عيش ولا رشفة ماء، شبع تعديداً مع «لمياء» التي انهارت شجناً، ولاذ هو بالصباح رباح، قالها «صالح» وتغطى بسباته.

* * * * *

– 2 –

في صباح الربح.

انتابتني ريبة ورعشة، وأنا أطالع صُدفةً بطاقته الشخصية بينما الاسم ليس اسمه!! لماذا يغيّر «صالح» اسمه؟ لماذا؟ تأخر بالداخل، لا شك أنه يستقصي حال «لمياء»، ويؤمل رؤية «جبر»؟ دخل علي أخ «غزالة» حاملاً صينية الإفطار، سألته عن حال «لمياء»؟ حمدتُ الله أنه لم يسمعني وهو يسرع خارجاً مع دخول «صالح».

– أينك «صالح» بردتْ القهوة. كيف أصبحتَ اليوم؟

– «جبر» لم يتعرف علي؟ ارتبك عندما رآني أحتج على دخولي لا شكّ أنه مفعول المخدر.

– نعم. أنت بالنسبة إليه رجل غريب وهو د.«سميرة»، عليك تفهّم ذلك، أعرف أنه أمر قاس لكن لا بأس، يهزّ «صالح» رأسه متحسراً وهو يتنفس بتمزيق الخبز، وزفير طويل، نفضَ يديه واكتفى بفنجان قهوة، وأشعل سيجارة بعد أنْ سحبَ علبتها من تحت البطاقة الشخصية التي لا تحمل شخصيته. رمقني وعيني على البطاقة، نهبها بسرعة ووضعها في علبة السجائر؟

– صالح؟ إن لم يزعجك سؤالي أريد أن أعرف ماذا حدث معك بالضبط أين اقتادوك؟ ومَن؟ وأين كنت كل هذه السنوات؟

– بعد أن دعكَ ذقنه بشدة بين سبابته وإبهامه، ومدّ شفتيه وزمّهما بسرعة ردّ:

– قبل ذلك أخبرني أنتَ «فضل» ما رأيك في كل ما حدث؟ حتى أقيم جدوى شرحي لك.

– حدثَ الكثير «صالح» ألا تضيّق دائرة سؤالك؟

– أقصد ما آل إليه الوضع؟ فالحرب لم تنته والخبز صار شهوة، والناس مبتورة الأطراف والمشاعر، تعمل بالمجان، أفواه يكممها الخوف، ألا تشعر بالخوف؟ (وارتعشتْ شفتاه حسرة وهو يسأل): هل دفعنا كل هذا الثمن لنعاني؟

– فهمتُ يا صديقي، تعذّر عليّ تصريحٌ سريع مثلك، ليس فقط لأني جبان، بل لأن الفقاعة «جبر» ألزمني بظل جرد عمي «الغناي» الذي تناثر قطعا.

– أوَ تُصدّق تخيلاتِ عمك «الغناي»! كالعجائز واليائسين، الباحثين عن مُنقِذ! يومها كان لابدّ من حسم الموقف.

– نعم، الوضع كان أكبر من جرد عمي «الغناي»، وأكبر من حسم الموقف كما تظن، شاقنا حتى عن دفن ذوينا الذين لم نميّز أشلاءهم، عذرا «صالح» لا أقصد، اختلطتْ الأمور وتعقدتْ وانتشار السلاح أربك الوضع جداً.

– ماذا؟ أين قبر زوجتي وولدي؟ أين.. أين ؟ لا تقل إنكم لم تميزوا

أشلاءهم؟ سأنتقم لهم سأنتقم من الجميع. من كل الأطراف، مع السلاح، هو خلق حالة توازن، فقد أثبتنا أننا أناس غير مسؤولين. لولا السلاح لستُ هنا.

– اهدأ «صالح»، ممن ستنتقم؟ لستُ معك، ولستُ مع السلاح، أنا لست مع طرف، أنا مع الوطن.

. تنهد «صالح»: أسعدتني بهذا الرد، سأقصّ عليك يا «فضل» كل القصة، وكل ما تود معرفته؟ أنت جدير بالثقة، أنا خبرتُ كل شيء وعشتُ كل التفاصيل. نعم لم يكن صُدفة.

ياإلهي! يا لهذا التراب! كم بعثر بالدفن تَبِعات مشاعر «صالح» وكم لمْلمَها في كلمة وطن!

اقتربتُ منه كثيراً وانا أزحف نحوه، وأمدّ بوجهي نحو وجهه وألحّ عليه، احكِ «صالح» احكِ لي!

* * * * *

من «القصر» إلى العاصمة. مايو 2011.

اعتقلتُ في «الحي 2» أوائل منتصف 2011 من قبل النظام ونقلت إلى العاصمة، لم أعرف لي تهمة كلّ ما هنالك أنّي تناقشتُ في العمل مع شباب زملائي في إلامَ ستؤول إليه «فبراير»، قلتُ لهم أنّ التغيير مطلوب لكني ضد التدخل الأجنبي.

داخل مستودع، هنجر كبير، كنا معصوبي الأعين ومقيدي الأيدي وراء ظهورنا، وفي وضع انبطاح، وأحذية معدنية لأوزان مختلفة تدوسنا تجري فوق أجسادنا تدرسها كما الأعلاف... وتثب فوقنا تتقافز كمسامير تعلو وتهبط تنغرس في لحومنا، صراخ واستغاثة وصبر يلجّ به المكان الضيق الواسع، وخزٌ يمزق عضلاتي ويفتّت عظامي ويصهر قلبي، ألم حدّ الحريق، كل شيء يمر أمامي، كل ذاكرتي تحضر وتغيب، أمي، أبي، وزوجتي وطفلي، كلكم معي، استحضركم وأنا أدعو بالفرج، وصومعة الجامع الذي لم يكتمل، وعمارات الحي تحت الإنشاء تهتز أمامي، وأنا لا أعرف «ماذا فعلت» وما هي جنايتي؟ أدعو الله ألا تنال الأقدام المدببة فكي، حاولت حمايته بأن أغرس وجهي في الأرض فتأتيني القاصمة من مؤخرة رأسي ما هشّم أنفي رصّاً في الأرض الاسمنتية الصلبة، غمر الدم الساخن أنفي وفمي وعلا وجهي، حمدت الله لحظتها عصبتهم لعيني، عدتُ لوضع صدغي على الأرض، عاودتُ إمالة رأسي ولزوجة الدم تنزلق أسفل خدي، ورائحته النتنة دفعتني للقيء لتغدو الرائحة خراجا، وركلة قوية على أسناني معها صيحة، (بطّل حركة)، ورفسة من قدمٍ على الحنك المرتعش.

– يا لطيف، وجميعكم نفس المصير؟

– في البداية لا أحد منا يرى الآخر؟ ولا نرى الفاعلين لكن تلامس أجسادنا رقوداً منبطحين يُخبر عن ذات المصير، وتأكدنا من ذلك بعد تكرار الصنيعة مرات أخرى، حينها كانوا ملثمي الوجوه وكنا مكشوفي الأعين، وما زلنا موثقي الأيادي، السؤال الذي شاقني، أليس لديهم عمل غيرنا؟ يتناوبون علينا الركل والقفز والرفس والضرب بخراطيم البلاستيك وبالسلاسل والهراوات. بَنَتْ الرطوبة أعشاشها داخل رئاتنا، وكل مسامنا، وعلى سلالم أضلعنا يعزفون ألحان السادية.

– هل تحملتَ كل هذا يا «صالح»؟

قبل أن يجيب حرثَ صلعته بأصابعه جيئة وذهابا، ونزل بها على أنفه، ثم مرغَها كل وجهه.

– ها! كل هذا؟! ما أهون هذا أمام صعق التيار الكهربائي، وأرتبك وتلعثم، لا تشغل بالك «فضل» انتهى كل شيء.

– أكمل بالله عليك، أقله سماعك.

– ماذا أقول؟ يضعونه على أماكن الاحساس، رعب لا يوصف، أُصاب بهزّة جسدية ونفسية عنيفة جداً، أفقد السيطرة على بدني وعضلاتي، وتشنجات، وارتعاش سريع، أصرخ بكل عنفواني لا أستطيع التركيز إلا فيما أنا فيه من الهول، أتمنى الموت، استجدي الله الموت، حتى الآن كلما أذكر صعق الكهرباء ترتفع نبضات قلبي وأشعر بالرعب، وأحسُّ كما لو أن جسدي

مليء بالأشواك اللاسعة، أمام هزة الكهرباء يكون الرفس والهراوات وجلد السلاسل أمرا هينا.

صار «صالح» يعرق ويلهث بالحديث: لم تفارقني صورة ذاك الشاب الأسمر، مبتور الذراعين، وهو ينزف وينتحب وقد اختلطتْ دموعه مع مخاط أنفه مع سيلان لعابه، عاجزا عن مسح وجهه.

– استرحْ يا «صالح» اهدأ يا صديقي؟ أنت الآن بخير أنت في أمان.

– لست في أمان، سأخبرك عن الأسوأ لاحقاً، نهض وهو يلهث، أريد رؤية «جبر» سأوقظه من جديد، ونهض.

أسرعتُ وراءه أمسك بيده أرجوه أن يهدأ أولاً، كنتُ أسوأ منه حالاً وأنا أستجديه أن يستكين، كنت أشد منه توتراً وأشعر بالغثيان وبرغبة في الانسلاخ من هنا في هجرة بعيدة بعد كل هذا الذي سمعته. وهل أسوأ مما قاله؟ ماذا حلّ «بصالح»؟ أين نحن؟ وأي بشر؟ وأين الرب؟ وهل ما يحدث من البحر إلى البحر في هذه البقعة الملعونة وفي ذات الوقت محضَ صُدفة؟

انتظرتُ «صالح» مطولاً لكنه لم يعُد، خرج من غرفة «جبر» إلى الشارع دون أن يراه أحد.

* * * * *

– 3 –

غادر حليق الشعر «صالح»

وها هو «جبر» طال شعره حتى كتفيه، حليق الذقن والشاربين، وقرطين لاصقين في شحمة أذنيه، وساعة نسائية، شبه أنثوية وإيحاءات تصطنع الرقة.

أما أنا فجهزت حاسوبي وجهاز اتصال بالأنترنت، ومحمولي وطلبت مقابلته وانتظرته في غرفة الضيوف طويلاً قبل أن يطل. ثمّ:

شوفي دكتورة، وبدون مقدمات، حان الوقت لأقول لك كلاماً ربما سيكون قاسياً حدّ الصدمة، لكنك لستِ إنسانا عاديا ما دفعني الآن بأن أعترف لك بالحقيقة وأعلم أنك ستكونين منطقية، ومتماسكة بحجم هذه الحقيقة الصادمة.

– لا تفزعني سيد «فضل» ماذا ستقول؟ لكن، لا أظن ثمة ما يفزع بَعد ما مررتُ به!

– تعالي إذاً اقتربي:

طالعي شاشة جهاز الحاسوب، أنه متصل بالأنترنت، أحدث وسيلة اتصال، سأريك أولا صورك وصور أصدقائك وزفتيَ والقاهرة، حتى 1952م، تأملي الصور، أليستْ صور سنبو؟ أليست كذلك. وهذه القاهرة، أليست

كما تركتها؟

– بلى، «سنبو«هذه مبانيها البسيطة، شوارعها الحميمية الدافئة، تستلقي حقولها المنبسطة في قلب دلتا النيل، تغريه خضرتها! باردة وظليلة وهادئة، كم اشتقتها! شفت القاهرة جميلة ازّاي؟ يااه! دي الجيزة بحبها أوي، كانت تتطلع في ريبة ودهشة.

ولا يهمك، سآخذك إلى آثار «قرزة»، نطقها يشبه الجيزة، ليست بعيدة كثيرا من هنا، هل لاحظت تشابه الأسمين؟ خاصة، ونطقنا للقاف مثل نطقكم للجيم، جميلة «قرزة»، بناها الرومان وسط حزام حماية، سموه «قوس النار»، لصد هجمات الجرمنت على مدنهم (لبدة، وأويا، وصبراته)، حتعجبك لأن معمارها خليط من الفرعوني والإغريقي! (لم تهتم لي)، شوفي دكتورة:

– أو ليست هذه الجميلة أنتِ؟ ملامحك مصرية بامتياز، نظرة واثقة بثبات الأهرام، وابتسامة متفائلة، ووجه بحياة النيل، وبشرة مزجتْ القطن بالشمس! (ارتعشتْ مع ابتسامة دامعة هنيهة ثم شتّتْتْها) نعم هي، أرأيت؟ هل صدقتَ الآن ان شكلي تشوّه؟ نعم صورتي، ضاعتْ مني في الطريق الوعر في كاليفورنيا.

– وهذه لمن؟

– آه... د.«علي مشرّفة» فعلاً هو، ما أروعه، تحصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة (نوتنغهام)، ثم رجع انجلترا ونال دكتوراه علوم،

توفي العام الفائت، ما هذا سيد «فضل» ما هذا الجهاز العجيب، هذه ثورة غير عادية، جئت من أمريكا لا شيء من هذا! (واضح أنها لم تستقبل ما قلت).

– سأشرح لك، وهذه صور «كاليفورنيا«في 1952م، وهذه صور «لندن»، وهنا ولاية «تنيسي» الأمريكية.. شوارعها مرصوفة وفسيحة.

– بس موحشة، فعلا دي ولاية «تنيسي» ها هي جامعتها «أوكردج» التي بُعثتُ إليها وأنهيتُ الدراسة فيها، يا الله كم أذهلتْني هذه التقنية! لن أصدق!

– بل استعدي للأغرب: كانت تلك صور 1952م كما عهدتها أنتِ، سأعيدُ عليك صوراً جديدة لنفس الأماكن الآن لأضعك في وضع المقارنة، انظري هذه «سنبو«الآن، تأملي القاهرة، لندن، كاليفورنيا، صور من الولايات المتحدة، ناطحات السحاب، ومنها إلى الصعيد، طالعي قيافة الناس، المباني، الطرق، الاتصالات، المطاعم، الحدائق، المطارات، الميادين واللافتات.

مرة أخرى تأملي «سنبو«الآن، مبانيها بالطوب الأسمنتي الأحمر، المدارس، «مسجد الإيمان».

– ماذا يحصل؟ تغيرتْ كثيرا، !! اتسعتْ، متى كل هذا؟؟ لا.. لا. تلاعب بالتصوير!

– هل رأيت هذا الكوبري؟ يسمى شارع «كوبري الهتير»، وهنا منطقة

«السوق»، و«كوبري الشيخ حسني» ستعانقك فيهم رائحة الماضي، وهذا شارع «داير الناحية»، و«دغش»، وبصي ده كوبري الحوراني، واللي هناك كوبري سمي على «يوسف الجندي» تعلمين هو مؤسسها وهو اللي أعلن جمهورية «زفتى» واستقلالها 1919، ودي يا «دكتورة» قرية الحارة التي تؤدي إلى «بوصيام»، و«النمس»، و«عشوش»، بس خليك مع أشهر مطعم شعبي «مطعم الفول والفلافل». أنا فقط أحاول تقريب الصورة.

علتها الدهشة، أفهمتها:. ظهرت أحياء جديدة، أقدر أنك غادرت «سنبو «صغيرة.

– صحيح دي «سنبو «، لكن لا أصدق هذا الجنون .. أهذه القاهرة!؟ نعم، نعم، نعم، يا إلهي ما هذا؟ ما كل هذا الاكتظاظ؟ أهذه جامعة عين شمس؟ أووه مشفى القصر العيني؟ ماذا حدث منذ شهور لم يكن هكذا، ما هذا الاكتظاظ على النيل! أنتم تسحرون المدن بأجهزتكم، تغيرون الحقائق.

– واقع دكتورة، طالعي غرف العمليات في أوروبا بالصور.

– عذراً سيد «فضل» لم أعد أستطيع التركيز، لن استوعب كل هذا الجنون، اللحظة لن أفكر في شيء، بحاجة لأن أكون وحدي، لا يكلمني أحد.

– لدي ما أقوله لك سأطلعك على الكثير، أنظري المفاعلات هنا في باكستان والهند وإيران والصين!

– لا، وربي لن أصدق، غبتُ أشهر عن بلدي حدث كل هذا الانقلاب، بل طال العالم أجمع، الولايات المتحدة بالأمس لم تكن كذلك! وتريدني أن أستوعب؟

– لكنك رأيته صوراً لك فيها ذكريات وحياة تثبت أنه المكان؟

كانت د.«سميرة» طبعاً هي وليست «جبر» في حالة ذهول حدّ السكر، نظراتها تقول لم أستقبل كلمة واحدة ولن.

– لن أستوعب هذا الهراء، وهذا التاريخ الذي ضغطته لي في لحظة.

– بل أفردته لك في سنوات من 1952 حتى الآن، لمساعدتك في القبول، سأريك الآن الأهم. هنا في «سنبو«مدرسة باسمك «مدرسة سميرة موسى» طالعي اللافتة، وهذه مكتبة «سميرة موسى»، هل لديك علم بهما؟ هما تخليدا لك ولإنجازاتك. قصر الثقافة أيضا متوج باسمك. واللي بتحبيه فعلا هو بيتكم، ما أجمله بالطوب اللبن، ومقيم في المكان ابن أخيك الذي تجاوز السبعين «فتحي سليم» مع زوجته وأبنائه.

(كان وجهها كجدار ترتد منه كلماتي عليّ، في حالة برود ماتت تعابيره لا يستقبل شيئاً)

– لا.. لا.. يكفي... لم أعد استوعب.

– أنت على حق في أنك د.«سميرة» فكراً وحديثاً وذاكرة لكن هل هذه الجسد الذي يحمل ذاكرتك هو جسدك؟ هل هذا هو شكلك الحقيقي؟

– أبداً، أطلاقاً وهذا ما يؤرقني ويشطرني، أنا هي أنا، ولكن جسدي لم يعد كما هو، وأنتظر منك سبباً لذلك؟

– وكيف نعلم دكتورة؟ أليس هذا شكلك الذي جئتنا به؟ هل نحن من غّيرك؟ ألم نستقبلك هكذا؟

– أتفهم. نعم. هكذا جئتكم لستم الفاعلين، وما يُدمي قلبي أنني لا أعرف من فعل بي ذلك وكيف ولماذا؟

– د.«سميرة»، والأهم هذه الصور: هذا صديقي «جبر» وهو بالصف السادس الابتدائي، لن أطيل عليك، فقط مراحله المهمة، انظري، هنا شاب في ملعب كرة القدم وأنا معه، ألستُ أنا؟ وهنا مع أخته «لمياء» أليستْ هذه «لمياء»؟ أليس «جبر» هو نفسه وجهك في المرآة؟ أليس ذاته وجهك الآن؟

– يااربي! نعم.. نعم.. كيف حدثَ كل هذا؟! لا.. لا.. إنه يشبه شكلي الجديد تماما! (لم تستوعبْ أنه هو بعينه).

– عليك أن تدركي أنتِ بالنسبة إلينا «جبر»، صديقي «جبر» الذي نعرف وجهه وتاريخه جيدا، وهذا بيته، خرج منه وغاب لثلاث ليالٍ، وعادَ ليقول لنا أنه د.«سميرة موسى»، ويتحدث باسمك... أما كيف حدث ذلك فإنه تعذّر علينا، نحن أيضا نبحث عنه. (لا يجدي أن أخبره أن غزالة زوجته).

الأمر الثاني أنت تتحدثين عن 1952 وأخر محطتك طريق جبلي

بضواحي كاليفورنيا، نحن نعرف ذلك، وللأسف تقبلي أننا نعرف أنها فعلاً آخر محطاتك وقضيتِ فيها بحادث مروري يعرفه معنا كل العالم الذي شهد مراسم دفنك في بلدك «مصر».

أما كيف جئت أنتِ وتغيّر الأمر بالنسبة «لجبر» فهذا ما نعجز عن تفسيره، وعليك مساعدتنا في ذلك. كانت تستمع إليّ مشدوهة، اتسعتْ حدقتاها وارتختْ شفتاها وتوقف تنفسها لحظات بان فيها قبح «جبر»، ثم مثل كل مرة، أخذتْ تضرب بقبضتي يديها على جانبي الكرسي العريض.

– أريد بلدي أريد عائلتي أريد «مصر». الآن. أرجوك الآن. لا يمكن لي استيعاب ما تتفوه به، لا يمكن، أبداً. أبداً.

– اهدئي أولاً، أقدّر الصدمة، لكنها الحقيقة، ما دفعني لقولها أنك لستِ شخصاً عادياً، أكرر أنتِ منطق، أنتِ عالمة. والآن أنا لا أتحدثُ إلى «جبر» لأنه صار مجرد جسد، مادة تأكل وتشرب وتحسّ معك الألم المادي فقط، أنا أتحدث إليك أنتِ أنت صاحبة الحوار، أنتِ من يستقبل مني الأفكار، شيئان عليك أن تعلميهما:

أنت ميتة منذ 1952م، و«جبر» غاب وجاءنا حاملاً ذاكرتك، ونحن الآن في 2017. د.«سميرة».

هذا كل ما أريد إيصاله لك، فهل تستطيعين تحقيق شيء من خلاله وأنت د.«سميرة»، هل يستطيع «جبر» أن يكمل طموحك؟ أعلم أنها علاقة حَرِجة! وحَرِجة جدا.

– مستحيل، مستحيل، لن أصدق.

– صدقيني أيتها المصابة الملتاعة، أثبتّه لك بالصور. وتركتك وقتا كافيا لأهيؤك.

– لن أصدق، أبدا لستُ ميته، أنا تشوّهت، لن أصدق شيئا آخر، ولن أكذّب، ليس ما يدعوك للكذب ولا ما أنا فيه أمر يصدق!

(كان وجهها كجدار ترتد منه كلماتي عليّ، في حالة برود ماتت تعابيره لا يستقبل شيئاً)

– لا.. لا.. يكفي... لم أعد استوعب.

– صورة أخيرة، مراسم دفنك، كم هي مهيبة تليق بعالمة، في صندوق بلاتيني فخم تنامين كعروس بشعر مصفف وقدمين ناعمتين زينت أظافرك بالطلاء، وفي معصمك ساعة بلون الذهب وبعنقك قلادة، وترتدين فستانا أسود، وفي يدك منديل حريري، جميلة كما أنت، قادمة من حفل وليس من حادث!! مدثرة بعلم مصر الأخضر حينذاك، لتنامي مع العائلة بالبساتين، يراك كل زوارك ومحبيك. الخلود لمصر د.«سميرة».

– لستُ ميتة، لكن المؤكد حدوث انقلاب كوني، حدث بكل تأكيد، وحدث أن شكلي صار يشبه صديقكم الذي تبحثون عنه، لكنه لست أنا، دعوني وحدي، وأسرعتْ للداخل، أسرعتْ د.«سميرة»، إلى غرفتها في حالة من الصدمة والتشتت سقطت قبل أن تصلها!

فهل تراني أفضل حالاً منها بعد هذا الحوار المعقد؟ وماذا سينفع

هذا «جبر»؟ وهل توقف الزمن لديها منذ 1952؟ وهل سبقناها فعلاً؟ أم تراجعنا إلى ما قبلها؟ أم نراوح بين الآن وحيث توقفتْ هي؟

ها هو «جبر» جسد تقوده ذاكرة امرأة ميتة يُشقيها، وها هو لم ينعم بذاكرة معافاة، ذاكرة لحقها بؤس الحاضر، ذاكرة لم تظفر حتى براحة الموت، فمن الميت منهما؟ هل هو «جبر» أم أنه د.«سميرة»؟ ولست بأفضل منهما! أنى لي باستبدال هذه الذاكرة؟ أعيش مآسيهم جميعا، وعيناي على «لمياء». ترفعني بكلمات «سراب» الندية إلى سابع سماء، لتسقطني في سابع أرض بردود «لمياء».

وعلى صفحتها «سراب»:

«بعد يوم شاق في ورشة العمل، عمدنا شاطىء ممتد الجمال بالدولة الجارة، سمك بشري يتقافز بحرية بين الرمل الرمادي والبحر، أتأمل غرابة مايوهي الإسلامي، سروال أسود لاصق، تعلوه صديريّة لاصقة ذات كم طويل، أتأمله واتأمل أجساد النساء أمامي عارية إلا من إزار يستر ما بين الفخدين وقطعة بدت كبالونين منتفخين بلون الإزار أعلى الصدر، كل المشاعر منثورة وملونة كما أجسادها بتصالح على الرمل الدافىء، حوريات ممشوقات، ووجوه صبيحة، بينما شابة أربعينية تتمازح مع صديقها، تتمسح بأريحية كرشها الفضولي، وتهزّ فخدها المترهل تنفضه من الرمل العالق، شجعتني على تجاوز عقدة جسدي، فأنا رغم قصري وامتلائي قليلا فإني عشرينية، قوامي جميل ومشدود، وغطّاه زيٌّ إسلامي، أجزم إنّ أمي ما كانت لتعترف به، يستطلع لنا الذكور ركنا منزويا، وبعيدا على شاطيء

«القصر»، تعوم أمي وخالاتي وبناتهن وكل بنات «حي2» بملابسهن، أردية وعباءات لها أقدام، تهبط وتعلو، تتماوج على الأزرق مغمورة بالبهجة والقهقهات، وبفرح تعدّ (المكرونة المبكبكة) في قدر كبير للعائلة الكبيرة، وكيف تعترف بعرض الجسد! وهي تنبهني بنشر ملابسي الداخلية في مكان خاص، وعزلها عن باقي الغسيل! حدّ العيب والفضيحة أن يرى إخوتي حمّالتي، أو إزار العار، أو حتى الثوب الشفاف! أحيانا أخبئها وهي ترشح وتنزّ حياءً تحت فستان فضفاض، وأسرقها ما إن تجفّ، أثناء قيلولة أو ظلام. مثلما أسرق محادثة مع رجلي «الكيبوردي» في مساءٍ ليس رجلا، أنزعُ عنه معطفه الأسود الطويل وأكذب عليه».

ماذا! تكذب عليه! عيناي على «لمياء» وعيناها على التمكين. فكيف ستلتقي نظراتنا ناهيك قلبانا!

* * * * *

ها قد أخبرتُ د.«سميرة» إنها ميتة، لا أظن أحداً غيرها عاش ذلك، ولا أحد غيرها خَبر هذا الشعور، حتى قاموس علم النفس نفسه! لم يحدثْ هذا أبدا! وها هي أكثر مما توقعتْ، وإن لم تصدق إنها ميتة، فقد صدمتني بردة فعلها المتماسكة، تتعامل بمنطق عالمة، وعقل مفكرة، بل أكثر مما كنت أتوقع... بعد يومين حبيسة غرفتها، تصرح:

– أشكرك، وإن كنت عاتبة عليك إخفاء الحقيقة كل هذه المدة، سبعة أشهر ليست أمراً هينا، إنها كفيلة بتغيير العالم، أعرف أنه ليس بالإمكان العودة إلى 1952م، لكني لستُ ميتة، أنا في حيرة، رغم إيماني به فثمة أشياء لا تخضع له، للمنطق، هنا علينا أن نُخضع المنطق لها، هنا ثمة شيء مفقود، ربما لا نعلمه ربما أخفي عنا، قد تكونوا أخفيتموه عني. (تلعثمتُ).

– هذا ما حدث أقسم أنك صديقي «جبر» عاد بذاكرتك. وإنك أكثر حياة من الذين محسوبين على الحياة ظلما، أنتِ أكثر حياةً من صديقي «جبر».

– وأجزم بأن شيئاً ناقصاً في الرواية تثيره المسافة من 1952–2017، لن اكتمك أني بدأتُ أتراجع عن السفر إلى مصر، كيف سيصدقونني وأنا بجسد رجل معروف لحماً ودماً في بلده؟ ومسجل بدوائرها؟ وأين اختفيتُ أنا؟ هل تكررت حادثة الكهف في شخصي؟ والسؤال الكبير: ما مصير أبحاثي؟ وأين وصلتْ بعد أكثر من خمسة وستين عاما؟ لا شك أن هذا الفضاء المشحون ينبئ عن كثير. يا الله ماذا يجري؟ كان الحزن قد أنهكها والحيرة سيطرتْ على كل ملامحها حدّ الاحباط.

– حاولي بهذا العقل أن تحققي بضع ما تحلمين به هنا.

– هه! أحلم به؟ بعد أكثر من خمس وستين عاماً سُباتا؟ بمَاذا سأحلم؟ وأنا اليوم بذاكرة امرأة وجسد رجل عاجز، بماذا سأحلم؟ بمستقبل من فيهما في بيئة المفارقات؟ وحده شيخ الضباب بخصلة الحناء لديه هنا واحة الحُلم، ليتني ألتقيه.

– لولا أني أثق بتماسكك، لقلتُ أنكِ تهذين!

– ولولا أنك «فضل»، لما أخبرتك عنه.

لملم أناملي الضئيلة في كفه كما «ذات الهمة»، وسار أمامي بخطي واسعة دون أن يلتفتْ، شعرتُ باغماءَة وأنا أتفاجأ بكفه مغروسا في ريش طائر، شديد البياض، ريش حمامة عملاقة، إغفاءة منعتني من متعة الطريق إلى الواحة الأسطورية الخالية من البشر إلا من أشباح نور ذائبة الحركة، في فضاء دخاني سحابي اللون، رذاذ دونما مطر، صوت خرير ماء ولا ماء، وعبق العود دون زرع، شعرتُ قُربه بحميمية وعَودَة، امتنع السؤال عمّن هو! ومطلبه؟ وغاية التّلاق!، لا أدري أهو تفجّر الدهشة أم سِحر المكان! ربما حتى لا أدري!

كيف لكفٍّ مَعْصمه هواء كل هذه الحُمَى واللهفة! كيف لنظرة طَارِفة كل هذا السحر! كيف يكون العشقُ اسْتسلاما لِضَبابة! سامق لا يصلني إلا همسه، فقط دفء كفيه ورعشة، همسَ:

ما نراه ظِلالا ومُحَاكاة، لَحظة زائِلة تندُبها زائِلة، لحظة غاصّة بالغواية والرّشَاد، بالمُجون والوَرَع، اضْطِرام وانْطِفاء، التضّاد سرّ الدهشة، والسؤالُ وليدُ

الحَيرة، والحسراتُ مضْيعة، لو عَلِم أنه خُلِق ليَشْقي لَسَكَن، إنه الوَعَد، أثقُ في نَجمك سيهديك.

– أحْببتُه وأنا العصّية يا «فضل».

– وأثقُ في بوصلتك أيتها المَهْديّة الرضيّة.

– ضاعتْ البوصلة، عزائي شيءٌ واحد، أنني مزروعة في ثرى «مصر»، في أحشاء أمي، لكنني حيّة أبدا لستُ ميتة. (أبكتني، حد الحُرقة). أشكر دعمك سيد «فضل». هَوَسِي الآن فضاؤكم، ثمة أمور لا يمكننا الإفصاح عنها.

– بِلا «سيّد» هذه. ابتسمي، سأريك الآن كيف تستخدمين هذا الجهاز، يشبه كثيرا حاسوب المؤسسة، ستشاهدين كل شيء حياً كما الأفلام، هيا ابتسمي، أين روح الفكاهة! (ارتاحت ملامحها)

– لا تذكّرني بمنظومة المؤسسة، أرقام وهمية، وحسابات ملفّقة، تتعرضون لأكبر سرقة، وهل حقا تستوردون التبن وتصدرون البشر؟ هددني «المدير» بالطرد عندما واجهته ووصفني بالمعتوه والمريض نفسياً، أغاظني صرختُ فيه: روح يا شيخ في ستين داهية جاتك نيلة، لكن لأكون منصفة كان محقا في وصفه. أتراني طبيعية؟

حين استدعاني إلى مكتبه خرجتُ لا أعرف إلى أين اتجه، والكارثة أني لا أعرف له شكلا، وقفتُ بلهاء في استراحة الدرج وحادي بادي، نظرة يمين وأخرى شمال آملاً في ملصق «غرفة المدير»، أبواب الغرف ليست

خشبية، أطرافها من الألمنيوم ووسطها لامع، وخالية من أيّ ملصق، نقرتُ الباب يميني بخفة، تصلني جلبة الموظفين ولم يفتح أحد، موظفة قادمة، مسرعة بجلباب طويل ومحرمة مزركشة تغطي شعرها تحمل ملفا، دفعتْ الباب دخلتْ وصكّته وراءها، عرفتُ أنّ هذه هي الطريقة ولا جدوى من طرق الأبواب، تجرأتُ، دفعتُ الباب مثلها، ودخلتُ مثلها، لكن ليس بسرعة مثلها، تصوّر منظري دلفتُ وببطء! وهتف الجميع «جبررررر»!! وتدافعوا يصافحونني بحرارة غبطتُ عليها صديقك، يا للشبه قلت في نفسي! ألهذه الدرجة تغيّر شكلي ليشبهه! وطبعا اكتفيتُ بالابتسام وشكراً حتى استبين الخطوة التالية كما نبهتَني. استغربوا (شكرا)، واستغربتُ معرفة الموظفين ببعض وتعاملهم بعفوية، (خطوة عزيزة) بادرني بها أحد الشباب بينما عاد أصحابه الثلاثة أماكنهم، رديت أيضا (شكرا) وسألت هو مكتب المدير فين؟ أعلم أني أخطأت لا تلمني «فضل»، وعلمتُ أني في ورطة! وليس لي أن أتراجع، أحدهم مصدوما، واثنان يحبسان ضحكة في شاشة حاسوب، و«أبو خطوة عزيزة» تقدم خطوة وسألني بجديّة: هل أنتَ حقا «جبر»؟ هل كنتَ في دورة للهجة المصرية؟ أم ترانا أمامك مصريين؟ اعتذرت منه وأخبرته بأني اشتقت المؤسسة وأحببتُ المزاح. وغادرتهم للدرج. أكلتني نظرات الاستهزاء وكان منظري (وحش جدا). أما المدير فورطتي معه لا تصفها كلمات، أعرف أنك تتلهف ما حدث.

لم تسعني الدنيا وقد تصادف خروج «فتحية» تحمل أوراقا قالت لابد أن يلاحظ عليها المدير، صدفة عليَّ اغتنامها، تبعتُها نزولاً للطابق الأول باب

واسع من ثلاث ضلف، نصفه العلوي من الزجاج المُحَبب يسمح فقط بمرور الإضاءَة، تنفستُ عميقا فلا زالت نظرات الاستهزاء تأكل قامتي، لم يكن الباب الثلاثي إلا مدخلا لمكتب السكرتيرة تطل عليه غرفة المدير، أمّلتُ على دخول «فتحية»، لكنها رمتْ بالأوراق أمام السكرتيرة، وابتسامة وتدلل يوحيان بصداقة، و(بالله عليك بسرعة)، وابتسمتْ لي شامتة، وهمستْ (ان شاء الله خييير!) وخرجتْ، لحقتُها بنظرة استجداء، كان صوت كعبها ينبىء عن استكمال الدرج. انتشلتني السكرتيرة: (خشْ «جبر» المدير يستنى)، وخَشّيتْ على رأيها.

ما بك تضحك «فضل»؟

– أكمل بالله عليك، أقصد أكملي، وقابلتِه؟ أعني المدير؟

– وحتى أزيدُ غرقاً في الفشل لم يكنْ وحده، كانوا ثلاثة، وعليّ معرفته! وقبل أن أعرف المدير عرفتُ أنها نهاية اللعبة، وإن مجييء من أقصى المحيط إلى هنا لم يكن صُدفة، بعد أن تقدمتْ السكرتيرة فتحتْ الباب بهدوء وبهدوء دخلتُ ووقفتُ أطالعهم، اثنان على كنبة ثلاثية وثالث أخبرني الكرسي الذي يحويه أنه المدير، اقتربتُ منه: نعم سيادة المدير أنت طلبتني، شهق وشزرَ فيّ بعين وأغمضَ الأخرى، فيما علا حاجبٌ واحد، ضحك صاحبيه وأحدهم يتهكم: فالح تتهم الناس وأنتَ لا تعرفهم؟ أنسيتَ مديرك؟ مريض ومعتوه، وفاسد أنت، من تظن نفسك؟ (ساسي ومشرّط) أكملَ الجالس جنبه، استثنيتُ صاحب الكرسي من صِفة المدير الذي أجلستْه نكْبتي فيه، لكن أيّ الآخرين هو؟ صاحب المثل الذي لم أفهمه إلا سياقا، أم صاحب

الشتيمة؟ وقف صاحب الشتيمة وكرر: معتوه وغبي، من يصدق مجنونا؟ فتشْ عمن يطعمك، أغاظني فصحتُ فيه: سأحيل تقريري على الرقابة، روح يا شيخ انت وشغلك في ستين داهية، كان هو المدير!

– هوني عليك، أنتِ زائرة، ماذا نقول نحن؟ (أليست هي نحن؟ أنا في دوامة).

رغم الحزن والتشظي واهتزازها النفسي، كانت استجابتها للتعليم مذهلة، رغم أصابع «جبر» المتوحشة، تتطاير الدهشة من عينيها، تطالع الأبحاث المنشورة حول علوم الفضاء والذرة والأمراض والعمليات الجراحية عن بعد، استوقفها الاستنساخ، الشيء الوحيد الذي سبقناهم اليه، إننا نكرر نسخنا الغبية! كم آلمتني وهي تعد بزرع جينات جديدة، ورغم هذا إلا أنها تحن للعودة. ونتأمل عودة «جبر»

* * * * *

- 4 -

الضاحية هذا الصباح تموج في حركة غير طبيعية، سيارات مسلحة تخيط شوارعها بشكل لافت عما قبل، عربات دفع رباعي تحمل مضاد الطيران تغلق المنافذ لضرب العدو في الحي السكني! وسيارات مصفحة معتمة الزجاج تتوزع على الميادين، كل شيء في عربات، فالضاحية لا تعرف رجال أمن على الأرض، لكن اليوم حدث ذلك، عادة يحدث هذا عند بوادر حرب وشيكة الوقوع، عادة، عند مداهمة بنك أو اقتحام مكان مشتبه به، أحياناً، عند الاشتباه بعمليات نوعية لداعش، أو ورود معلومات عن تسلل خلايا نائمة من الطرف المعادي، ونحن لا نعرف أيهم الطرف المعادي، فالجميع هنا هم الجميع هناك، وكلنا خلايا تغطّ في نومها، حركة الناس في الشارع طبيعية، يصطحبون أطفالهم لمدارسهم، ويدورون بمرضاهم على المصحات، ويقتفون رائحة الخضار الرخيص من سوق جُملة، تنام الضاحية مفتوحة العينين، اعتادت كل شيء، في طريقي إلى «جبر» عليّ أن أعرّج على المقهى ففيه النبأ اليقين، فكم فيه من هُدهد، وكم من خبرٍ عند الـ (ضاع مني جمع هدهد)، لنقل أول مرة أفكر في جمع هذه الكلمة، كثر اللغظ في صالة المقهى المغلقة وفي البهو المفتوح أمامها.

- شن فيه يا جماعة، السيارات المسلحة كاثرة اليوم؟

– وأين الخطأ يرحمك الله! قلْ خيرا أو فلتصمتْ! رد ملتحٍ وغاب في شفط (إريجلته).

– ليتهم يفكونا من الخمّارة والحشّاشة في شارع (40).

– هههههه، تلقاهم هم اللي يمولوا فيهم، غير إيفكونا من الحرب.

– يا جماعة بالشويش، توا يطبّوا علينا، بالله فكونا من هالدوة، قالوا فيه دواعش متسللين!

– سمعتوا؟ ولد الحاج «امراجع» راح من اهله يوم، رجع قاللهم أنا «المقدوني الأكبر»، صار له كيف «جبر»، ينطّوا غير عالقوي!

. وجعني «جبر»، شفته مقعمز جنب اخته في سيارته، وهي اللي تسوق بيه!

وضجّ المقهى استعطافاً واستغراباً، بينما تعالتْ ضحكات شلّة في الزاوية البعيدة.

قلت لهم:

الوضع فعلاً غير مطمئن، كم أغبطكم على هذه المعنويات العالية ربما تعودتم ذلك. لحظتها، أضافَ فحمة مُشتعلة لدعم الأرجيلة، وشرعَ النادل الأخرس في لملمة الأكواب الفارغة من طاولاتها، مُسترقاً النظر إليّ! غادرتُ المقهى للاطمئنان على «جبر» والسؤال عن «صالح»، وأفكر في جملة (واجعني «جبر» مقعمز واخته تسوق بيه!) لم تخبرني د.«سميرة» بذلك! ولا «لمياء»! متى؟ ولماذا؟ لا أصدق! التقيتُ أخ «غزالة» يهمّ بالدخول يبدو

عليه الاضطراب والقلق وهو يؤكد بأنهم طلبوا منهم إخلاء المدرسة لمسألة أمنية. فالتفجير المتوقع لا يُعرف هدفه بعد، طمأنته وطلبتُ منه ملازمة البيت بعد جلب ما يحتاجونه من محل «عمي فرج»، فقد يتطور الحال وتقفل المحلات فجأة، دخل مسرعاً لا شك للتخلص من حقيبته، أطلّت «لمياء» من قوس البهو، بابتسامة بهية بددتْ كل الضغط الذي يقبض ضلوعي وذهني وأنفاسي، تقترب نحوي كقطرة ندى كبيرة، وبخطوات واثقة وسريعة دنتْ مني.

– أهلاً بك «فضل»؟ وكأنّ في الأمر شيئاً ما بكما؟

– مرحبا، كوني بخير؟ فقط توجد ربكة بالضاحية، وتعددتْ الشائعات والمؤكد أنه تمّ إخلاء المدرسة يُخشى عمل إرهابي، كيف «جبر» هل «غزالة» معه؟

– تعايشنا مع تأخيرها، وحتى مناوباتها الليلية، و«جبر» يكتب، حتى أنه لم يلتفت إلى صينية إفطاره بعد! لا أعرف ماذا يكتب يا «فضل»! أيكتب المرضى النفسانيون؟ عجبي!

– ومن يكتب غير المجانين؟ المعذرة، لا أقصد، تعلمين أن «جبر» يعاني. أحمدي الله. بعض الأشخاص راقون حتى في جنونهم. أووف ليس بالضبط، فبالتأكيد من يكتب هي د.«سميرة» وليس «جبر»، ليتني أعرف ماذا تكتب؟ لو تطالعين رسائلها التي بعثت بها لوالدها من الولايات المتحدة قبل وفاتها بأيام، احتفظُ بها في محمولي، لا ينفعنا التوتر في شيء، اقتربي

وطالعي، تقول في هذه:

«ليس هناك في أمريكا عادات وتقاليد كتلك التي نعرفها في مصر، يبدو أن كل شيء ارتجالي».

انتظري، وهنا تقول: «الأمريكان خليط من مختلف الشعوب، كثيرون منهم جاءوا لا يحملون شيئاً على الإطلاق، فكانت تصرفاتهم كتصرف زائر غريب يسافر إلى بلد يعتقد أن ليس هناك من ينتقده لأنه غريب».

– أهكذا تفكر منذ أكثر من ستين عاماً؟ وتنتقد؟

– لم تسمعي آخر رسالة.

«لقد استطعتُ أن أزور المعامل الذرية في أمريكا، وعندما أعود إلى «مصر» سأقدم لبلادي خدمات جليلة في هذا الميدان، سأستطيع أن أقدم خدمات جليلة».

أتعلمين؟ أنهتْ دراستها في جامعة «أوكردج» بولاية «تنسي» الأمريكية، ورفضتْ جنسية أخرى غير جنسيتها عندما عُرضتْ عليها مقابل الاستقرار الدائم في معاملهم، وقالت جملتها الشهيرة:

«ينتظرني وطن غالٍ يُسمى مصر»، حتى أُشِيع أنّ هذه المواقف كانت وراء حادث مقتلها الذي أثار جدلاً كبيراً وأنه ربما كان مدبراً بالفعل إثر اختفاء مرافقها الذي اتضح أنه هِنديٌّ ونَفيّ المعامل ارسال أحد لمرافقتها.

– سأمنحكَ مذكراتها، لكن ما هذا الاهتمام الزائد؟

– أتغارين من ميتة؟ مجنونة أنتِ! إنه «جبر»، أتغارين من «جبر»!

ويحك!

– أغار! إلى أين ذهبتَ؟

– قولي ما شئتِ أحبّ كل جُنونك، غَيرتك، لكن اسمعي هذه، آخر ما تركته مكتوباً في مذكراتها التي تركتها قبل وفاتها: «ثم غربت الشمس» اختارت الوطن، فعادت إليه عروساً شابة في تابوت، فهل أيضاً حنّ عقلها اليوم، ليصل إلينا متتبعاً جثمانه؟ فعلاً سأتتبع ما تكتب، ساعديني يا «لمياء»! مدتني «غزالة» بمذكرتين.

– «جبر» صديقك ومريض ولا حرج في معرفة ما يكتب عندما ينام سأسحب مذكراته.

دعني أحضر لك شيئاً! ماذا تشرب؟

– لا أريد شيئاً، فقط اجلسي وفكي لي هذه العقد التي تحكمينها علي. حدثيني مثل «سراب».

– لو تعلم المنزلة التي أضعك فيها، أعزّك كثيراً «فضل» واهتم بأن تكون مرتاحاً من جانبي، أقدّر الوضع الذي نعيش، نحن بحاجة للتخفيف عن أنفسنا، وهذا أمر منوط بي بالدرجة الأولى، هيا ابتسم إنك مثل أخي.

– ليس قبل أن نتفق متى ستتزوج؟ أحسبني أكثر من أخيك.

– زواج؟ فاجأتني، صدقاً يربكني الطلب، تغيرتْ العلاقات، ليس أية علاقة نحيلها إلى زواج، لا تنسَ أنّي ملتزمة ببرامج العاصمة وتونس، حُرمتُ «القصر»، ولم يعد لي مكان هنا، وما يبقيني سوى حالة «جبر»، حين يتعافى

سأغادر. لم يعد للهراء مطرح.

بتّ أفكر في كلماتها، إلامَ ترمي بأنني مثل أخيها؟ وليس أية علاقة نحيلها إلى زواج؟ وسأغادر!! هذه ليست المرة الأولى التي تستفزني بها، أية علاقة هذه؟! في بلادنا صارتْ علاقات الحب مثل السياسة، قابلة للتغيير حسب الظرف! لحظتها دفع الصغير باب البيت، وولج يلهثْ..

– سيارة مسلحة أمام الباب، وفجأة أربعة مسلحين مدججين ببنادق الكلاشنكوف، تم سحبها في جاهزية للرماية وانتشروا في البيت.

– أين هو؟ الداعشي الذي يختبئ عندكم؟

– ماذا؟ لا يوجد في البيت غيرنا عما تتحدث؟

وصاح أحدهم من الداخل، ها هو؟ أنه يتسمم بالبيض والحليب؟ وخرج وهو يسحب «جبر» من ذراعه.

– من أنتم؟ أتركوني؟ سيد «فضل» من هؤلاء؟ ألا تحترمون امرأة وغريبة؟

– دعوه إنه مريض، هذا صديقي مريض، كل الضاحية تعلم به.

دفعني أحدهم بقوة: – إنه هو، حلق ذقنه ولم يلحق على حلق شعره، أما ترونه حتى كتفيه!

انتابتني رعدة ونسيتُ «جبر» عندما رمقتُ أحدهم ينظر مطولاً إلى «لمياء» أهذه أخته؟

– لا. هذه زوجتي، زوجتي وهو صديقنا إنه مريض ونحن نهتم به.

يصرخ «جبر»، فلم يخطر ببال د.«سميرة» أن يوجه إلى صدرها

الرصاص، وتجرّ بعنف من قبل مسلحين، كان منظراً قاسياً لفّه اليأس، لم نستطع إنقاذ «جبر»، فهؤلاء أناس لا يعرفون إلا استخدام العضلات، فكيف وعضلاتهم رصاص! إنهم على رأي جدّتي (مَجْنون وصَايدْ عَافِيتَه)، يلتفتْ علينا مستنجداً ممتنعاً عن المشي، وهم يجرونه ركلاً، حرقة داخل أضلعي، وتصرخ «لمياء»، بربكم اتركوه إنه مريض وبريء، ويصيح أحدهم وهو يصل الباب الخارجي، سنعلم ذلك في التحقيق، سيعود إليكم لو كان بريئاً، قيدوا يديه خلفه بكلبشة ورموه كالشاة في صندوق السيارة.

كانت تدور حول نفسها وتضرب بيديها على ركبتيها، تنحني «لمياء» وتستقيم، والحال لا يستقيم، ليس بوسعي أن أضمها وإلا لفعلت. ونظرتْ إليّ مستغيثة «جبورة» يا «فضل» لا يستطيع أن يدافع عن نفسه حتى وهو يعرفها، فكيف سيدافع عنها وهو لا يعرفها؟ ماذا سيقول عن نفسه التي يسكنها مخلوق آخر؟ أهذا ما ينقصني؟

– هوّني عليك، أحضر لها ماء يا بني، هوني عليك يا «لمياء»، لن يصلوا معه إلى نتيجة وسيعود. وفي الخضم لا أدري كيف قفزتْ بيننا «غزاله» ولا كيف فتحتْ الباب ولا من أين علمتْ، رمتْ بحقيبتها في البهو وعانقتْ «لمياء» وصارتا تندبان وهما متعانقتان والنحيب يعلو، وأنا أحاول التهدئة، متناسيا كيف استطاع «جبر» أن يجمع بينهما؟

– أنتِ عاقلة يا «غزالة» سيعود، اطمئني، وطمئني «لمياء».

– لا لن يعود، لن يحتمل، «جبر» وأنا أعرفه، أنت تعلم كيف سيحققون

معه؟ تعلم يا «فضل» و«جبر» لن يطيق، آه يا «جبر». مَن أخذه يا «فضل» أي جهة؟

- لا أعرف.

لمْ أكذب عليها، حقيقة كنتُ مشغولاً به، لم أطالع أية علامة على السيارة والتي لا تعتبر فيصلاً، فجميع التشكيلات رغم تعددها، تمتهن ذات الشعار الملصق، لم أنتبه لأية علامة على السيارة هذا لو وجُدت أصلاً، لكن ما استفزني أن لحية السائق أطول من «جبر» نفسه، «حسن» لم ينبس ببنت شفة كان وجهه فارغاً من الدم، وشفتاه جافتين وهو يبللهما بلسانه الذي ينبئ عن حلقه اليابس، ماذا سيتعلم الصغير من هذا الموقف يا ترى؟ وهو يرى زوج أخته المعاق تحت ألسنة السياط، يا ترى إلا ما سيؤول إليه «جبر»؟ فعلاً لن يحتمل، تماماً هو كما وصفته «غزالة» طلبتُ منهم أن يدخلوا ويرتاحوا، ريثما أتقصّى من الجيران الجهة المسؤولة عن اعتقاله، من اقتاد «جبر»؟ أهي تشكيلات الكرامة؟ أم الردع؟ أو سرايا الثوار؟ هل هم المقاتلة؟ أم السلفية! أو أنصار الشريعة؟ أم أنصار الشيطان لا أعرف كيف سأخمن من اقتاد «جبر»!! لكنني أجزم أن المشتبه به هو «صالح»، لا شك أنهم يتقصّون أخبار الغريب الذي غشي الضاحية منذ أيام وأُخْبروا أنه في بيت «جبر»، بينما تودعني «لمياء» بنظرة رجاء، عدّلتْ «غزالة» من هيئتها ومسحت دموعها ونهبتْ حقيبتها كمن تذكر أمراً، اقتلعتْ منها هاتفها في عجالة وجرتْ نحو الداخل. كنتُ لحظتها في مواجهة الشارع الذي بدا بلا واجهة، بلا وجه، طار وجه الشارع ينشطر وجوها مختلفة ومتناقضة تتنافر فيما بعضها وتتقارب في حالة

هستيريا عجيبة، صار مسرحاً كبيراً وأنا المتفرج الوحيد، يتقافزون فوق الركح المتهالك، يؤدون مسرحية هزلية، عَلتْ فيها الموسيقى التصويرية على أصوات الممثلين، لم أسمع شيئاً من الأفواه المفتوحة، ما زاد خيبتي في معرفة مكان «جبر».

* * * * *

«إنّ القهرَ الحقيقي ليسَ في جُنون العَقلِ، إنّما
في اسْتعبادِ الإنسانِ واستباحتِه والعبثِ به»

* * * * *

- 1 -

عندما يكتب الإنسان مذكراته، فإنه يصبح في حالة تجلّي عظيمة وصادقة، تجمع بين قوة متكئة على الحرية المنفلتة من الرقابة إلا مِن وعي الذات، وبين شعور بالضعف، مردّه الصدق الممزوج بإحساس الغربة والحرمان، في اللحظات التي يتكشّف فيها للإنسان أنه يتنفس تحت الماء، أنه في الحقيقة هو وحيد ومستقل وبعيد عن كل من يظن أنهم جزءٌ منه، وأن تعلّقه وحاجته بهم محض وَهَم، أنه بحاجة في تلك اللحظات، إلى جدار حقيقي، ومصدر دفء يتلمسه بالتذوق والتأمل والإدراك، شعرتُ بذلك وأنا التهم مذكرات د.«سميرة»، التي تركتها في غرفة «جبر» قبل أن يقتاد إلى مصير مجهول. بعضها مرقّم وأخرى دون ترقيم، حمدتُ الله أنهم لم ينتبهوا لها.

مذكرة (1)

والدي العزيز:

كانت آخر جملة كتبتُها في مذكراتي التي تركتُها بكاليفورنيا «وغربتْ الشمس».

لكنها لم تغربْ إلا على حياتي وأبحاثي، فهل كان ذلك حدساً عقلياً؟!

حزمتُ فرحي وشوقي إليكم قبل أن أحزمَ حقائبي وأنا في طريقي للمفاعل الذري الأمريكي لأعود لكم ولمصر بالغنيمة التي طالما حلمتُ بها، ولكني لم

أصل، فقدتُ كل شيء لأجدَ نفسي في بقعة أشبه ما تكون على كوكب غير الأرض، ولربما هي كذلك لا تَسلْنِي الآن كيف!! بقعة متناقضة وكل ما فيها مَمَزّق، الإنسان والمشاعر والتراب، إلا النحاس! اطمئنْ، حظيتُ بعائلة مريحة تهتم بي في بقعة قيل لي أنها في ليبيا. لن أخبرك كيف كانت رحلتي لأجدني هنا، لأنك لن تستوعب ذلك من الورق البارد.

سأدون مذكراتي بتاريخهم الذي يعتمدون، أتصدق! يتوهمون أنهم في 2017!، سأكتب مذكراتي، والتي لا أتوقع أن أنجح في إيصالها إليك... لكنني لن أتوانى عن ذلك، سيكون شغلي الشاغل.

سميرة موسى/ ليبيا/ 2017م

ما أن انتهيت من هذه الأسطر، حتى رددتُ مرتين يا لخيبة الأمل... يا لخيبة الأمل، ألا نستحق أن يعيش بيننا علماؤنا. هي لا تعلم ماذا حل بعالمة الذرة العراقية «هدى عمّاش» سيدة (الجمرة الخبيثة) ورقم (53) في قائمة المطلوبين العراقيين لدى الأمريكان بعد سقوط نظام (صدام حسين)، ولا تعي شيئاً عن سجنها وزميلتها البروسفوره «رحاب طه»، والتحقيق معهما بعد مداهمة منزليهما، اتهمتا بإحياء البرنامج النووي العراقي، بعد حرب الخليج الثانية، كيف لها أن تعلم! وقد غادرتْ إلى أبعد من السجن؟ إلى الموت في واد سحيق، يموتُ معها الحلم وتختنق معه كل علوم الحياة، فهل كانت الحياة ستمنحها ذلك وقد وأدتْ بعدها حلم «هدى» كما «رحاب»؟

* * * * *

مذكرة (2)

وكتبتْ د.«سميرة» هنا:

بعض الأمور لا يمكنك الإفصاح عنها فتنوء بحملها وحدك، ربما لن تجدَ من يصدّقك، ربما لا أحد أهلٌ لذلك، قد تكون السماء تريدها لك وحدك.

كيف أفصح عن اختلائي عنزاً بأربع قوائم، أتمرّغ في الفرث والبول، وأرتعشُ من ذاك العملاق النتن بعينيه المليئة بالشبق، أختبيء لأرضع معزة هادئة، أختبيء حتى لا اقتاد فريسة، أقتاتُ على العشب والتراب، وأبلّلُ رِيقي بالماء مِن أيّة حُفرة، أرقبُ وأتقيأ في كل مرة تُمزق شاةٌ حيّة وكأنّها المرة الأولى، على سنا القمر يتسرب إليّ همسُ «عنز» لِجديها وهي تشمّ عنقه: لا تخشَ الموت يا صغيري، فالخوف لن يبقيكَ حيا، وعندما يسحبك النمرُ من قرنك الصغير، لا تجزعْ، صبّ في عينيه شررَ ثقة، وغنّ في طريقك هازئاً: وداعا أيها الخوف فالنمر ليس موتا، هو فقط صائد فرح، سيموت عندما تنتهي ذخيرته، سيقتله صائدٌ أكبر عندما يجوع، سأرتعُ عنه بعيدا هناك في حقل الآمان، وسأتركك أيها الخوف هنا في زريبة القطيع مرتعك، وانظر في عينيه بثقة لا شيءَ يرعب الصيادين مثلها.

لمنْ أُفْصحُ أنّ «زَنْدَبيل» أعقل منّي فالصراعُ شقاء، وأنّ العدلَ لن يتحققَ على الأرضِ ما لم تتحقق للجميع ذات القوّة، ما لمْ نكنْ كلّنا أسُوداً أم كُلنا أرانِب؟ عندما أخبرتها أنها أضخم وأحكم من الأسد، وبّختْني (طوال هذا

الوقت هنا ولم تتعلمي لأنك عنز). نعم. بعض الأمور لا يمكنك الإفصاح عنها. كيف أفصح، ومن سيصدقني!

وهنا..

ذاك الجسم النسيج الأبيض، الفضائي المُطَارَد والمُقاوِم صار يُثيرني! يرسل لي إشارات مباشرة! كما لو أن جسدي صحن لاقط، إشارات خاصتي، دعوة من أطرافه الأربعة مهيبة الاتساع، تسري في مفاصلي حُمى عشق لذيذة! أنىّ لي تلك الحُظوة؟ وما السبيل؟

أشدّ العلاقات تأزما تلك التي بين الأرض والسماء، بين الظلام والنور، بين الطين والماء، بين الجسد والروح! فأيّها أنا!!

سميرة موسى / ليبيا/2017م

ما أجمل تعبيرها رغم رداءة خط «جبر»؟ ترى إلام توصلتْ في غرف التحقيق؟ سيتألم «جبر» وستعبر هي عن هذا الألم، سيصرخ «جبر» وستحاجّهم د.«سميرة»، وبأي حجة أيتها العقل؟!

عندما انزلق لساني بأننا في العام 2017.. ردتْ مازحة لا تسبق الزمن، وأضافت:

في 2017 ثق بأننا سنكون في مصاف الدول النووية، نحن معهم ند بالند في معامل أبحاثهم، بل ونتفوق عليهم، في 2017 لن يكون حالنا هكذا. (دنا عندي مشروع هايل)! سينعم أحفادنا كثيرا.

لم تكن حينها قد تحولتْ بالضاحية، ولم تكن قد شاهدت الأجساد

المتراصة تخشباً تتسول الماء، حينها لم تشاهد بعينها في الضاحية، طيران حيّنا يقصف حينّا، ويرد بالقصف طيران حيّنا! لم تكن حينها تعلم أنها ستقاد مقيدة من غرفتها لتُرمىَ في صندوق سيارة مسلحة تحت فوهات البنادق، لم تكن حينها تعلم إنّا بالفعل في 2017، وإن ما تراه هو ربيعنا، وإن المسافة حرجة، والهوة سحيقة بيننا وبينها، فماذا وبعد أن أدركتِ ذلك أيتها العارفة؟! آخ..آخ أدمعتني أيتها الحرية.

لم تتزوج، فصدر الرجل قد يكون غربة باردة، انصهرت في قوانين الطبيعة وحرارتها، تتأمل عيون الأرض الساحرة وكيف تتفاعل الذرات حباً وانسجاماً لتخلق لنا عالماً عقلاً، وفي كل مرة تلمَحُ في عيني سؤالنا الفضولي، عن تأخر قطار الزواج المقدس لدينا، تبتسم وتغير الموضوع التافه، إلى أن جاملتني ذات مرة، لا أنكر الزواج، لكنني ألوذ بالبحث عما يشغلني عن البحث. والحبّ ليس رسائل واشتهاء بين امرأة ورجل أخي «فضل». آآه، لم يعجبني رجلاً إنساناً كما د.«مشرفة»، تتملكني راحة ندية وأنا أنظر في عينيه وهي تحلم بالنتيجة، وأتمنّى ألا يصمت وهو يصفني بالاستثنائية، وسيكون معي إلى النهاية، حينها صنعني أذرع أمل، وقلباً ينبض أضعافا، تلمّستُ حناياه وهو يقدم استقالته إن لم أُعيّن معيدة، وضمّني دفئه وهو يصرّ على إيفادي للبحث في جامعات لندن، وتفاعلنا معا في الأعمال الخيرية، وعندما نحتسي الشاي ينظر إلي ويهمس (أنت رائعة)، وكنت أردّ وأشكره بابتسامة لا يمكنني منعها فيفهم، أحببتُه عقلاً، وخسرناه جميعاً يوم رحيله، كنت أقرأ عليه مقالاتي يشاركني متعتي بها قبل نشرها، صفّق لمقالتي في «الأهرام» عن «أينشتاين»،

وانبهر بكتابتي عن «تولوستوي»، و«جان جاك روسو«، وصاح: (هايل) عندما ألّفتُ كتاب «مدام كوري». وعندما استأذنه لأخبره شيئا، يرد: (أنتِ مش أي حد! أنتِ تقولين ما تريدين بلا استئذان) ويلومني لو سألته إن كان مشغولا؟ (أنتِ لا شيءَ يزاحمك أبدا. كلّي لكِ).

آه.. يا «فضل»، هل كان يلمّح لي عندما قال: (أحيانا أفكّر في أن أحتفظ بضحكاتِ مَن أُحبّ، أخبّئُها في بالوناتٍ كثيرة، لأستمتع بها في غيابهم!) ترى هل تؤنسه اليوم؟ الحبُّ كبير، هو بعضُ الإيمان، أنفاسُ وطن، الحبُ الإنسانية، وجهُ الله في السّلام. سيد «فضل».

لم أردّ عليها، حصلتْ الكلمات غُصّة وانبهاراً وألماً، وهي تتحدثْ بثقة لم تمنع دمعتها في آخر كلماتها، لا أعرف إن كانت دموعها، أم دموع «جبر» بإحساس د.«سميرة»؟، فأنا مشتت بينهما حدّ الخيبة، وحدّ الدهشة، لكنني بكيتُ نيابة عنهما.

* * * * *

– 2 –

أسبوع على اعتقال «جبر» ولم نهتدِ إلى خيط يصلنا به، هذا ما استطعتُ أن أخبرَ به «لمياء» و«غزالة».

«غزالة» التي أفصحتْ عن تلقّي وعدٍ من أصدقائها في العمل بأنهم لن يألوا جهداً في البحث بما لديهم من نافذين تربطهم علاقات قرابة ومصالح مع الميلشيات المسلحة بالضاحية. باغتتها «لمياء»

– هل تقصدين «بوشنوارة»؟ كوني واضحة، لا نريد منه ذلك إلا إذا كان سيشتري أصواتنا مقابل «جبر»؟ نريد شخصا عرف الجوع.

– يا لخطابتك! ألن تتخلي عن تنظيرك؟ أضحكتني، شخصاً عرف الجوع!... هه! كوني واقعية ولو لمرة واحدة. على كلّ ما دمتِ طرحته فقد أطلب منه المساعدة.

– كفاكما مناقرة بالله عليكما، لا أرى بأسا من طلب مساعدة «بوشنوارة» إن كان سيفيدنا لإخراج «جبر»، أما من ناحية الجوع فقد خبر أكثر منه.

ما إن غادرتنا «لمياء» محتجة، حتى غمزتْ لي على استحياء ومبتسمة: فعلتُ، نعم اتصلتُ به ووعدني، لو استمعتَ لصوته المرتعش بعد علمه باعتقاله، أكاد أشك في أنه خائف أكثر منا.

– إذاً تخمين «لمياء» في محله؟! يا لكما من ماكرتين، لكن مم

سيخاف؟

– تعلم هو رجل شهم حتى لم يأخذ فلساً مقابل الإيجار منذ إصابة «جبر»، ولو أعلمتها بذلك لقلبت الدنيا على رأسي.

– ولِمَ يَخاف من اعتقال «جبر» لمْ تجيبي؟

– نعم؟ آه.. لا أعرف، ربما تعاطفا معه، أكيد لأنه مصاب، ومرتبكة: ربما، نعم، لا أعرف.

أربكتني أنا كذلك... هل «غزالة» هي الأخرى بدأت تتغير؟ كانت ردودها بقوة لا تتناسب ووداعتها ودفء صوتها! محافظة «غزالة» على وتيرة الصمت والانضباط، والالتصاق بأشيائها الصغيرة، رغم ضغط برامجها، تنشر النعناع الأخضر في ظل البهو، وتفصِل حباتِ الفُول عن قرونها لتكييسها، وتجمّد حويفظات الفراولة، لتنتهي بتجفيف شعر القطة العسلي وتزيينه بوردة زرقاء، وتختتم بنثر القصب فوق السطح لشَرِيد الحمام! لا أصدق، فعلاً لا أعرف ما الذي يجري، وما الذي تُخْفيه؟

وما الذي يدفع «بوشنوارة» للتنازل عن الإيجار كل هذه المدة، تسعة أشهر منذ إعاقة «جبر»؟ ومجيء د.«سميرة»؟

د.«سميرة»، كم كانت صدمتها وهي ترى معتقلي «جوانتانامو«في أقفاص زجاج في العراء، تحت الشمس والنجوم وكاميرات المراقبة وكواشف الضوء العملاقة! وهم يُغرَقون تحت الماء حتى إيهام الموت قبل الموت! واستنكرتْ ذلك مهما كانت جنيتهم، فهؤلاء بشر، وتساءَلتْ هل رموا قنبلة

ذرية على البشر؟ ألا توجد سجون؟ هم لا يفعلون ذلك بمواطنيهم! ها هي عالمة الذَّرة الدُّرّة مثلهم اليوم، في معتقل غير معلوم وعند جهة غير معلومة؟!

وها هي الصحف التي صرّحت فيها حفيدة صديقتها اليهودية «راقية»، تتطاير مع الريح، تتلاشى بعيدا، تكشف فيها الحفيدة «ريتا» عن علاقة الجدة «راقية» بعالمة الذرة المصرية، وحوزتها مفتاح شقتها، وأنّ جدّتها على معرفة بالمرأة التي استقبلتْ د.«سميرة» بالولايات المتحدة وتواصلها معها، ورصدتْ كل أخبار العالمة عن طريقها. وعرضتْ عليها قبول الجنسية والإقامة، للتفرغ للبحث هناك، والرفض من قبل د.«سميرة».

ماذا لو تعلم العالمة ذلك؟ تلاشتْ زوبعة الحفيدة «ريتا» التي فجرّتها، مع رذاذ الجرائد التي تاهتْ خلف عالمتها، طارتْ مع تفجير هزّ قلوبَ الضاحية وهو يهدم قبّة شيخهم «الصالح»، ويُفزِع الحمام والموتى والشهداء، طار الحمام لكنهم عجزوا عن الطيران.

* * * * *

بعد يومين اتصل بي من رقم «جديد» ليطلب مقابلتي سريعاً فهو في عجالة مع إن الوقت ظهراً. أنا في البيت، أحضر بسرعة «فضل».

هذه المرة عمدتُ بيت «جبر» وأنا أشكّ في أن كل من حولي يتفحصني ويقتفي أثري، كدتُ أصدم عمود الكهرباء بسيارتي فأنا لا أرى شيئاً من شدة الوساوس، وماذا لو حطمته، لم تعد لأعمدة الكهرباء قيمة، إنها لا تعمل إلا في غرف التحقيق، الكهرباء أعني، هذا ما فهمته مِن «صالح» الذي ظهر كالغول في بيت «جبر»، لم يملأ كرسيّه في زاوية غرفة الضيافة، وقد ملأ منفضة السجائر بعقابها، سلّمنا سلاماً جاء بارداً غطى عليه التوتر.

– أُعتقل «جبر»، طال البحث ولم نهتدِ إلى مكانه. يا «صالح».

– أعلم، وهو رهن التحقيق، إنه ليس بالضاحية، سُلّم للعاصمة.

– ماذا؟ وما تهمته الخطرة حتى يسلّم للعاصمة ألا يعلمون أنه مصاب؟

– عندما يصل الأمر بأمنهم يتعطّل كلُّ ما يؤمّن حياة البشر.

– وهل المُعاق «جبر» يشكل خطراً على أمنهم.

– «جبر» أعتقل خطأ، أنا المطلوب الذي يبحثون عنه، زادهم شكل شعره الذي وصل كتفيه، وتأكيد المعلومات بأني داخل المنزل. ليس هذا هو المهم، الغريب تسرّب أنباءٍ عن اهتمام المخابرات المصرية بأمر «سميرة»، وينتظرون التيقّن من أنّها هي عالمتهم لاتخاذ إجراءاتهم بالشأن! خاصة بعد انتشار المقابلة التي أجريتْ مع طبيب مصري قال إنه فحص «جبر»، وأنه فعلا بذاكرة العالمة «سميرة موسى». المقابلة لقتْ صدى واسعا، وتعاطفا كبيرا من

الصحف والشارع المصري. ألم ترَ المقابلة؟

– لا. ما هذا الجنون؟ هراء! كان الأولى أن يفتحوا ملف مقتلها، وأين وصلت نتائج دراستها بالولايات المتحدة؟ أو بماذا سيقابلونها عندما تسألهم عن مصير أبحاثها في الذّرة؟ وكيف سبقهم للنووي من بدأ بعدهم؟ ويريدون الآن أنْ يتيقنوا منها ليتخذوا إجراءاتهم هه! جنون!

– اقسم أنّ الجنون ما غادركم أنتم يا «فضل»! هل نسيتَ أنه «جبر»؟ ثم أينكم أنتم من الذرة؟ ألم تفككوا برنامجكم النووي وسلمتم ترسانتكم النووية بما فيها جهاز «سيمانك 7» المستخدم فقط في أمريكا، شُحنتْ كاملة عبر البحر منقولة على شاشات القنوات الفضائية! خلينا في «جبر» بالله عليك.

– أخشى عليه يا «صالح».

– أنت مُحِق. لم يحتمل التيار الكهربائي، تشنّج، وانهارَ. (ودمعت عينا «صالح» وصار يرتعش).

– اهدأ، وهل؟ لاا! أمر مؤسف حقاً.

– صار يصرخ ويقول (جرد عمي الغناي... جرد عمي الغناي، الصندوق، الصندوق) وأغمي عليه.

– الحمد لله يا «صالح»، يعني استرجع ذاكرته، تذكر جرد عمي «الغناي»، الحمد لله، وعانقتُ «صالح» الذي لم يبادلني العناق، ولم يرفع حتى ذراعيه، أرخي رأسه للأسفل، وتابع..

– للأسف يا «فضل»، عاد هو يهذي أكثر مما كان، وتمسكوا هم بجرد عمي «الغناي» والصندوق، اعتبروهما إجابة، اعتبروها كلمة سر، ربما علامة لمكان، ربما شيفرة. ربما «داعش».

– ماذا؟ ذكر الصندوق؟ ثم على رسلك، فهمني، يبحثون عنك والآن عن داعش، وما علاقتك أنتَ بداعش؟ عليك أن تختفي «صالح» وفوراً، لكن ليس قبل أن تفهمني ما الذي يحدث؟ ثم غادر للطرف الذي يحميك.

– يحميني؟ كم أنتَ طيب، ومن يحميني؟ في بلادنا عليك أن تكون دائماً في الجانب المظلم، لا طرف يقبل توبتك، وكأنهم يدفعونك إلى الانحراف دفعاً.

خرجتُ من السجن بعد سقوط النظام في العاصمة أواخر أغسطس، أَنساني ذلك ما أنا فيه من إرهاق وكدر، حمدتُ الله أنني ما زلتُ حياً، وعمدتُ شرقاً صوب «القصر» بعد مكوثي الأسبوع الأخير من رمضان في العاصمة مع صديق، تشبّث بي لضمان سلامة سفري، حيث «القصر» مازالتْ تحت سيطرة النظام، وسفري إليها مهلكة، ذلك في أواخر أغسطس، لم أتمكن من الاتصال بكم، لم تكن من تغطيّة للاتصالات، أترقّب «الحي2» فرحاً رغم الاضطرابات والحرب والخطر، ستقرّ عينُ أمي في عيد الفقد، سأعانق زوجتي، كنتُ أتخيّل حركات ولدي وقد أتمّ عامه كيف يخطو! كنتُ أودّ أنْ أعصره وأشمّه، وكنتُ، وكنتُ يا «فضل»، آخ..آخ..آخ. غادرتُ العاصمة، أنت تعلم العدد المهول الذي قضى من شبابنا، بين ميت ومبتور ومفقود، في حرب العاصمة من الطرفين الذين هبّوا إليها من كل جبل وواد، جميعهم لقتال بعضهما، أنصار «فبراير»

وأنصار «سبتمبر»، لكنك لم ترَ بعينك أجسادهم الغضة تملأ أرصفة الشوارع، عيون شاخصة في السماء تستجدي إجابة، وأخرى في المارة تقول ألف كلمة وكلمة، أنتَ لم ترَ أحلامهم تغادرهم دماً يسيل في الطرقات وملتصقا على وجوه جدران «العزيزية» و«فشلوم» و«تاجوراء» و«بوسليم»! كان الدمُ على الجدران يرسم شوارع وأحياءً أخرى، آه يا «فضل»، أشعر بالطريق طويلة وأنا أطلب من السائق أن يزيد في سرعته كلما اجتاز حاجز تفتيش شرق العاصمة وما أكثرها؟ إلى أن استوقفتنا بوابة حاجز أمني غرب «القصر»، قبل أن نصلها، انتابني حنين غريب ورغبة في البكاء ومعانقة من سيكون في طريقي، حتى ولو كانوا المسلحين الذين يملئون البوابة، استوقفونا، سألوا سائق التاكسي عن الركاب، ولا أدري إلا وأحدهم يطلب مني النزول... التفتتُّ على الجميع أريدُ جواباً، التفتُّ على السائق وعلى الركاب وكلّ المسلحين، أطالع الوجوه وجهاً، وجهاً وكأنني أتوسلّ الوصول لبيتنا الذي صار قريباً جداً وكأنني أراه، ليتني أعطيتُ أحد الركاب اسمي وعنوان أهلي، ليتني.

نزلتُ.

أين كنتَ مختفياً كل هذه المدة؟ وإلى متى ستنجو؟ خلّي سِيْدَكْ ينفعك؟

ماذا!؟ تيبس حلقي ولم تسعفني كلماتي، وجدتُ نفسي في سيارة مع مسلحين ومقيدين غيري، ربما ثلاثة على وجوههم قترة. تتسايل خطوط الدم، ومنها ما جفّ على أجسادهم، والتصقتْ بملابسهم، وُثّقوا بحبال ثُبِتت بأعمدة صندوق السيارة. ذكروني بأضاحي العيد.

دفعني في السيارة وهو يقول، الخرقة الخضراء التي كنتَ تتجول بها وهي على زاوية سيارتك اقتلعناها من العاصمة، وسنبيدها هنا قريباً في «القصر»، فلتنفعك الآن.

لم أفهم يا «فضل» ولكنني عرفتُ أنها تهمتي، الراية الخضراء عَلَم النظام السابق تهمتي هنا عند معارضيه أنصار فبراير، والتحريض ضده كان تهمتي لدى أنصاره في سجون العاصمة، لكنني على يقين أنني لم أرفع علم النظام على سيارتي، وفي ذات الوقت لم أحرّض عليه، هذه المرة أودعتُ معتقلا قرب «القصر»، لكنه لم يفدني في التواصل مع أهلي. كنت أخشى أنصار «القذافي» في «القصر»، فاعتقلني أنصار «فبراير» قبل وصولي إليها، بتّ ليلتها تحت الفلقة حتى الصباح، ليُزَجّ بي في غرفة كبيرة بدتْ ضيقة وصغيرة من شدة اكتظاظها بأنصار «القذافي»، بعض الوجوه كأنني أعرفها، لكنّ فعلَ الفلقة جعلني لا أريد أنْ أعرف أحداً، وجوه متورمة بالزرقة، وعيون سدها الانتفاخ، تعذيب حدّ كسر الضلوع، ولا شيء سوى الصراخ والآهات، إنهم منسلخون عن ذواتهم الإنسانية، الذين يعذبون شبابنا هنا وهناك مرضى بالسادية! لم يمنعني اشتعال جسدي ألما، من التفكير في تُهمة العلم الأخضر بزاوية السيارة وأنا البريء منها! نمتُ عليها، إلى أن عادتني أمي ذات منام، وكنا في زيارة قبة سيدي «الصالح» بالضاحية، كانت أمي تعقد شريط «سيدي الصالح» الأخضر في زاوية السيارة تيمناً به، وحفظاً لنا من حوادث الطرق، تذكرتُ تلك الزيارة، وتذكرتُها وهي تربط رايته الخضراء منتشية، ليلتها ابتسمتُ فأمي غصن زيتون أخضر وحمامة سلام، تفاءلتُ بأمي يا «فضل». (وأخذ

«صالح» يبكي بحرقة)، ليتني رأيت أمي؟ ليتها رأتني قبل أن تغادر، ليتني رأيتهم، لو فقط حتى ودّعتهم لحظة اعتقالي.

– يا للمفارقة! الراية الخضراء التي ورطتكَ، كانت راية الشيخ الصالح التي عقدتها أمك في زاوية السيارة؟ وبعد؟

– لم يكن المبنى سجناً تقليدياً كنا مقيدين داخل (تريلات)، غرف جاهزة داخل مزرعة أطراف «القصر» تمهيداً لنقلنا إلى مكان آخر.

لكن الحرب منعت ذلك، ما مكّن أحدهم من تهريبي، وثَقتُ به بعد أن لاحظتُ تعاطفه معي، وتهدئتي بسور من القرآن، وقصص دينية وأحاديث ينسبها للرسول الكريم، كان من ضمن مسلحي البوابة التي استوقفتني، وأحد القائمين على المعتقل الذي بقيتُ فيه ستة أشهر في «القصر» ولم أرَ «القصر»، كنتُ بحاجة كبيرة لكلماته التي كانت ثلجاً على صدري المشتعل، أحببته، ستة أشهر كان فيها ملاذي، ووعدني بالمساعدة على الهرب إلى حيث الجماعة يتلقون تدريبات لمواجهة هذا الظلم الذي نحن فيه، لم يكن راضٍ عن حال البلاد، ولا عن هؤلاء المسلحين هذا ما قاله لي، عرفت متأخراً أنه من الدواعش، وأدركتُ أنهم يخترقون سلطة «فبراير»، قام بتهريبي ونقلني عبر طريق صحراوي شرقا، بعيدا إلى معسكر بالواحات شرق «القصر»، عبارة عن مزرعة كبيرة استولوا عليها بعد نزوح أصحابها، داخل المعسكر اسْتقطبتُ من قبل «داعش»، لم أكن أعلم حينها، علمت متأخرا.

– ماذا؟ داعش بين المسلحين؟ وقبل سقوط النظام في «القصر»!

– نعم، منذ ذلك الوقت ولم يكونوا قد أعلنوا عن أنفسهم بعد، كانوا خلايا نائمة، وكنت أحدها، مرحلة استقطاب وتدريب فقط، لا أعرف سوى أنهم منقذون.

– لا. لن أصدق، لن تكون داعشياً، لستَ مؤهلا لذلك، أنت إنسان رائع وسوي وطبيعي، وحتى اللحظة لا يبدو عليك السوء، لن أصدق (وضممته بقوة. ولكن..).

– صدقاً يا «فضل»، كنت في حالة يأس وضعف وحقد مجتمعة، وأمام محاجين ومتكلمين بارعين، وصفوا لي بأننا بعيدين عن الإسلام وكيف لا أصدقهم وأنا من تعذيب لتعذيب من قبل من يدعون الإسلام وأنا أشهد أمامهم أن لا إله إلا الله؟.. قالوا أن حكامنا كفرة، وكيف أكذبهم وهم فعلاً سراق وفاسدون وظلاّم؟.. قالوا إنّ من يحاربهم يدخل الجنة وأمامه وجه الرسول والحور العين، وما أحوجني لذلك، عموماً حصل ما حصل ذهبتُ إلى «سوريا«أواخر 2012، سوريا شأن آخر ليس وقته، عدتُ منها إلى «القصر» 2015 أصولُ فيها وأجول، إلى أنْ بدأ التكفير والذبح، طُلب مني قطع رأسٍ وصفوه بالمرتد!

– لا. لا تقل لي أن الذي طعن ذلك الشاب الوسيم هو أنت؟ قد قلتُ لـ«جبر» أنه يشبهك! وقلتُ له أنّ الضحية شبه «خالد» ابن الجيران، قلت ذلك لـ«جبر».

– كان ذلك بعد الاعلان عن التنظيم في 2015، ضعفت، استعصى

عليّ ذبحه، طعنته في قلبه، تحت كتفه الأيسر مباشرة. للأسف «فضل» فعلت وأنا أرتعش، لم أنظر في وجهه، أزحتُ ناظريّ، فقد بدا لي شبيه «خالد» ابن الجيران، كل واحد من المذبوحين شبيه «خالد» ابن الجيران. حتى تلميذ الإعدادية الذي افتكّوه من حضن أمه وهو يستغيث بها ويتشبث بردائها شبيهه، لحقوا به حتى الدور الرابع، وراءَه حتى وسط المطبخ يا «فضل»، جرّوه أمامها من المطبخ حتى الدرج وهو يلتفتُ عليها لا تتركيني لهم يا أمي. ملأ صراخه الدرج والفضاء، قبل أن يخمد صوته تحت مقعد التويوتا التي رمته في زنزانة.

– إعدادي؟ أمتأكد؟ يا للقهر؟ ما جَنِيتُه؟ طفل!

– واسمه «عبد الله»، بالصف التاسع وجدوا في هاتفه صورة «القذافي» فوصفُوه بالمرتد، لحظتها، استغربتُ تماسُكَ أمّه أمام استغاثته بها! عرفتْ أنهم ليسوا ليبيين، قالت لنا بلهجتهم: كيف تدخلون على حُرمة وحيدة دون مَحرم؟ أليس هذا منطقكم؟ لتنهار بعد أيام أمام نبأ اعدام صغيرها، لم تُكملْ صرختَها.. مُنعتْ مِن البكاء على مُرتد هُدّدَتْ باعتقالها وكلّ من يبكي معها. شهدتُ لحظةَ اعتقاله ونبأ إعدامه.

– تباً. أما جرّبتَ ألمَ الاعتقال؟ تعدمون الأطفال وتحرقون أكباد الأمهات؟ لستَ أنتَ. أنتَ لستَ «صالح»!

– بعد عشرة أيام من اعتقاله وأمه تلهث لرؤيته، وكلٌّ ينفي علمه بمكانه، سُمح لها بزيارته، نبّهتْ شقيقه الصغير ذا الثمانية أعوام بأنها ستدّعي إنه ابن خالته، مقابل أن تسمح له بمرافقتها مع «جدّته» لرؤيته فوافق، أُوقفتْ على أمتار

من الحاجز ويدها على صدرها، والأخرى تضمّ رأس شقيقه، ويدا أمّها الاثنتين تتشبثْ بذراعها تقوّيها أن تصمد، «فعبد الله» فقدَ بريقه وهزل جسده، مائلا في انحناءة إلى الأمام لا يستقيم طوله، ولم يقل شيئا سوى»جائع يا أمي»، لم تتمالك الصابرة دموعها، فقط أومأتْ له برأسها وخرجتْ تستجدي سجانيه أن يسمحوا لها بإحضار طعاما يحبّه فوعدوها، أخبرتُ أنها باعتْ خاتما لأجل «المبطن» و«الفلفل المحشي» و«البوريك» و«السلطة المشوية» و«الكبدة» نصف شواء كما يحبّ، تنتظر الصباح ليشبع «عبد الله»، وفي الصباح استلموا الوليمة، وسلّموها فجيعة إعدامه!

. ياا ربي ألهذا الحد؟

. لم أشهد اعدامه، ولم أعترضْ ولم أغضبْ، كنتُ حاقدا فاقدا شريدا مظلوما خاسرا مُحبطا كارها فارغا من كل قيمة إلا الغلّ، حتى ليلة شبيه خالد! كرهتُ نفسي و«داعش» مثلما تقيأتُ «القصر» و«العاصمة» و«فبراير» و«سبتمبر» والترابَ الذي نقفُ عليه لولا مَن توارى فيه.

بعدها كافئوني بعروس.

عندما دخلتُ عليها الغرفة، كانت مجرد ملامح أنثى، شيئا يخفق ويرتعش، صفراء، مقرورة العينين، نحيلة دون معيب، فستانها القصير يكشف عن جمال ساقين لم أرَ مثلهما في حياتي لو جاز لي ادعائي بحياة، لكنّها مكسورة وشوارع الحرمان تكسو وجهها، جلستُ قربها أنظر إليها، رغم كل هذا الجمال لم تثرْ فيّ إلا الشفقة، وكنتُ أشفق على نفسي مما أنا فيه،

قربها جلستُ، فبدأتْ ترتعدْ، ابتعدتُ، وطمأنتُها ألا تخاف فلن أفعل لها شيئاً وليس بوسعي ذلك، كنتُ مثقلاً بفقدان زوجتي وطفلي وطعن الشاب، مثقلا حدّ الانتحار، كنتُ مخنوقاً بالخجل والحقد من شريط العار وهو يعرض ذلك الدّاعشي يستمتع بصلب شبيه «خالد» الشاب البريء الذي ذبحوه، كان مرتخي العنق، يتدلى رأسه إلى الأسفل، غطى شعره المستقيم شديد السواد وجهه المضيء، وُثّقَ مصلوب الذراعين والساقين يوما كاملا،على حاملة معدنية كبيرة وسط جزيرة «الزعفران»، وعلقوا أعلى الحاملة لافتة كُتِبَ عليها (جاسوس فجر ليبيا)، آه يا «فضل»، وذلك الداعشي السوداني يلوك عودَ السواك، تدقّ قبضته مقدمة سيارة رجل قافلا إلى بيته، ويتقدم منه بكل ثقة واستهتار طالبا هويته ليأذن له بالعبور إلى «القصر»! وذاك ينهب البيوت والمزارع ويذبح الماشية، ويقتحم البنوك، لكن الذي لن أغفره، نهره بسوطه فتيات الثانوية أمامي، منتقداً زيهن الإسلامي الناقص، وهو يغتصبُ المجلوبات القُصّر، كل شيء إلا النساء، كيف بلعتُ ذلك! كيف؟

– أنتَ أصيل يا «صالح»، الظروف نصبتْ لك شراكها..

– لم أحتملْ، وكفرتُ بالربيع وأنا أكتشف في تعاقبنا على مواقع الحرب أنّ الوجبات لدينا أتباع «داعش» هي نفسها وجبات مسلحي فبراير؟ فمن الممول؟ وعفتُ نفسي وأنا أرى الشباب من شرق وغرب وجنوب «القصر»، يحملون أنفاسهم مستميتين لتتنفس «القصر»، عندما رأيتهم يقتحمون خنادق الدواعش وصفوفهم التي قد تنفجر في أية لحظة، وشهدتُ على قوافل جنائزهم وأعضاءهم المبتورة لتقف «القصر»، استحيتُ، لكن الوضع مُربك يا صديقي!

لأجل ماذا؟ ولأجل مَن نموت؟ ألأجل مدن من الإسمنت؟! قررتُ مغادرة الجميع.

نعم. خجلٌ أنا حدّ العار يا صديقي، من طعن ذلك الشاب الذي لا أعرف له ذنباً ولا اسماً، فقط أعلم أني ثكلتُ به أمه.

قلتُ لها: لن أقربك، فقط أخبريني كيف جئتِ؟ ولِمَ؟ لكنها ردتْ مرتعبة بخطورة ذلك فوعدتها بالكتمان، تنهدت، ونظرت في عيني تستجدي أمناً، ثم وضعتْ يدها على شفتيها كما لو كانت ستنتزع منهما الكلمات وبنبرات متقطعة.. مجهدة تروي:

– أعيش مع أسرتي في بلدي تونس، أنا جامعية، تعرّفت على شاب رائع من تنظيمكم هذا، وأقنعني بجهاد النكاح، كنت أريد أن أكفر عن حياتي المليئة بالسفور والطيش والسهر، وجدتُ في التنظيم وسيلة للتوبة، وتغييراً قد يكون جذرياً لمسار حياتي، وفوق كل ذلك المال الذي سأحصل عليه.

– وأسرتك؟ أتعلم؟

– أخبرتُ والدتي بأني سأكون في زيارة صديقة لمدة ثلاثة أيام، وعندما وصلتُ «صبراته» حيث أول محطة لي في ليبيا، اتصلتُ بها، أخبرتها أني هنا، وألا تقلق علي.

– وهل أنت مرتاحة الآن؟ لا يبدو ذلك.

لم ترد، كانت خائفة وآثار العضّ والكدمات الزرق تنتشر على جسدها، كررتُ السؤال.

– هل وجدتِ هدفك هنا؟

أيضاً لم ترد؟ طرقتْ برأسها، ثم غطتْ وجهها بيديها وصارت تبكي، بينما قهقهات عالية تصلنا من العنابر المجاورة.

الناس أجناس (قلتُ).

– وهل تزوجتها؟ ماذا «صالح»؟ تزوجتها؟

– يتبادلون الأدوار على الفتيات ويسمونه زواجاً. لم أقربها وارتاحت لذلك.

في زيارتي الثالثة وصفتني بالطبيعي. قالت:

رأيتُ العجب، منهم السادي الذي يتلذذ بقهري حتى في المتعة، والمحروم الذي يدميني عضاً، والعاجز الذي لن أخبرك كيف يتصرف، حياة في زمن غير الزمن، وأجواء تفوح منها رائحة ألف ليلة وليلة، استغربُ استمتاع زميلات لي بها، يحملنَ ويَلدنَ، و.. عذرا، نسيتُ أنك مطلع على هذا – قالت – عندما قررتُ المجيء جهزتُ حقيبتي، أوراقي ومعجون أسنان ومسكنات ألم، موانع حمل، أرقام احتاجها، وهاتف يفتقد ميزة تحديد الموقع، وكل ما يلزم لعروس اخترته بعناية من أمكنة خاصة لأتفاجأ بأني متعددة الأزواج! اشتقت أبي، اقتربتْ (ووضعتْ رأسها على صدري).

تخلّلتُ شعرها بأصابعي، دعكتُ فروة رأسها، وربتُّ على جانب عنقها ولم أقربها، لا أقوى على الشرب من إناء مُستباح وَلَغَ فيه الجميع، هدّأتُ من روعها وأخبرتُها إن في سوريا الملتحقات بالدواعش يستعبدن المتدربات

الجدد، أنتِ لم تُخبري العضّاضة التي يقتصّن بها ممن تخالف الزي، تغوص في نهد المذنبة حدّ الإغماء. أنتن لا تقلنّ قسوة عن الرجال! العنف لا جنس له، ولا جنسية.

(ألم أقل لك يا «صالح»، أنت لستَ مُعدّاً لتكون متطرفا. كلامك يثبت ذلك. وإذاً؟ بالتأكيد حياتها صعبة أما عذرتها)؟

أخبرتني:

– عشت في مدينتي الساحرة «حلق الوادي» في خليج تونس، تشرف على طريق ماتع يناغي البحيرة التي تفصلها عن العاصمة، ويربطها بالضاحية الجنوبية جسر»رادس»، لو تشاهد منظره وهو يرتفع عن الماء عشرين مترا، ومشدود بكوابل مثبتة ببرجين بعلو خمسة وأربعين مترا، شاطئها الرائع يمتد حتى شواطيء «قَمّرَتْ» المتنوعة الثراء، مدينتي تتعايش فيها الأديان بتسامح، تنتشر فيها الكنائس اليهودية والمسيحية والمساجد.

– وكيف تركتِ كل هذا؟ عما ستكفرين؟

– بعض الأسئلة لا نجد لها إجابة، هذه منها.

– لا أؤمن بذلك، وماذا عن بيتكم؟

– بيتنا مثل كل البيوت، جدرانٌ تداري عورات، صمتٌ يواري صخبا، ثلج قلبه بركان، أجساد تحت سقف واحد أنفاسنا خارجه!

أمي عملية وقوية، موظفة في روضة أطفال، صارمة لكنها مزاجية تبدأ يومها بقهوة وسيجارة، تصبّ جام لعنتها على والدي العاطل عن العمل، إلا

ما يجود به عليه «حلق الوادي» المترف بأنواع السمك، يسهر حتى الفجر ما يجعله في عداوة مع الصباح الذي يقهره بالنوم لتصفه أمي بالعاهة، وهي القادمة من الروضة الغيداء التي تعرّفتْ فيها على أولياء الأمور الميسورين، ذوي القيافة العالية والكلمات المهذبة والذوق الرفيع في التعامل مع معلمي أطفالهم، يصحو والدي، ليتقيأ زفيره على الوجه الذي يقابله في مرآة الحمام، فالصيد الحرفة العمود بالمدينة، فَقَدَ سُوقَه المهرجاني الكبير (يوم الحوت) بعد 2011، لن أنسى كيف كان يُغلق فيه شارع «روزفلت» ليُخصص للمشاة، وضفتاه لموائد مطاعمه لشهر كامل تسهر حتى الفجر تستقبل حوالي ثلاثمائة ألف زائر، لو زرتها ستبتسمُ لك سمكاتها البرونزيات الثلاث شعارها وسط المدينة. ماذا أخبرك يا صاحب الاسم المستعار؟ أيها الشبيه!

انتقلتُ للدراسة بجامعة العاصمة، وأقمتُ بسكن الطالبات بالمدينة الجامعية طرف «حي المنار»، انفلتُّ من سطوة أمي ورقابتها وتنفستُ الحرية ومارستُ كل جنوني، ذقتُ حلاوة قرارك لك وحدك، عرفت أن الحياة وجهات نظر لا تنتهي، وبعضها لا يلتقي، لكنها كما الأديان تتصالح وتتعايش، والتقتْ نظرتي مع نظرة زميلي «حاتم»، أقنعني أن لأهلنا حياتهم ولنا حياتنا، وأننا لن نحتمل وعظهم ووعظ الحكومة ووعظ الإسلاميين وترشيد التنويرين، فلندعهم لتفكيرهم، ولنمارس تفكيرنا الذي لن نحكم على صوابه إلا بالتجربة.

عندما أخذني أول مرة إلى ملهى في «قَمّرتْ»، لم استوعب أنني في تونس رغم سحر تونس، كان أحد الفيلات في حي سياحي، مساراته ترتفع وتنخفض وسط أشجار الياسمين والدفلة، والسكينة والبحر والخضرة، كان

أحد الفيلات في الحي الباهر، شبكَ خصري بذراعه وصعد بي الطابق الثاني، قلبي يخفق بشدة ويدي تقبض بقوة من شدة خوفي بظهر قميصه، صالة ومجالس مرفهة ومحدودة، ولا رواد إلا فتاة وشاب في حالة سكر ظاهر يتخذان الزاوية عالماً، يقربّ الكأس من شفتيها ونظراتها ليست هنا، قلت له هيا نعود «حاتم»، أخرجني أرجوك.

حاول تهدئتي وردّ أن هذا المكان رفيع جدا، وسنحتسي عصيرا طازجا ونحلم فقط.

والقصة المستهلكة في كل فيلم، صارتْ عادة، وفي كل مرة تبُعد المرة الأولى، تعلمتُ أن العادة تصبح حقا مكتسبا وثقافة بالتقادم، وما كان عيبا يصير مقبولا، وما كان حراما يصير فيه قولان، مثل ما نحن فيه الآن، جئتُ أكفّر عن ذنبي فتساوتْ عندي الذنوب. أين الصواب أيها الشبيه؟ أين الحقيقة؟

حينها اختلط صوت الآذان، مع قهقهات في مخادع قريبة!

لم أستطع مساعدتها بقيتْ غُصّة، كانت «القصر» محكومة من جنسيات مختلطة تم جلبها، ليبيون، أفغان على مصريين وتونسيين ومغاربة وسوريين وجنسيات أفريقية، من كل جنس كانت «داعش» في «القصر».

– وماذا بعد؟ بالتأكيد هربتَ منهم؟ من الدواعش؟

– نعم هربتُ مع إن فرصتي بصفّهم كانت مواتية في الانتقام مِمّن اتهموني بحمل العلم الأخضر، من أنصار «فبراير» الذين اعتقلوني وحرموني دخول «القصر».

. انتقام؟ بصلب الشباب، وثكل الأمهات وتدمير «القصر»! أي هراء!

. ولذا هربتُ، وعقاب الهارب المرتد العودة إليهم أم القتل، بل في سوريا كان خلفنا في المعركة متخصصون لهذا الغرض، قتل كل من يتخاذل أو يحاول الهرب.

– إذاً ابقَ هنا «صالح»، هنا أكثر أمناً.

– هه.. لم يعد لي مأمن، أنا مطلوب من الجميع، صرتُ المطلوب المشتبه به في قوائم كل الأطراف المتناحرة، بدءاً من أنصار «سبتمبر»، إلى أنصار «فبراير»، والآن من «داعش»... فإلى أين سأهرب! وهم كل الوطن! سأظل شريداً يا «فضل»، سأغادر، أوصيك بـ«لمياء» وعائلة «جبر» وقد تحدثتُ بشأنه مع صديق، ربما يعود قريباً، أثق بك «فضل» وأعتمد عليك، وقفَ بالبهو، طلب «لمياء» عانقها، عصرها مطولاً.

سأتصل للاطمئنان عليكم كل فرصة، ضمّني وبكى، ولم ينطق وغادر. غادر الشريدُ الضاحية، لكنني أجزم أنها لن تغادره.

يا «لصالح»! لم يغفر له نظام «القذافي» رغم اتهامه برفع رايته واعتراضه على التدخل الأجنبي! ولم يغفر له «الفبرايريون» رغم سجنه بمعتقلات القذافي، وتلاحقه «داعش» رغم انضمامه إليها منذ 2011. أية لعنة!

* * * * *

– 3 –

تمنيتُ أن أضمُّها، أن أضع رأسها على صدري يرتاح، أن أمتص من جسدها وقلبها كل هذا الشقاء والحزن، أن أمرّر سبابتي أرسم على وجهها محطات «الحي 2» أن أنفخ أنفاسي فيها وهي راضية مستسلمة.

وما أبعد ذلك، ما أبعدني عن «لمياء» القريبة مني، تنبض في قلبي حلماً ونشوى، ولا تفصلني عنها الآن سوى خطوة، فهل تفكر في ذلك وهي تسرح بعينيها الدامعتين إثر رحيل «صالح»، لم أخبرها أنه كان في «داعش» وأنه تاب ولن تقبل توبته، وهو مطارد من الجميع.

بلعت غصّة «صالح» لأخفف عنها، اقتربتُ منها لتصبح الخطوة نصف خطوة، فتراجعت خطوتين، كأنها جادة وتعي ما قالته لي. أخبرتها أني لستُ غولة، وتحججتْ بأن مزاجها سييء، وأصريتُ إعلام «نصر» بعد شفاء «جبر»، فدعتْ الله متلهفة أن يسرّع الله ذلك، فشاكستها:

– كل هذا لهفة على الزواج؟ – ممازحا –

– أووووف منك، لم أقصد، توقف عن هذا المزاح.

– دعينا نتزوج وسأريك المزاح على أصوله، صارتْ ردودك تحيرني، عموما وعدني صديق بعودته في أية لحظة.

– حقاً؟ بالله؟ ولم تخبرني! أتعلم تأخرت «غزالة»؟ – أنا قلقة – وصل

أخوها تناول غذاءَه ونام وهي لم تحضر بعد.

– لا تتهربي، لن أكذب عليك، أصابني الوسواس من ردة فعلك وبرودك، طمئنيني بكلمة واحدة، أما «غزالة» حسب ما علمتُ منك ضاعفتْ عملها، واستمرأتْ الغياب، فلا تقلقي عليها، هل تصالحتما بشأن (بوشنوارة)؟ هي طيبة.

– سيصل «بوشنوارة»، دفع حق فوزه، تقول أمي «أملأْ البطنْ، تسْتِحِي العينْ»، أما غزالة فلا يغرك صمتها.

وصوت الباب الموارب يشق الصمت، وينبئ عن فتحه بالكامل وها هي «غزالة».

– بادرتُها: كنا في بلبلة لتأخرك، شُغلنا عليك الحمد لله أنك بخير.

– مرحبا شكراً. حدثٌ مثير، وصلتْ المشفى اليوم ثلاث حالات تماثل حالة «جبر» تتقمص ذاكرات ليست لها.

– مفزع، ومنذ أيام سمعتُ بأمر كهذا في المقهى، هذا مُريب ومُرِيك!

– أكدّ رئيس قسم الأعصاب أن هذه هي الحالة السادسة والعشرون خلال شهرين، ويتوقع ارتفاع الرقم لأن من عادة الناس كما يقول الإخفاء والتعتيم على الأمراض النفسية.

– لكنها ظاهرة، لو كانت في الدول المتقدمة لأقامت بشأنها الندوات والدراسات.

– عن نفسي لا أسمح بذلك، منتهى العيب يا «فضل»، والملفتْ أن

كل المرافقين للمرضى يرددون ذات الجملة «خرج من البيت معافى ليعود بذاكرة ليست له، كلهم خرجوا من البيت لفترة ليلة أو أكثر، قد أخذنا الموضوع يا «فضل» استرح أراك واقفاً!

– لا عليك شكراً، فقط جئتُ أطمئنكم أنّ «جبر» ربما يعود قريباً، أنتظر مكالمة بشأنه.

– لا أصدق الحمد لله، لا أعرف كيف أشكرك، حقيقة كل الأصدقاء لم يقصروا يا رب.

لا شك أن «غزالة» ترمي بذلك لـ«بوشنوارة»، الذي أتصلّ بي أكثر من مرة يسأل عنه؟ وعما صرّح به؟ والتوتر يقفز من سماعة الهاتف، وفي كل مرة أجيبه بماذا سيصرح «جبر» وهو ليس هو؟

بين «غزالة» و«لمياء»، وبينهما د.«سميرة» فقدتُ مرونتي على التكيف مع النقائض! ولِمَ المُكابرة؟ متأزم أنا تأزم «لمياء»، حتى إني خفتُ إعلام د.«سميرة» بشعوري نحوها، نحو «لمياء»، متحفظ مع العالمة عما قد يتسرّب منها فجأة إلى أخيها «جبر»، وأتلهف أن تصلني حِكمتها إلى قلب مُعذبتي، فهي أدرى بالطرق إلى النساء، جبنتُ عن اسمها أمام «جبر»، امرأة والسلام، هي زميلتي في العمل همستُ للعالمة وألا تأتِ بسيرتها أمام أهل البيت.

– بتحبْ يا«فضل» وبدّاري؟ لا ألومك احنا كمان لسه بنعتبروا عيب.

– لا والله يا د.«سميرة»، في الحقيقة، وفي الواقع، وبصراحة، وعلى

العموم، هو الموضوع والمشكل والقصد، و...

– الله! ماذا يحدث؟ هو فيه إيه؟ مالك؟ انطق يا «فضل» كل هذا لتقول لي إنك بتحب وانتَ الرجل؟! أمال لو «لمياء» أو زميلتك هي اللي بتشرح حبها كان حيحصل ايه؟

ارتبكتُ فعلا. ثم سحبتُ كل الهواء الموجود في الفناء والغرف والشارع وسأخفي عنها أنها «لمياء» قراري، و:

– هي زميلتي تعجبني أتودّد إليها، ردورها متغيّرة، (بين القبول والابتسامات، والتلميح، وبين لك وحشة، وأنت مثل أخي، وليس كل علاقة هي حب وزواج، ولا عدمتك، ونحن أصدقاء وأهل، ولولا «جبر» لغادرت، ولا تقلق!).

وكلي أمل في حكمتك د.«سميرة» أتأمل المساعدة في فهم كنهها!

– وما علاقتها بـ «جبر» لتغادرك لولاه؟ أليس صديقك؟

– هل ذكرتُ «جبر»؟ ربما عنيتُ آخر، لا تهتمي، كيف أقيّم علاقتنا؟ علاقتي بزميلتي؟

– لا أظنني سأخدمُك في مواضيع الحبّ، فأنا امرأة عملية ومباشرة، ولا أفهم كل هذا الغموض والدوران وتعذيب القلب والطرف الآخر؟ لو أحببتُ فسأكون أسعد وردة على الأرض، سأقول له كل لحظة أحبك، أسمعُ قصصا غريبة لا تصدق، شوف «فضل»: ربما تتمنّع، غُنج أنثوي، الحب لا يمكن مداراته يا أخي. ولا تسء فهمي ربما هي عكس «فتحية»، قدّرتْ أنها أزمة

لرجل مضغوط، فلم تأخذ كلماتك مأخذ الجد؟ أليس هذا رأيك في «جبر» و«فتحية»؟ ربما تنأى بنفسها عن تجربة «فتحية» مع زميلها «جبر»! ماذا جنتْ «فتحية» من لهفتها على صديقك!

– ما هذا الرد الملغوم دكتورة! ليت معذبتي كذلك، ليتها، إنها لا تستقر على حال! بل صارتْ قاسية، كيف تقسو أنثى؟

– جِدْ لها العُذر، عن التغيّر أفصح الشيخ صاحب الخصلة:

نحن لا نعرف إن كانت الشمس تبتسم دفئا أم تشتعل غضبا وقد تحرقنا في أيّة لحظة، ولا نعلم أنّ الغيث النافع قد ينقلب سيلاً بعد أي رَعد! البحر يضحك بعد كل مخاتلة، الأرض تجْذَل ثم تأْسَى بعد كل ريح، الشجرة تَحْفل وتَغْتمّ تُرضي الفَصل، كله فوق مكانٍ ووسط زمَنٍ. فيتقلّب حالهما كما الشأن! أعني الزمن والمكان.

أقول «فضل»، الحبُّ حاجة ونحن نقتفي أثرها، والأثر متحرك كالظل. أكان الأثر لولا الحركة! أكان الغياب! الأثر يخبرنا.. (كان هنا).

لم أفهم جملتها الأخيرة، د.«سميرة» هي الأخرى طالها التغيير، طبعَ بوحُ الشيخ الضبابة بصمته على تعابيرها، لم أجهدْ عقلي في ميتافيزيقا حديثها عن شيخها، كيف وهي روح ميتة!

* * * * *

- 4 -

وعودة إلى مذكرات د.«سميرة»:

ما النظرة التي تليق بمذكرات عالمة الذرة، أهي كنز عادتْ به لنا بعد أكثر من خمسة وستين عاماً لننهل ونذخر؟

مذكرة (3)

كتبتْ:

ما حاجتي به وأنتَ كُلّي، يَجرفُني سَيلُ مِدادك الضّاوي في لحنك اللامتناه، أرى من خلال عينيك لُجَّة اليقين، وأسيرُ على هَدي نفحاتِك فوق فُرات ترانيمك، أطوفُ على جناح سَناكَ في مداراتِ ملكوتِك، واسجدُ عند باب مِحرابك المهيب، طهّرني من سرابيلَ الطين المثْقلَة بِغلِّ الخطيئة، وارفعني إليك.

سميرة موسى / ليبيا/ 2017

لا شك أن هذه الخاطرة تحت تأثير شيخها الغريب.

وفي خاطرة تبوح:

مذكرة (4)

وجدتني هنا بلا زمن، كمن صحا من هَجْعَة من إغماءة، كمن أُسريَ

به مخدراً من مكان إلى آخر، وكلما لجأت إلى النوم داهمتني جموع الديدان في كابوس مخيف حدّ الرعب. صغيرة تلتوي متزاحمة ومتراصة تتكوم فوق بعضها في امتداد لا ينتهي، وقادمة من كل صوب، من كل علو ومنخفض، تزحف نحوي، ومشلولة أنا عن الحراك، تصل كل أعضائي في نفس الوقت، تنخر باطن قدمي، تفلي فروة رأسي تخترقها لتعتلي عيني ووجهي وأذني لتتوغل داخل أنفي وكل جسمي، بين تنميل ودغدغة ووخز ودبيب يخترق طبلتي، وتغادر في مجموعات تحمل أطرافي وتُدحرِج جمجمتي، قلبي فقط يقاوم، يمتنع، يهتز، وشعور بالسقوط، أتشنج ثم أذوب فأختنق لأنتقض أنشدُ رشفة هواء، وأمامي «غزالة» منتصبة: ما بك حبيبي؟ ما بك «جبر»؟ أيقنتُ أن «غزالة» ليست سوّية وبدأت أشفق عليها، فجلّ ما تفكر فيه امرأة بسيطة مثلها أن تقترن برجل تختزل فيه كل طموحها وحياتها. وعندما أحدثها عن ماهية العلوم وفائدتها، وعن انشطار الذرة وقيمتها تسألني كحكيمة، «وهل تفيد هذه العلوم في استعادة ذاكرة محتلة؟»

لم أفهم ماذا تعني البسيطة بسؤالها الغريب.

سميرة موسى/ ليبيا/ 2017

مذكرة (5):

«كان الموقف الأشد تعقيدا، اندفعت «غزالة» مضطربة، وصكّتْ باب الغرفة على وجهه بقوة، وأسندتْ ظهرها عليه وأخذتْ تحملق فيّ،

وتنظر إليّ بثورة وحنق وشغف ووله، وأنا عاجزة عن اتخاذ قرار مستسلمة للخطوة القادمة! قذفتْ بنفسها نحوي، وتعلقتْ برقبتي، فدفعتها بكل عنفواني وصرختُ.. مجنونة! صارت تنتحب وتشهق، وبعبرة: تربح يا «جبر» الله يخليك، سأرضخ لك، سأعتبرك امرأة، كن ما تريد، فقط دعني أناديك «جبر»، اسمح لي أخبرك لدي الكثير، غرستُ سبابتي في صدري وبتحدٍ: أنا «سميرة»، أنا «سميرة»، ما ذنبي أكابدُ شكل زوجك؟ اختفى نهداي وابتُليتُ بزوائد ذكورية! أنا في محنة أكثر منك، قد تجدين زوجك، لكن أين سأجدني؟ مَن سيعالج جسدي المشوه؟ بإمكانك العيش بدونه أو مع غيره، أما أنا فالحالة الصعبة، أفوق مصيبتي عليّ بترهاتك؟ «غزالة» لم تيأس، توسلتْ إليّ أن أُعينَها، قالت سأجاملكَ بأنكَ «سميرة»، بس تربحك «جبر»، أعني تربحك «سميرة»، خلّيني أناديك «جبر»، أنتِ سرقتِ زوجي، زوجي كان والدي الذي لم أره، ألستِ حكيمة وعالمة وتتعاطفين مع المساكين؟ ماشي، أنا مجنونه ومريضة وفاقدة زوجي اللي انتِ فيه، دعيه يسمعني لمرة واحدة، دعيني أتحسس وجهه الذي خبر كل مسام جسدي، رائحته التي اختلطتْ بأنفاسي، سأقسم لك بسيدي الشيخ «الصالح» وأبصم لك بأصابعي العشرين وأقطع لك وريدي، وأختم لك بدمه أنك «سميرة» القادمة من أمريكا.

وتابعتْ النحيب بعبرة، شعرتُ بالعجز والشفقة تجاهها، تجاه «غزالة»، ترجيتها أن تهدأ، فضفضي فقط لا تكوني شاذة، ارتعدتْ وابتسمتْ ودعكتْ بقفا سبابتها أنفها المبتل، ثم تشبثتْ بيديّ ودنتْ

بوجهها مني: وهل ستسامحني يا «جبر»؟ أقسم لك أنا فقط أردتُ أن أسدد إيجار بيتنا، فقط لأجل دواء الدهوش لأمي، بس كراسات «لحسن»، بس يا «جبر»، وثمن المُهدي الذي أحقنك إياه غالٍ يا «جبر»، كنتُ أسرقه من المشفى قبل أن ينفد منها، لأجل هذا أستمريتُ بدلا عنك بتوزيع ذاك حتى تشفى، يسألني عن الصندوق، أنتَ لم تخبرني أين خبأته! طلب مني استقبال ضيوفه في مزرعة قريبة، قال لن يتعدى دوري توزيع الكؤوس، لكنه طلب أكثر، أعدك أن أنتقم منه يا «جبر»، فهل ستسامحني؟ هو ابتلاء من الله، ولأن الله إذا أحبّ عبدا ابتلاه، عرفتُ أن الله يحبني مُذْ كانت خلخلة مزلاج باب زنزانة أمي أول آذان يوقظني، ورنات جرادل الماء الحديدية في ممرات سجن «الجديدة» أول سيمفونية موسيقية أسمعها وأنا في عتمة أحشائها، وهي تنحني لدلق الماء في الممر ودفعه لدورات المياه، لم أعلم بأن أعظم ابتلاء وأقساه، ستكون أنت يا «جبر»، ليبيُّ الأزمة، وشريد، ومقسوم، ومشوه! ليتك تلبّستَ رجلا لاختلف حالي، ما علينا، بس أنا مليانه بالكلام وفرحانة انك تسمعني، (كانت حركات يديها وهي تتحدث إليّ أشبه بعصي الفلاحين وهي تعلو وتهوي على ظهر القطن، وكلماتها كصفير ريح موحشة في خلاء، كنعيق، كرثاء، كما لا أعرف، وكنتُ أبتعد وأقترب منها في أرجوحة هواء لا إرادية، وهي تعترف أو تهذي أو لا أصدق!)، فرحانة وسعيدة أنك تسمعني يا «جبر»، هل أريكَ قميص نومي الجديد؟ أول مرة لونه أزرق لأجلك؟ نفضتُ رأسي وأجبتها بسرعة وأنا أقاوم التقيؤ

وأبعدها بيدي: لا لا. يكفي يا «غزالة» أرجوك يكفي اليوم، أنا مُجهدة، مُجهدة جدا، من فضلك هاتي المهدي، نادي «لمياء»، كنتُ في مرثية في نكبة، لم أسطع رفع صوتي، تماما كما يحدث عندما يجثم كابوس مخيف على صدرك وأنت تحلم بأن وحشا عملاقا سيفترسك، أصرخ داخلي بصوت مبحوح «لمياء» «لمياء» كانت «غزالة» كمنتصرة تقهقه بهستيريا«.

«سميرة موسى» ليبيا 2017م.

يا إلهي! ممن ستنتقم «غزالة»؟ ومتى حدث ذلك وكيف لم تخبرني العالمة؟ لا لا «غزالة» لم تفعل، «غزالة» تتمنى بل تتوقع ربما تخشى أن يحدث ذلك، ربما تستفز زوجها ليصحو! «غزالة» حييّة وهادئة وبسيطة ولا تُظهر إلا وجهها وكفيها.

* * * * *

«هل تُفِيدُ العُلوم فِي اسْتعَادة ذَاكِرة مُحْتَلّة؟»

* * * * * *

- 1 -

وفي كل يوم نصبح على ما لا يحسب له... وبِلُغة إعلاميّة

صخبٌ في الشارع المصري، وضجةٌ إعلامية عالية المستوى احتلتْ الصحف الكبرى، ومطالبة بعودة د.«سميرة» العقل، إلى «مصر»، يبدو أنّ المخابرات المصرية حسمتْ حقيقة ذاكرتها، فورة إعلامية وشعبية مصرية، على خلفية استدعاء السفراء الليبيين الثلاثة في «مصر»، من قبل الخارجية المصرية وتلقيهم مذكرة بالخصوص، مفادها إن «مصر» تحتج على احتجاز ذاكرة عالمة الذرة المصرية في ضاحية ليبية، واعتبارها كنزاً علمياً يخصّ «مصر» وحدها، ويجب أن يبقى بها قرب رفاته المدفون فيها منذ الـ1952م، ووجودها في جسد شاب ليبي ليس مبرراً لبقائها هناك، فليبيا في هذه الظروف المأساوية والمنفلتة غير مؤهلة لسلامتها.

فسّرتُ هذا التصعيد بنقل «جبر» إلى العاصمة، ونشاط مصري استخباراتي لوجستي فيها مكّن من تحرّي المعلومة وطيرانها إلى دولة العالمة المصرية سريعاً.

طوابير الشارع الليبي لم تُلقِ بالاً للأمر، الذي لن يحلحل أزماتها وهي مشغولة عنه بضرورات حياتية أشد ضرورة.

أما على الصعيد الرسمي فقد صار «جبر» الشغل الشاغل حتى بتُّ

أخشى أن يؤثر ذلك سلباً على عودته.

القنوات الإعلامية للحكومات الثلاث تتنافس في إبراز صورة «جبر»، لا أعرف كيف أخذت له هذه الصورة بابتسامة منتزعة، وهو محتجز قيد التحقيق، وكدمة زرقاء تغطي عينه اليسرى، لم تفلح مموهات الجلد في توريتها، ولا أعرف كيف سُربت له هذه الصورة الوحيدة، المنتشرة على كل القنوات وصفحات التواصل.

كون الحكومات الثلاث تبنّت موضوع الدفاع عن «جبر»، هذا يعني أن «جبر» ليس تحت سلطة أي منها، وأنه في قبضة خارجة عنها جميعاً، فوجود «جبر» تحت سلطة حكومة منها، يعني استفرادها بتبني الموضوع وشرط شروطها، أما هذه الصورة الوحيدة والمبهمة وللجميع تعني ربما محاولة كل حكومة أو تفاؤلها، بأن يكون «جبر» من نصيبها لو نجحتْ في إقناع المليشية القابضة عليه وشرائه منها.

بيد أن الشروط المسربة من الحكومات الثلاث، تنم عن اتساع الهوة الإيدلوجية بينها، واتفاقها على استغلال الموقف وبيع الذمم.

صفحة الحكومة الداعمة للبرلمان، فضحتْ حكومة رئاسي العاصمة بأن الأخيرة طلبتْ من «مصر»، تسليمها مقابل «جبر»، رأساً كبيراً من رؤوس أنصار القذافي في مصر، في حين صفحة التواصل الداعمة لحكومة الرئاسي بالعاصمة، كشفت عن نية حكومة البرلمان تسليمه مقابل مائتين وخمسين مليون يورو.

أما «صحيفة ليبيا«فقالتْ إن الحكومة الثالثة، طالبتْ بشخصية إسلامية معتقلة لدى مصر، متهمة بقلقلة الأمن المصري وتهديده، وذلك مقابل وصول «جبر» إلى القاهرة، لكن الندوات التي ما فتئت تُدار من قبل القنوات الليبية، منذ تصريح الخارجية المصرية، جميعها تؤكد على هوية «جبر» الليبية، واستماتتها على بقائه في أرضه، وأرض أجداده وأحفاده، ليبيا.

فمن سنصدق؟ ما أصدّقه أنا هو أن هذا الأمر وهذه الربكة ستؤثر حتماً على عودة «جبر» إلى أسرته.

وفي كل مرة أتصل «بصالح» لأنقل إليه التفاصيل، ترد عليّ الأسطوانة (هذا الرقم غير مستعمل) متناسياً أنه أسرّ لي بضرورة تغيير رقمه بعد كل اتصال.

* * * * *

– 2 –

هي رهن التحقيق ومذكراتها رهن القراءة.

مذكرة (6)

تحققتْ صداقة وألفة بيني وبينها لم أدركْ سرّها ربّما حُنوّها عليّ واعتراضها للكلب يوم وصلتُ مجلسها أرتعدُ خوفا، «زندبيل»، الفيلة الهادئة والرصينة ومحبوبة الجميع، وحكيمة الغابة بقرار من الملك «الأسد»، تُحرّك خرطومها بهدوء لتتحدث بهدوء، وتصدر أحكامها بتؤدة أيضا، كل ما فيها مُرتخٍ ومُسترخٍ حتى جفنيها وأذنيها وعضلاتها، أسرّتْ لي أنّها لم ترحبْ بفوز «الأخطبوط»، وهذا لا يعني أنها تمنّت لو كانت مكانه. بعد يومين على فوزه، ألقتْ خطابا في الساحة الكبيرة، وأرسلتْ منه صورة للملك كانت شفوية بالطبع.

خطاب «زَنْدَبيل»

أيتها القطعان المُتَحابّة، نُهنيء معاً السيد «الأخطبوط» الذي فاز بالحكومة في جوٍّ ديمقراطي، ديمقراطية أعطتْه الحق في التمتّع بالترشّح الذي ضَمنته له لوائحُنا التي نلتزم بها، فهو ينتمي إلى مملكتنا الحيوانية التي لا تفرق هنا بين «فقري» و«لا فقري»، بين كبير يسير بثقة على الأرض لثمانين عاما، وبين ضئيل يعيش في قيعان المياه دورة عامين،

ديمقراطية أكّدتها نتائج الانتخابات.

أيتها القطعان المُتحابة، سيحكمكِ السيد «الأخطبوط» من بُعد، فحافظي على استقرارك وأنتِ القريبة من أرضكِ، ساعديه في ذلك، السماء لا تحتفي بالكسالى والأغبياء، الغابة لنا، أشجارها هي سقفنا وغذاؤنا، ظلنا وسدّ حمايتنا، كل هذه الثمار الشهية لكم، تناولوا حاجتكم، بيئة نظيفة متجددة التهوية تليقُ بكم، عضلاتكم لبناء كهوفكم وحماية صغاركم ليست لاستعباد بعضكم، هللوا للمطر، اغتسلوا تحته وقيعانه احفظوا.

أيتها القطعان المتحابة.. الحياةُ عِنَاق، وأنتم هنا. (وأشارتْ بخرطومِها نحو صدرها).

بعد هذا الخطاب المكتظ بالود الخَالي من الوعظ المُمِل، لم تخرجْ «زَنْدَبيل»، ولم تتحدثْ، لَزِمتْ مجلسَها، وتراجعتْ حالتها، وأصابها الوهن، قيلَ أنّها علاماتُ هَرم، وقيل أنّ المَلِك فرضَ عليها إقامة جبرية بعد خطابها الملغوم كما وصفه له واشٍ حقود، أو عاذلٌ كاره؟ وقيلَ وقيلْ. كل ليلة ترسل لي نِمْرين لاصطحابي إليها، أواسيها وأتمسّح رأسَها وأقبّلُ جَفْنيها، كل ليلة تحكي لي تجاربها الغنية، وكل ليلة أهمسُ لها أنتِ بطلة فتدمع عيناها.

لم تُخفِ شكّها بي في نيّة الهرب إلى قطيعي، لا تعلم أنني قطعةٌ مِن هَرَمٍ بعيدٍ أتلمّس طريقه، وشوشتني عندما يصيرُ المَحَاق استتري

بالليل وجلدكِ، وتلك النجمة وجهتكِ، ممر سروٍ ضيق وطويل تتبّعي يمينه حتى «يقْطِينة» ستكون قرعة ماء والسَّحْرُ إبْلاجا، اغتسلي واشربي ثلاثا، فقط ثلاثا وسيري، دربٌ مستوٍ حتى فَلاة صخرية لا تصعُب على «عنز» مثلك، انعطفي يمينا ومسير يوم وليلة حتى نهرٍ وضباب، لا تخشِ الضباب ستنامين ويقودك، التصقتُ بخرطومها، بكيتُ وفرحتُ وخفتُ، استجبتُ وامتنعتُ ولِنْتُ، قلتُ مستحيل اتركك، قلتُ ستكونين بخير سأعود لك أفضل هيئةً، وانطعتُ، نجمة ويقطينة وقَرعة ماء وثلاث فقط.. وضباب واغفاءة وذاك الفضاء الاسطواني يعوم فوق الماء، وهزّة وارتطام بأجسام هلامية لأجدني بزوائد ذكورية في ضاحية ليبية. مَن يُخْبر «زَنْدَبيل»؟

مذكرة (7)

لا أعرف لمن أكتب!

ولِمَ هذه التأملات العقيمة!

ولستُ أنا سوى بعضٍ من أنا ومركّب من أنّات لمْ ولن أستوعب أنني ميتة.

سأكتب وأنا أعلم إن الكتابة كعيني بحر، تستدرجني لتغرق، سأكتب، ربما لأنني لا أملك غير الكتابة، ربما لأن الكتابة حياة أخرى، ربما لأن ما أمامي وما أنا فيه مدهش حدّ الكذب، أي تأزم هذا؟ كيف تقنع من يراك ميتاً أنك حي؟ كيف تتقبل أن يقيّمك جاهل! أن يتفحصك

سقيم! الحياة عنده خبزٌ وسرير، ومعلوماتٌ جاهزة تُحقن من علوٍ مجهول المصدر والنوايا، أمة تقتات على الجاهز، كل شيء فيها معلب، الحليب والطماطم ونظريات السياسة وتربية الأطفال، أمة تعادي الابتكار!

يالها من ضاحية عجيبة! هوّة سحيقة بين الواقع والواقع المَعِيش لمْ أجد له تفسيراً، في المشفى تسمّرت أمام قسم الأشعة عالي التقنية، أما قسم الحمض النووي والبصمة الوراثية للكشف على هوية رقود المقابر الجماعية فهو شأن آخر! هوةٌ عمّقها ذلك الحادث المروري المريع، لعائلة كاملة بينها أطفال حتى إن عدد حمالات الإسعاف النقالة لم تفِ بالعدد، إحدى القريبات صراخها يهز ممرات المشفى، وهي تجري بين عربات النقل المدفوعة، الدماء والأعضاء الممزقة والوجوه التي غزاها لون الموت، طفلان على عربة واحدة، هل هو صمت غيبوبة أم مغادرة؟ وسيدة تهز رأسها تتأوه ألماً وعيناها لا تستقران بمكان ولا مكان، ستروها بلحاف مغسول بالدم، قالوا أن حروقها شديدة، التهمتها النار بالسيارة إثر تفجر جالوني البنزين المصاحبين لهم، فمحطات الوقود حتى العاصمة خالية من الوقود، توزعتْ الحالات بين أقسام الأشعة والعناية ومختبر التحاليل، تعذر التصوير المقطعي، لعطل بالجهاز، كم تأسفتُ على هذا الإنجاز الضخم، بينما يناول الطبيب وصفات العلاج والمسكنات لذوي الحالات لشرائها من الصيدليات الخاصة، صرّح أن حالة المرأة تستدعي نقلاً سريعاً لمشفى الحروق بالعاصمة، صاح قريبها المسلح في وجهه (شوف شغلك)، كيف ننقلها والمطار معطل منذ ثلاثة أعوام؟ الطبيب

حبس نظره في وصفةٍ يكتبها، اندسّ فيها متجنباً رصاصة في رأسه. هذا ما همس لي به «فضل» الذي قال أنّ المطار تحت نفوذ مسلحين يرفضون تشغيله، ويهددون سلامة الطيران والركاب لو تم تجاهل رغبتهم. هوة سحيقة بين العلم والتطور وبين اختلال العقل هنا!

د.«سميرة موسى» ليبيا. 2017

ما إن طويتُ هذه القراءة حتى تساءلت ماذا ستكتب د.«سميرة» بعد الاعتقال؟ كيف وهي لم تعتقل ولم تعذب ولم تهُن قالت ما قالت؟!

* * * * * *

– 3 –

أنتَ مراقب «فضل» هل أنت بالشقة؟

– نعم !!؟؟ ماذا تعني يا «صالح»؟

– حاول أن تنظر من نافذتك على الشارع دون أن تقترب منها كثيراً، طالع السيارة التي تبيع الخضر، وتقف في زاوية الشارع المقابل والمتفرع من شارعكم إنها تراقبك، الحقيقة هي مكلفة بمراقبتك من أجلي، يتوقعون أن أزورك، لا تخف لن أفعل (وضحك)، لن أفعل، ليس من أجلك ولكن من أجلي، وفي جميع الأحوال عليك مراقبتهم والانتباه لنفسك.

– نعم؟ ماذا؟ ماذا تقول؟ هذه هنا منذ أيام، من قبل أن تغادرنا أنت! وأعرف البائع شاب بائس.

– نعم كانت في أول الشارع تراقب غيرك.

– أرجوك، لا تأتِ «صالح» ما دام خطراً عليك.

– ولن أفعل، الآن لدي عمل مهم، أنه «جبر»، لا تستعمل الرقم، أنا من يتصل بك.

– «صالح»؟ انتظرْ، قل ما به «جبر»؟

– بخير، لكن تركيزه زاد سوءً. (وأقفل الخط).

الحقيقة على أن أعيد ما قاله! أن أحاول التركيز فقد كنت مشدوها بسيارة الخضار التي تتجسس علي، أيعقل؟ حتى سيارات الخضار صارت كميناً، وأنا أمرّ عليها وأتعاطف مع ذلك الشاب التعس الذي تصهره الشمس، عيناه الغائرتان، وممرات شقاء طويلة مرسومة على جبينه الصغير، يفرك لي بكفّيه المتشققتين حبات البطاطا قبل أن يزنها، وينفض أوراق الخس وعيدان الشبت من مائها قبل أن يضعها لي في جواء النايلون الشفاف، وأنا متكئ بكلتا ذراعي على حافة صندوق السيارة حتى إبطيّ، وأدعو له أن يفرج الله كربه ويهبه مزرعة خاصة به، بعد أن أخبرني أنه يشتري الخضار من سوق الجملة ليبيعها هنا وأنه يعول أسرته بعد تركه دراسته الثانوية فأخوته صغار ووالده قضى عطشا بحثاً عن الذهب في جبال على الحدود جنوب ليبيا، لم أكن أعرف أنه يقبض ثمن وقوفه ومراقبته لي.

ولم يظهر ما يشير لاهتمامه بي وهو يثني قصته، ولم يسألني حتى عن اسمي! أدركتُ الآن سرّ تشبثه بمساعدتي في حمل الخضار حتى باب الشقة وأنا أرجوه ألا يتعب نفسه فالحمل خفيف مستغرباً عمله، فنحن لا نعرف هذا التقليد في أسواقنا حتى لو أنني شخص مسن لربما، قلت عنه أنه شاب خلوق مختلف ومهذب وقادم من مكان آخر.

اسبوعان على اعتقال «جبر» خنقاني دهرا، عشتها فراغا مهولا، يجرّ الوقت ذيله بطيئاً، بدتْ الشوارع خالية رغم الطوابير التي زادتْ، فقد أُهمل البيت الذي شغلني وأقلقني وآنسني لأكثر من تسعة أشهر، أعتقل «جبر»، فاغتنمت «لمياء» ذلك وسافرت إلى العاصمة لتتابع مستجدات ورشتها،

واستثمرته «غزالة» في العمل الخاص ما سمح لها بالغياب طويلاً عن البيت لتدبر أمورها فيه بحرية أكبر بعيداً عن انتقادات «لمياء» اللاذعة وعن تقييد «جبر» بمرضه ومعاناته، سألتها عن أحوالهم بالهاتف، بصوتها الخفيض، وحديثها البطيء شكرتني وأخبرتني أنها مشغولة دون أن تسألني عن «جبر» فهل يطمئنها عنه «بوشنوارة» الذي تأجلتْ انتخاباته بعد اقتحام عدد من الدوائر الانتخابية بالضاحية، والعبث بمحتوياتها، وتهشيم الحواسيب بالرصاص من قبل مسلحين محتجين على ارتفاع سعر الفلفل الأخضر، الذي وصل إلى عشرة دنانير للكيلو الواحد، مبررين احتجاجهم بأن الفلفل ليس ضرورياً، ولا يستحق أن يرفع سعره، فكيف يساوى بحليب الأطفال الذي لم يتجاوز الاثني عشر ديناراً، ليلتها صُدمتْ د.«سميرة» وأدخلتني في حوار لم يخلُ من منطق عجيب وصائب لجميع الأطراف فكيف يكون ذلك.

– الله! وما دخل المسلحين بالفلفل، وحليب الأطفال! هذا كثير! ده كثير أوي!

– ما دام بيحكموا ضروري يتدخلوا مش كده؟ ثم أنتِ تتحدثين عن وقت يختلف.

– أنت بتتريأ عليّ يا «فضل»! طب مش حكلمك مصري تاني، هو فعلاً إلى متى سيستمر الوضع هكذا؟ ثم كيف يحتجون على رفع سعر الفلفل مقارنة بحليب الأطفال وكأنهم يطالبون برفع سعر الحليب زد أنهم عطلوا الانتخابات وكلفوا الدولة خسائر كبيرة، كيف سيعاقبون وهم من يحكم؟

– أبدا، حلو نطقك للقاف همزة (بتترياً)، لكن أليس هذا منطقياً دكتورة؟ فعلاً الفلفل لا يستحق هذا السعر أليس منطقياً.

لم أذهب بتفكيري إلى ما ذهبتْ إليه، وكأنها تستقرئ الأفكار! في اليوم التالي أصبحتْ الضاحية على ارتفاع سعر حليب الأطفال الرضع إلى خمسة وعشرين ديناراً في سابقة خطيرة! لم يحتج أحد على ذلك، لتثور الثائرة وتصدمني:

– أهذا المنطق الذي تتحدث عنه سيد «فضل»؟ الدور الآن على أهل الضاحية، عليهم أن يخرجوا بكل ما لديهم محتجين على قوت أطفالهم.

– لا عليك سيصنعون طابوراً خاصاً للبحث عن الحليب المدعوم سيحتجون عن طريق الطوابير لا تنزعجي وكوني على ثقة.

ها هي اليوم تحت رحمة المسلحين أنفسهم أم أنه «جبر» الذي سيتعذب وتنطق بألمه عالمة الذرة، التي قادها قدرها التعس حتى وهي ميتة إلى ضاحية البؤس والبؤساء.

* * * * *

- 4 -

بعد أربعة أيام تصنّعتُ فيها الرصانة والتعقل وأنا أتشبث بتلابيب نبضي ألا يتصل «بلمياء» حتى تبادر هي بالاتصال، أقضي نهاري في زحمة الطرق، أو مع شباب الضاحية في مقهى القصص السرية للبيوت الغريبة، أربعة أيام أهرب في النهار إلى الضاحية وفي الليل أقف أمام النافذة متوجساً هجوماً اعتقاليا كما حدثَ «لجبر»، الذي لم تحمه الشمس. أربعة أيام ولم تتصل «لمياء» من العاصمة فهل غادرتها؟ أم تراها تتصنع الرزانة مثلي وهي الرزينة بالفعل! أربعة أيام بنهاراتها ولياليها وأنا أكتب وأمحو مثل مراهق، ومثل مراهق ضعيف أرسلت رسالة قصيرة:

«لمياء» أنتظر منك كلمة، مكالمة، طمنينا.

محوت كلمة (أحبك) واستبدلتها باشتقتك ثم محوتُها هي الأخرى لم أستسغ ذلك، (أفكر فيك) تفي بالغرض.

ردتْ برسالة قصيرة من النقال الذي تندّى بعرق يدي وأنا أتلهف الرد الذي جاء أسرع مما أتوقع.

«أنا في اجتماع». جملة قصيرة من نصوص هاتفها الجاهزة، لم تكلف نفسها إلا ضغطة زر!

جن جنوني. هذا ما أنتظره من اجتماعات العاصمة ولجان التمكين، هل

أكلمها وهي في اجتماعها؟ هل أنتظر ساعة أخرى ربما تفرغتْ، إنها حتى لم تعدني بمكالمة حالما تنهي عملها هذا،

ربما أتوهم حبها! أيعقل أنْ نحملَ في أذهاننا حياةً لا وجود لها في الواقع! أنّ شعورك نحوهم محضُ هراء وثقة زائدة تخصّك وحدك! هل كنتُ مزعجا كل هذه الصباحات والمساءات حين اباغتُ بالورد؟ أظنني كذلك.

عدتُ إلى النافذة.

لا شيء غيرها بات يستهويني، مراقبتها وهي التي تراقبني، سيارة الخضار. ابتسمتُ وحدي وأنا أرقبه يغرس أصابعه في صندوق الطماطم ويرسل عينيه إلى أعلى العمارة حيث السيد الهام (أنا) كنت سأقول له «صالح» سيأتي من الباب وليس من النافذة، «صالح» يراك من حيث لا تراه!

هذا الشاب القمحي الصغير، رغم مهنته الخالية من الشرف والعاطفة فإنني أتعاطف معه وأعلم أنه إنسان شريف لكنه جاع، ما أسرّ لي به لا يَشي بأنه مُخبر، بهدوء وحياء همس أنه يسعى للملمة ثمن اشتراك في دورة لإدارة الأعمال، قد تساعده لتقديم أوراق عقدٍ لأية جهة، صغيرٌ ويتيمٌ ومُعوز، فليقبض منهم قوته طالما «صالح» بخير، ولا أظنه كذلك وهو المُشَرّد الطريد تنفره أرضه، وتمطره سماؤه بأزرار الشّهب، وحدها الكهوف والمغارات تكنفه فأين المفرّ يا «صالح».

* * * * *

بعد ساعة من رسالتها القصيرة اتصلتْ الأميرة بنبرة سريعة، مرحباً «فضل» نعم، نعم، لا أسمعكَ جيداً، استبدلْ مكانك يبدو أنّ التغطيّة لديك ضعيفة، اقترب من النافذة لو أنك بالشقة.

– نعم «لمياء» أسمعك، متى ستعودين؟ ما أخبارك؟

– ما أخبار «جبر»؟ هل رُصد مكانه؟ أنا في عُجالة استراحة قصيرة ونعود للقاعة، الجدول مُكتظ، لجنة الأمم المتحدة تناقش دور المرأة في صنع القرار السياسي أنْ تشارك بالتنمية، أن يكون، أتسمعني «فضل»؟ النائبة الأوروبية وصلتْ «تونس»، ستجتمع هناك بالناشطات الليبيات، متى انتهيتُ من الاجتماع عاودتُ الاتصال أتسمعني؟ أنا في عجالة، بدأ المجتمعون في العودة. لم أرد طيلة حديثها، الذي لم تُعطِني فيه فرصة للرد، صرختُ فيها: اسمعيني أنتِ، عليك بتمكين الحاجّة «أم الخير» وبناتها في «الحي2» من العودة إلى بيوتهن، إلى حياتهن الطبيعية مع أسرهن بعد أن فقدنَ نصف أولادهن، من العودة إلى أعمالهن اللاتي خَسرْنَها، لا تقاطعيني «لمياء»، عليك العودة وبسرعة، فالنساء الأرامل في الضاحية لا يستطعن الوصول إلى مزارعهن ومواشيهن، هذا في صُلب التنمية يا عزيزتي، نساء الضاحية يلدنَ في الطرقات، يتعذّر عليهن الوصول إلى «تونس» حتى للعلاج، فما بالك إلى لجنة التمكين، ولا تنسي أنْ تشكري بالنيابة ممثلة الاتحاد الأوروبي، لأنها تسعى لبناء ما دمرته طائرات دول اتحادها، يا لها من نبيلة.

– لا يا «فضل»، طائرات الناتو وليس الاتحاد.

– حقاً؟!! أعتذر، كنتُ أظن أنّ دول الاتحاد هي دول الناتو، شكراً، أنك صوّبتِ لي اعتقادي الخاطئ لكن أريد.. قاطعتني.

– لاحقا، لاحقا، وأقفلتْ الخط.

لماذا هذا الجفاء! هل أجمل من تمكين الحب! اللحن الذي ننجذبُ إليه؟، فالموسيقى ليست فقط ما تفرزه أصابع البيانو أو أوتار العود، هي في إيقاع حبّات المطر تتدحرج مشاكسة الياسمين يميل، في حفيف سنبلة تذعن لقبلة من نسمةٍ عاشقة، في وَشْوَشة الجدّة تَعِدُ بالحلوى وخُرافة. وفي تجبير الأم بالعدّة والفرس، في صفير السير الجلدي لعربة النظافة تصبّح على أزقة حينا الضيّق يحتضن السلام يتسع، في تراقص حبات الذُرة أمام عيني البائع الصغير وهو يهيئ لها طربوش الورق الملون.

في الشعور المسافر خلفَ جنائز أحبة تتباعد، في الحنين لذلك الشبيه الذي نبحثُ عنه نحسّه ولا نراه، في كل بسمة دافئة وكلمة تحفر لها في القلب منزلا، فأين «لمياء» من هذا!

إنها في كل هذا الثرى الندي ينظر البلل ليزهر، ذرات الرمل المرتعشة تتعلق بأيّة غيمة، أيّ سراب، أي قشّة وسط هذه الأمواج، هُدم البيت وزاد الفقد ولم يُجبر الجبر بعد، فمتى اللمم يا «لمياء»!

* * * * *

«إنّ الإنسانَ لا يصدمُهُ ما قدْ يتَخيّله، الصدْمةُ الحقيقية هي تلك التي لمْ يتخيّلها أبداً»

*****

- 1 -

تمّ إحالة ملف «جبر» إلى الأمم المتحدة..

ودائماً تتسرب الأخبار السرّية، أولاً من مواقع التواصل الاجتماعي، ومن مرابيع البيوت، وعبر غرغرة الأرجيلة، فكيف بهذا الذي ليس بالنبأ العادي.

حُولت مسألة «جبر» أو بالأصح د.«سميرة» إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة للبتّ بأحقية «ليبيا«أو «مصر» في تبني الشخصية المركّبة.

ولغة إعلامية جديدة..

مدافعو ليبيا يقولون إن «جبر» هنا لحماً ودماً، من أب ليبي هو «زيدان المَقْنُوط»، وأم ليبية هي «جفّالة حمد»، وُلِد «بالحي2» منذ 8/أبريل/1982م، وترعرع فيه، وبه كوم بيتهم، نزحَ من «القصر» إلى الضاحية واستوطنها، وله رقم وطني، ومسجل بالسجل المدني، ويحمل الجنسية الليبية، ويعمل بدوائرها الحكومية، ويشهد على ذلك «الحي2»، ومختار المحلة، والجيران، والطوابير، وسيارة الخضار، والبوابات الأمنية، والمليشيات الحاكمة، والأقمار الصناعية، والطيارة بدون طيار، وجرد عمي «الغناي»، وقبّة الشيخ «الصالح»، والضاحية وكل مدينة «القصر».

حُجّة مصر تقول: أنّ المتحدث يحمل تاريخ مصر، «وزفتى»

و«سنبو الكبرى»، و«محافظة الغربية» و«العتبة» و«النيل»، وكل القاهرة، وجامعتها، والمشفى العيني، وهيئة الطاقة الذرية، وذاكرة عالمة مصرية وُلدت بمصر ومسجلة بدوائرها منذ 3/مارس/1917م، أي منذ مائة عام وقبل مولد «جبر» بخمسة وستين عاماً. من أب مصري هو «موسى علي أبو سليمه»، وأم مصرية هي «السيدة يونس»، تركتْ «العالمة» في «مصر» أبحاثها ومخطوطاتها وأوراق ثبوتيتها، وجثمانها لا يزال موجوداً على أرضها بالبساتين منذ أغسطس 1952م، ود.«سميرة موسى»، عالمة الذرة كنز، وقيمة تاريخية لن نتخلى عنها، وعقل عاد إلينا لا يمكننا التفريط به.

وأنا صديقه «فضل» أقول: عندما يأتِ الحظ فإنه لا يستأذن، تتطاول خطواته وتزهر أغصانه وتهبّ رياحه بالمشتهى، هذا «جبر» المحظوظ عاد بذاكرة عالمة ذرة يفكر بعقل مفكر، ويحظى دون النازحين جميعاً باهتمام المنظمة الأعلى بالعالم (الأمم المتحدة)، لدينا أكثر من مليون نازح بين دول الجوار، ومدن أشباح، أهلها في العراء بلا انتماء، لم يعرها الحظ اهتمامه، ولم يخطر للأمم المتحدة أن تنظر إليهم، صديقي «جبر» صاحب الحظوة يتقدم.

يااااه!

كيف أفكر هكذا؟ فهذا لا يزال حبراً على ورق مثل كثير قبله، أليس الواقع أن «جبر» في قبضة مليشية لا تُعرف أيّهم، ولا أين تأسره! أرجو أن تلملم «مصر» أو «الأمم المتحدة»، ما تبقى منه ولتأخذه إلى أي

جحيم، فسيكون بالتأكيد أرحم مما هو فيه، فماذا سيفعل «جبر» بهذا الانتماء هنا؟ أيّ مكان لإعادة التأهيل أفضل له من البقاء معنا.

تطور الأمر مساءً عندما فاجأتنا القنوات الرسمية في مصر بتأكيد إحالة ملف د.«سميرة موسى» إلى الأمم المتحدة والجلسة الثلاثاء القادم.

بعد غد الثلاثاء، حيث سيعرض أثناء المناقشة العامة للدورة (72) ما يعني في هذا اليوم المقرر لاجتماع قادة ورؤساء الدول الأعضاء المائة والثلاثة والتسعين للجمعية العامة سيفتح ملف «جبر» ويناقش ويشرح ويبث فيه.

كيف لا؟ وقد تصادف أن الموضوع المعتمد للمناقشة (محورية الإنسان والسلام للجميع على كوكب مستدام)!

«جبر» يوم الثلاثاء هو محور اهتمام مائة وثلاثة وتسعين ملكاً ورئيساً وقائداً في اجتماع رفيع المستوى وفي المنظمة الأرفع قراراً.

كل العيون في العالم تتجه إلى هذا اليوم التاريخي للبث في مصير «جبر» ود.«سميرة».

إلا «جبر» لا يعلم من الأمر الذي يعنيه شيئاً فهو في إحدى الزنزانات المظلمة تحت السياط والكهرباء.

الكلّ يترقب..

إلا الضاحية، مشغولة بما هو أهم وتتفنن في حفر مسارات المطبات أمام المحال والجوامع والثكنات والحواجز الأمنية، و«غزالة» في آخر

اتصال هاتفي تؤكد ارتفاع إحصائية الحالات المماثلة لحالة «جبر»، أما الحكومات الثلاث فقد قلّت فرصتها في المساومة، وبدتْ مُحرَجة ازاء طلب الأمم المتحدة مقابلته، وتبحث لها عن مخرج بل مخارج بعد تورطها بالتصريحات التي تبنّت فيها استئثارها على «جبر»، فهي لا تملك منه إلا تلك الصورة اليتيمة المتداولة على مواقع التواصل الاجتماعي.

* * * * * *

وكأنها تعلم مصيرها زنزانة

وكتبت د.«سميرة» مما كتبت:

مذكرة (8)

مُذ طفلة، بفستاني الأزرق الطويل أتأمل دوران الطاحونة، وأقتفي جريان الماء بسواقي «سنبو«، لا أؤمن بظاهرة لا تخضع للمنطق، تعلمتُ لا بد من مقدمات تقود إلى نتائج، إلى أن جئتُ هذه الضاحية التي لا تخضع إلى أي منطق ولا قانون، لكل شيء فيها منطق مختلف، منطق مقلوب كما شخصياتهم المركبة، حتى أني بدأتُ أستشعرُ العدوى، فكثيراً ما تأخذني غيبوبة لا أدري كم من الوقت، وأعودُ إلى حالتي، والغريب أني لا أذكر شيئاً مما كنت فيه.

مأخوذة «لمياء» بالثورة والربيع وبتمكين المرأة، وهي لم تتمكن من إنهاء سنة دراسية أخيرة بالجامعة، ولم تتمكن من استلام مرتبها منذ أربعة أشهر، ويتحدث «فضل» عن الثورة الهائلة والتقدم التقني بالضاحية، متناسياً أن مليشية أوقفت انتخابات الدولة، بل أنهم عاجزون عن تحقيق هذه الدولة، وتلاحظ «غزالة» كيف يكشفون على المريض داخل جهاز الرنين المغناطيسي الثلاثي الأبعاد، ولا تزال تفكر في زيارة الشيخ الصالح لينظّم لها ضربات قلبها المضطربة، شاب أربعيني ملتح يسيطرعلى جلسة في مقهى الضاحية قدمه مبتورة حتى الركبة إثر شظية حرب، يهزّ عكازه ويناقشهم في مسألة هل على المسلم أن يتقدم عند دخول المسجد بقدمه اليمنى أو اليسرى! في تسجيل

مصور، لأحد قادتهم الكبار في التغيير، يدشن خطاب التحرير بشرعية الرجل بالزواج من أربع نساء، لحظة كانت كل اتصالات العالم تنقل كلمته، تؤمل منه خطاب أزمة، وبرنامجاً لنزع السلاح، والمصالحة، صُدم العالم ولم تصدم الضاحية المصدومة.

وأنا الشخصية الأصعب.

ها أنا ذا قد حُشر عقلي في جسد أحدهم ليصفد.

بقيتْ إنجازاتنا في الذرة حيث وصلتُ، في حين امتلكتْ دول كثيرة بالمنطقة القنبلة النووية، لماذا؟!

سميرة موسى/ ليبيا/ 2017

* * * * *

– 2 –

الثلاثاء

الدورة (72) لقادة ورؤساء الدول الأعضاء بالجمعية الأممية تحت عنوان (محورية الإنسان والسلام للجميع على كوكب مستدام).

كان «جبر» ود.«سميرة» الإنسان محور للنقاش، هذا ما تناقلته وسائل الإعلام والقنوات الفضائية وتصدر الصحف العالمية، وحَسَدَه كل من سمع به في ضاحيته، وتمنّى لو كان محله.

افتتح رئيسُ الجلسةِ الجلسةَ..

أغلب الرؤوس، التي تضع أطواق الترجمة على جماجمها لتصل أذانها، هم رؤساء الدول الشبيهة، فنظرات أعينهم شاردة اتجاه المنصة، بداية خمّنتُ إنهم سارَحُون في الطوابير الشبيهة لديهم، ثم تراجعتُ، بعد أدركتُ أن تركيزهم مشحوذ مع المتحدث، ينبئ عنه ذلك أفواههم المفتوحة لشحذ الفهم.

قاعة كبيرة، فسيحة وفخمة، امتزجت مقاعدها باللونين الأخضر والأصفر الغامق، أسطح طاولاتها الصفراء خالية إلا من الورق وقنينة ماء صغيرة أمام كل رأس، استغربتُ، لو أن الاجتماع في دولنا لبهرناهم بما لذا وطاب.

كانت كلمة ممثل دولة د.«سميرة» مثيرة للانتباه لفاعلية بلده وتأثيرها في جيرانها وأصدقائها، حيّا وأثنى على دور بلاده وقدّم تصوراتها المستقبلية.

وقدّم نبذة عن سيرة العالمة المصرية.

ثم جاءت كلمة ممثل دولة «جبر»..

- هنأ الرئيس الحالي على استلامه الرئاسة.
- شكر الرئيس السابق على جهوده السابقة.
- شكر الأمم المتحدة.
- شكر الدول والمنظمات والمؤسسات الاقليمية والدولية على دعمها في استقرار بلاده.
- شكر دول الجوار والجامعة العربية.
- شكر الاتحاد الافريقي والاتحاد الأوروبي.
- شكر منظمة التعاون الإسلامي.
- شكر كافة الدول الصديقة.
- شكر المبعوث الأممي السابق لبلاده والذي سبقه.
- ورحب بدور المبعوث الأممي الجديد في بلاده.
- ثم أثنى على مجهودات بلاده في مكافحة الإرهاب والهجرة،
- وأنهى بالحاجة لاستمرار الدعم والعون من المجتمع الدولي.

استمرت كلمات القادة والرؤساء بين مدح وطلب وتمني وترجي بمجتمع إنساني سعيد ووعدوا بالتفان في سبيل ذلك، وتبادل ممثل دولة د.«سميرة» وممثل بلاد «جبر» الابتسامات ونظرات العتاب من انحياز حكومة

د.«سميرة» ودعمها لحكومة دون غيرها من حكومات «جبر» الثلاث، سلّم الجميع على الجميع، وصفّق الجميع للجميع وخرجوا بتوصيات تطالب بتحقيق حقوق الإنسان، وتستنكر وتدين الإرهاب.

انتهى الاجتماع عالي المستوى والذي تناول (السلام على كوكب مستدام) والذي قيل إنه سيتناول ملفي «جبر» ود.«سميرة»، انتهت جلساته في الأمم المتحدة، ربما سيصدر قراراً على هامشه، في انتظار أن يعلن عنه، وانتهى «جبر» مقيداً عند مليشية لا يعرف مكانها تحديداً.

لكن صَمْت الإعلام المصري المفاجئ يجاهر بالكثير والذي لا يخفى على «صالح» ولوجستيته النافذة، طلبَ مني أنْ أكونَ قريباً فقد يرمون «بجبر» في أية لحظة فهو لمْ يعد ذا قيمة لديهم إثر تردي حالته واختلال تركيزه إثر شدة ارتعاش جسده مع قوة التيار الكهربي.

* * * * *

مذكرة (9)

«لمياء» الأكثر غموضا وغرابة، والأشد تحفظا تجاهي وهي المتحررة نسبيا! كم تمنيتُ لو تصادفتْ إقامتي بغرفتها بدل غرفة «غزالة» التي تصرُّ أني زوجها «جبر»! لا تتفهم أني «سميرة»، وقد ابْتليتُ بزوائد رجل، «لمياء» هادنتني، لم تعد تستفزني بأني شقيقها «جبر»، لكنها تثيرني بأسئلتها الجامحة وتوقها للتغيير، ركنتْ السيارة في نهاية طريق مزدوج تحت شجرة سرو كبيرة طرف حديقة، لا أعرف سرّ ارتياحها وأنا أبدي لها استغرابي بشكل سيارتها، تلك الصامدة للتعرية أمام بيتهم طيلة فترة إقامتي معهم. ضحكتْ ورمتْ جملة سريعة وبشقاوة: (هذي سيارة «جبر»، وتنهدتْ.)

أطفأتْ السيارة واتكأتْ بمرفقها الأيمن على حافة مقعدها، التفتتْ نحوي وفي عينيها حَذَر! ناولتني كوب شاي واحتفظتْ لها بنسكافيه تزودتْ بهما من الطريق، وزفرة..، امحي كل ما قلته لك بالأمس د.«سميرة»، كنتُ مرهقة ومختلطة المشاعر، فكل ما يتعلق بالعاطفة تافه، ولا يستحق التفكير به، كل ما نشعر به مؤقت، علاقة فرار وتعويض وهراء، في بلدي ندرك أنها خاسرة، ولدينا غيرها الكثير، نعيشه مع العائلة والأصدقاء الذين يشبهوننا. اليوم هاجسي كيف يفكر الاستثنائيون أمثالك؟ غادرتنا أمي ولم أرِث منها إلا الشكل، صبورة، عاشت مع والدي في بيت أهله تخدم أبويه وزوّجت شقيقاته، تركتْ التدريس بعد إصابتها بالروماتيزم وإحالتها على الملاك الوظيفي، أمي معلمة حازمة فلم تكن يوما صديقتي إلا فالعموم، من متعلمات أواخر الستينيات، تَجْلي القدور مبتسمة تحلم ببطلات الروايات والمسلسلات،

عندما تصحح الدفاتر تهرب من النافذة تلحق حلما تعلم أنه بعيد، متشظية أُمّي، في لمّة «نائلة» زوجة أخي «صالح» بولادتها البكر، أوصتْ لها من «دبي» بأحدث عربة تقديم، خليجية، مذهبة ومرصعة بالكريستال الأصلي، ولعنتْ مظاهر التخلف! اسمحيلي.. سأغتنم قربك مني دكتورة.

ماذا تقولين يا «لمياء» ستينات أيه؟ مالك؟

عفوا دكتورة، كيف تفكرين لأفكر؟ مكتظة وحائرة أنا، هل عليّ أن أتخلى عن غطاء الرأس؟ فما نزعته بعض مثقفاتنا القدوة على كِبَر إلا لحكمة، وتلهث جارتنا «حليمة» بين الدوائر، للبثّ في حق ابنها»يوسف» من زوجها المغربي للتمتع بجنسيتها الليبية إسوة بإخوته من ليبي، انهارت عندما سألها (ليش يا ماما خوتي يقروا ويعالجوا ببلاش وانا لا؟)، فهل من حق؟ آآخ لولاكَ آآخ، لهجّيت من هنا. أعني لولا أنكِ قربي.

سيبك من اللباس يا «لمياء» لأنه ثقافة، أنا عن نفسي لا أفكر في تغطية رأسي، أما الجنسية دي مسألة وقت، دي حتبقى زي استخراج رخصة القيادة، هههه..هههه، إلا انتو يا بتوع التفجيرات، ما تحلموش بجنسية حد، هههه هههه، طَبْ بلاش الجنسية، أقلّها يمنحوهم حقوق المواطنة، لم تهتم لي، لَكَمتْ «لمياء» مقود سيارتها بعنف كنبرتها، لكمته ثلاث مرات لتذهلني: أتعلمين دكتورة؟ بقيتْ «زينب» عامين محتجزة في مبنى أُعلن خصيصا إنه للمغتصبات والشريدات، ولا يُعلم مصيرها بعد أن تم إخلاءه وأقفل! فغادرته وعلى جبينها «هذه مغتصبة»!

تتحدث «لمياء» بانفعال ودون ترتيب، وعدتُها بمناقشة الأمر بالبيت مساء فسألتني: ألا تذكرين السيارة؟ أجبتها كيف ذلك؟ ألم تقولي أنها سيارة أخيك «جبر»؟ ارتسمتْ على وجهها ابتسامة رضى كبيرة، وأدارتْ مسجل السيارة..

اكذب عليك.. اكذب عليك, لو قلت بحبك لسه، اكذب عليك..

اكذب عليك.. لو قلت نسيتك.. همسة، اكذب عليك!

سألتها: مين الصوت الحلو ده يا «لمياء»؟

دي «وردة» يا دكتورة!

«سميرة موسى» / ليبيا 2017م

* * * * *

– 3 –

بدا صوتُ «غزالة» وهناً خائِراً وأنا أبشرها بقرب الإفراج عن «جبر»، كنتُ سأهيئها لاستقباله في أسوأ حالاته، لكنني تراجعتُ وأنا أشعر بكآبة صوتها ونحوله، وكما لو أنها كانت تنتحب، واسيتها وعرضتُ المساعدة، قالت وعكة بسيطة ربما إرهاق، وشكرتني «فحَسَن» برفقتها و«لمياء» وصلت اليوم!

وصلت «لمياء».. إنها لم تتصل حتى من أجل «جبر»، لا أعرف كيف سيأتي التغيير من بعيد! وكأنه عُلَب سيأتي الينا مشحونا في صناديق. هذا ما جهرتْ لها به العالمة ذات تحليل، تتأمل «العالمة» قهوتها، وتتحسس بسبابتها حواف صحن الفنجان الصغير، تتحدث لدرجة جعلتْ «جبر»، يصدّق نفسه أنه هيْ، و«لمياء» تتماه مع ذلك رغم شكله المقزز. جمعهما الخطاب التنظيري الذي يشعرني بضيق التنفس. بدتا كمعلمات التاريخ:

– أرى أنّ السيدة الممثلة الأممية لا تَعي متطلبات النساء في منطقتنا يا «لمياء».

– لكن الوضع اختلف د.«سميرة» عما كان عليه في الخمسينيات، نحن في 2017.

– هه! طرتِ لـ2017؟ اختلفَ الوضع بالتأكيد، لكنني أظنّه صار أسوأ

مما كان. في الخمسينيات كنت قد بدأتُ تطوير الذرة!

– ولهذا دكتورة لابد من التمكين، نحن نواجه تحديات، الموروث الشعبي، والقرار الذكوري، والمفتي! تعلمين نحن دولة حديثة عمرها من عمرك، وبقرار أممي في الواحد وخمسين، أظننا ما زلنا بحاجة لدعم المنظمة الأممية. تلفتتْ عليّ: ألست معي «فضل»؟

– نعم، نعم، الموروث والذكوري والقومية والوطن والقرار، فلتردّي عليها د.«سميرة»! وأخذتُ نفساً عميقاً. وردت عني د.«سميرة»:

– صدّقتِ «لمياء»، لكنّ المنظمة في قبضة منظومة عينها على مصالحها، وترانا مجتمعات متخلفة هي أحقّ منا بخيراتنا، الأمرُ المُهم هو ضمان حق المرأة في الدستور ليكونَ القانون في صفها، وهذا يصدر من الداخل وليس من الخارج. (لا أصدق ما يصدر عن «جبر» لا أصدق).

– ونحن الناشطات بصدد ذلك، هذا ما نحاول فعله.

(يا ربي! كيف «للمياء» أن تنسى وجهه؟ لكني فعلتها أيضا!).

– أنظري «لمياء»، عندما نحارب ظاهرة علينا أن نخرجها من رؤوسنا أولا، ثم نشتغل على محاربتها خارجنا، لا ينبغي أن نحارب الأمر وهو لا يزال يعشش في ذاكرتنا، حينها سنتشظى، سيصير الواحد منا مشوها تماما كما أنا الآن، كارثة لو كان المجتمع كله كما أنا الآن!

– رائع طرحك د.«سميرة»، لو تقبلين مشاركتنا اجتماعاتنا، لا شك ستضيفين الكثير.

وأنا أيضا لم استوعبْ منهما هذا الرصّ! كنتُ أتابع وأغبط «غزالة» التي لم تأبه يوما لنقاشاتنا، بنعومة جمعتْ فناجين القهوة من أمامنا، ووضعتْ إبريق ماء، ابتسمتْ وغادرتْ.

أبدعتْ «لمياء» المجادِلة.

ها هي تصل من العاصمة واستكثرتْ عليّ مكالمة! ربما مرهقة، سأمهلها بضع ساعات وأبادر بالاتصال، وسأبحث عن كلمات لتتقبل بها الحالة التي وصل إليها «جبر»، فسيّان أن يعيش بذاكرة د.«سميرة»، أو تزدوج معها ذاكرته ما دام لم يعد «جبر» الطبيعي. أعتقد بأنه عليّ نقل هذه الفكرة إلى «لمياء»، ونقل بصري عن هذه النافذة فسيارة «الخضار» لن تتزحزح من مكانها، لكن السؤال: ومن يراقب بيت «جبر» أليس هدفاً هو الآخر؟ إنه بيتُ أخيه؟ اقتربت بحذر من النافذة، لتبشرني باستبدال الشاب صاحب سيارة الخضار، بشاب آخر، لا شك أنه لملمَ ثَمن حُلمه، لنيل شهادة إدارة الأعمال، مقابل تقاريره عني وغادر، فرحتُ له.

(وجايبلي سلام عصفور الجناين من عند الحبايب) هذه النغمة خاصتها، ابتسمتُ ونسيتُ وطارتْ غفوتي.

– هلا بالغلا، حمداً لله على سلامتك، مرحبا، مرحبا.

– مرحبا. أيووة، هكذا، رائع وأنتَ طَرِب، فقط أطمئنُ عليك بعد تلك العاصفة التي أطلقتَها عليّ.

– لا عاصفة إلا عاصفة الشوق إليكِ، أريدكِ قربي «لمياء» لن أسمح

لك بالابتعاد، يكفي.

– شكرا «فضل» أرجوك تَحَفّظْ، يقلقني «جبر»، حتى إني عدتُ قبلَ أن أزور عائلة «نصر»، لديه مؤتمر بالخارج، طمئنني؟

– نعم إنه «جبر». هذا ما أود أن أحدثك عنه، هو بخير، «جبر» بخير، متى أراك لنتحدث بأمره؟

– إذاً ليس بخير. تفضل الآن فأنا لستُ وحدي.

– أنا قادم فلتجهزي الابتسامة.

أيقنتُ أنّ لحظات السعادة تأتي بغتة كما الموت – يا له من تشبيه غبي مهمومة هي بأخيها فكيف أُخَفّفُ عنها؟ تتحسّس شفتايّ فنجان القهوة وقلبي يخفق لعينيها، تبتسم ولم تلتفتْ لقهوتها بعد، ابتسامة مشوبة بحزن خفي بعيد طافح في آن.

– ماذا بشأن «جبر» حيرتني، صدقاً.

– «جبر» بخير وأبشرك بأنه ربما نلتقي به هنا قريباً، ربما في أية لحظة. أنتظر مكالمة بالخصوص.

– يا ربي، يا ربي، يا ربي، كيف أشكرك «فضل» وقفتْ وهي تفتح ذراعيها وتضمها وتنظر إلى السماء ثم إلي، وفاضتْ عيناها.

– لا غاليتي، (وتداركتُ الأمر) رويدك «لمياء» تماسكي، اشربي قهوتك ستبرد، ماذا ستفعلين إذاً عند لقائه؟ أما أنا فليس لديك لي إلا (مرحباً «فدل» ما أخبارك)؟

أضحكتُها وأنا أحاول أن أحاكي جملتها بأنوثة؟

– قدرك عالٍ عندنا، (وغابتْ في ضحكة مكبوتة لكنها رائعة، صعب علي انتزاعها من هذا الفرح لكأنني والفرح خصمان).

– اعذريني، لا شك أن «جبر» سيعود مرهقاً، تعلمين يا غالية ظروف الاعتقال، سيحتاج منا عناية أكبر، اتصلتُ بالأمس لأوصل الرسالة «لغزالة» بدتْ لي متعبة، ألم تزر طبيبا؟ كيف هي الآن؟

– الحقيقة ليست على ما يرام؟ يبدو أنها نزلة برد قوية، دوخة وقيء وفقدان شهية، تبدو شاحبة جداً. منذ وصولي عرضت عليها مرافقتها إليه فرفضتْ، قالتْ إنها زارته ووصف الدواء، لكن بماذا تلمح يا «فضل» ما به «جبر»؟ طالت أزمته بعد شهر يكمل عاما.

– وطالت أزمتنا.. وباغتني «صالح» باتصال:

– «فضل» لو سمحت اسمعني، «جبر» بمشفى الضاحية، سارع إليه، (وأقفلَ).

ارتبكتُ وتلعثمتُ، أنظر للهاتف وإلى عيني «لمياء» التي تستعجل الخبر؟

– هذا «صالح» قال إن «جبر» بمشفى الضاحية، سأذهب، وسأطمئنك.

– لا، بل سأذهب معك.

– كيف؟!!

– لا شأن لي بأحد، ماذا يعني لو ذهبت معك يعلمون أنك على اتصال

بنا وتزورنا كل يوم وشبه مسؤول عنا في إعاقة أخي. سيرافقنا «حسن».

– تمهلي غاليتي، اسمعيني «لمياء»، طيب كما تريدين، اطلبي من «حسن» مرافقتنا، هيا بسرعة انتظركما بالسيارة وإن كنتُ أرى أنْ تمكنيني من معاينة الأمر وحدي أولاً، قد لا أستطيع التفرغ لك. رجاءً. واهدئي، وضممتُ يديها إلى يدي لأول مرة وضغطت عليهما، أرجوك اهدئي. سحبتْهما بسرعة مستنكرة وأومأتْ إيجاباً.

– سأبقى لكن طمنّي كل دقيقة.

– حاضر.

* * * * *

وكيف سأطمئنها؟ وماذا سأنقل لها؟ لا شيء باقٍ فيه سوى الرأس، فزّاعة على عربة، يجرونها بين أقسام المشفى، غطّى السواد وجهه، وغارتْ عيناه وآثار كدماتٍ زرقاء لا زالتْ على خدّه الأيسر، وأخاديد السلك المعدني محفورة على معصميه، وقد طالَ شعرُ وجهه، وتبعثرتْ لحيّة ذقنه المتسخة بشكل مثير للاشمئزاز، لكنّه حليق الرأس، وقد بدأ شعر فروته في النمو، لم أقوَ على تعرّية جسده، لن أحتملَ رؤية المزيد، فكيف احتمل «جبر» فِعلَ المزيد؟ بماذا سأطمئنُ «لمياء»؟ ليس بعد، ليس بعد! كان يبادل رفع ذراعيه وخفضهما، ويهزّ برأسه ويئنّ ألماً، لا يعرفون من أحضره، فوجئوا به على عربة الإسعاف أمام باب الطوارئ وينتظرون معرفة ذويه بينما يحاولون اسعافه.

– أنا قريبه ما الأمر؟ كيف وضعه؟

– يحتاج أكياس أملاح، لديه جفاف شديد، سيكون بخير، لا تقلق ليس في الأمر ما يقلق من الناحية الجسدية. فقط يظهر أنه متعرض لصدمة، هذا واضح مِن آثار التعذيب، ونتعامل مع هذه الحالات يومياً، محظوظ من يعود للحياة منهم، ساعات ويتحسن لا تقلق.

الطبيب كان في عُجالة، بعضهم في انتظاره وتم استدعائه من قسم النساء، شاب يضع عمامة ويرتدي نظارة لامعة، وفي يديه ملف يراوحه أمام وجهه، نظارة لا تتناسب وثوبه القديم، وامرأة تحمل طفلاً منتفخ البطن بشكل لافت، ومناظر أخرى لا تَسرّ.

أزعجني صاحب النظارة وهو ملتصق بالطبيب ويطيل النظر «بجبر»

وكأن دوره سيطير، تركته مكانه ورافقتُ الممرضة و«جبر» حيث سيستسلم لحقْنهِ بالأنابيب البلاستيكية وسريان السوائل في الجسد الهالك، لا أعرف من تولى شراء لوازم العلاج، ومن أحضرها من الصيدلية الخاصة.

نسيتُ أنْ أُعِيدَ تشغيل هاتفي الذي أقفلته لأنجو من نغمة «لمياء» التي ما انفكتْ تُومض، عنّفتني على ذلك، همستُ لها «أحبك»، صمتتْ، فقطعتُ صمتها: «جبر» بخير سنكون بينكم بعد ساعات.

وبعد ساعة واحدة اتصل «صالح».

– لا أعرف كيف أشكرك «فضل»، من يرى القلق الذي أنتَ فيه يقسم أنك أخ «جبر» ولست أنا، مطمئن عليه جداً وأنت معه.

– نعم؟! وأين أنتَ؟ كيف عرفتَ؟

– قربك منذ قليل، ألمْ تعرفني! (وهو يضحك) حقيقة استغربتُ هذا التماسك واللامبالاة وأنتَ تحدّق بي، تساءلتُ من أين سقطَ عليك هذا وإذا بك لأنك لم تعرفني.

– لا، لا، لستَ صاحب العمامة!؟ صاحب النظارة اللامعة! لستَ أنتَ، لا مستحيل.

– يا لك من ذكي، ها أنتَ تعرّفتَ عليّ الآن.

– ألا تخشى القبض عليك أنسيتَ أنك مطارد.

– أنا مطارد في كل الأماكن التي لها علاقة بي، عليّ أن أكون دائماً في مكان لا صلة لي به حتى أضمنَ راحةً نسبية.

– آسف لحالك يا صديقي كم هو مؤلم أن تُحرَم من كل ما له علاقة بك. ليس أقسى من ذلك. لا تقلق سأهتم به.

أتأمّلُ المحلول الملحي وهو يأخذ طريقة في أوردة «جبر» لينفخ فيه حياة يستطيع أن يصمد بها في طوابير الشقاء، حياة يقف بها على قدميه تقوده دون إعانة دون سند، تطل نافذة المشفى على جدول قمح يرعاه غفير الباب الأعزل، بعض البذور تحضن بعضها فتغدو سنابل، يغمر الماء بذرة القمح تنتشي، تتطاول ساقاً أخضرا، وحباً تلفحه شمس الوقت يصفر، يحين حصاده.

قال الشاعر «عبد المطلب الجماعي». (والزرع كان طابْ إيجوه حصّاديَنه.) أي نعم. يبدو أن حَصَاد «جبر» لم يحنْ بعد، ما زالتْ شمس الوقت تطيّبه على نار هادئة.

وناداني بصوت مجهد:

– «فضل» أنت هنا؟ أين نحن؟ لا تتركني ابقَ معي، كأني في كابوس، لا أعرف ما يحدث.

– لن أتركك حتى نعود معاً، نحن بالمشفى، لا تقلق أقصد لا عليكِ د.«سميرة».

– من د.«سميرة»، ما بك فضل؟ هل سرحتْ؟

– لا!!!، يا ربي، «جبر»؟ أنت تتذكر؟ «جبر»؟

– نعم «فضل» ما بك؟ ماذا هناك؟

– ها أنت تعود!؟ يا الله.. يا الله.. أين كنت؟ ماذا حدث؟

– كادوا يقتلونني لولا جرد عمي «الغناي». كان يلتف على رؤوسهم فيعميهم عني، أين «غزالة» و«لمياء»؟ اتصل لي «بنصر».

– لحظة، سأتصل بـ«غزالة»؟ مقفل، سأحاول على «لمياء» نعم، لكن لا، لا، ليس لدي رقم «لمياء» نسيتُ، ولا رقم «غزالة» أظنني سرحتُ! هل تذكر رقم أحداهما؟

– أحداهما؟ من؟

– «غزالة» و«لمياء»، لا أعرف رقميهما. (الحمد لله، كدتُ اورّط نفسي)!

– سيد «فضل» أين أنا؟ أخرجني من هنا سأعود بلدي لن أبقى لحظة هنا. أنت لا تعلم ماذا فعلوا بي.

– أهدأ «جبر».

– مَن «جبر» هذا؟ هل عدتَ إليه؟ اطلبْ لي السفير المصري.

وصار يصرخ واحتشد المرضى مع تَفَري التمريض وأُرسل في استدعاء الطبيب الوحيد بالقسم لأن لديه حالة مستعجلة في قسم النساء، وأنا أناشدهم بالابتعاد عنه، واستجدي الممرض في حقنة مهدئ مؤكداً لهم أنه متعود عليها وأن الحالة صارت مألوفة لديه، يصرخ ويتحسس فروة رأسه، أنظر لقد حلقوا لي شعري! يصرخ حتى نام مع المخدر، ونامت في أوردته الأنابيب البلاستيكية.

– انتظرته واقفا على رأسه لساعتين، ما إن تململ وحرك رأسه حتى: هيا

د.«سميرة»، ما أجملك الآن؟ صرتِ بخير. ساعديني دكتورتنا لنصل السيارة «غزالة» و«لمياء» تنتظرانك.

– لا أصدق سيد «فضل» لا أصدق ماذا حدث معي؟ ماذا فعل بي أولئك الهمج، إنهم يحتجزون الكثيرين، ابتعد بي من هنا، لا تعد بي إلى البيت، لن يتورعوا عن خطفي ثانية، خبئني عنهم حتى تجد وسيلة لسفري، إنهم مرضى وشواذ، كأني بينهم دمُية وهم يعبثون بي، لا يتأثرون لصراخي وألمي، خدعهم شكلي لم يقتنعوا بأني امرأة، يا إلهي أريد باروكة أضعها على رأسي، كيف أخرج للناس هكذا؟ تركوني على القشرة، افعلوا شيئاً، لِمَ أنتم بهذا العجز؟ أنصحكم أن...

– لا عليك، لا تخافي، اطمئني، لن تتأذي ثانية، اعتقلوك خطأ، سنستمع إلى نصحك، الآن ارتاحي، سنصل البيت قريباً، ستضعين وشاحاً وستبدين جميلة.

– لا لن أفعل.

– حسناً سنشتري باروكة، ولا تخافي لن يهتموا لأمرك ثانية، لم تعودي ذات قيمة لديهم فقد ألحقوا ذاكرتك بجسدك هناك، من حيث جئت.

– لم أعد أستوعب كلماتك سيد «فضل» أظنك لست بخير!

عانقتْه «لمياء» بالدموع وهي تتمسح شعره الممسوح، وتدعك رأسه وتدلك ظهره بكفيها في حركات دائرية مضمخة بالدفء والشوق واللهفة، أشعر بنبضها وارتعاش شفتيها، وهي تحاول التعبير له عن فرحتها برؤيته ثانية،

لم يصله من كلماتها إلا إحساسها، كانت الأحرف تصل حلقها وأراها تنجذب نحو جوفها.

كم تمنيت لو كنتُ «جبر»، سأكون ممتناً لإعاقة تمنحني كل هذا منها، يا لجنوني بها، أهذا وقته!

حينها كانت «غزالة» تبادل خطواتها في ضعف شديد بادٍ عليها حدّ الانحناء، تخطو نحونا ويدها في جوفها، في شهيق وزفير متسارع تجاهد السقوط، كنا أسرع منها في الوصول إليها، ضمّتْ «جبر»، وبكت بمرارة لم تفعلها قبل، أكدتْ لي أن القهر ليس في الجنون إنما في الاستعباد، وإن اختلال «جبر» مقبول، مقارنة باحتجازه عند مسلحين استباحوا كل شيء فيه، تبكي «غزالة» بمرارة العجز والخنوع الغَصْب لمغتصبي زوجها، وحينها فقط وجدتُ وقتاً للبكاء والنحيب وعانقتُ «جبر» الذي كان يدفعني فأنا تجاوزت حدودي معه نسيت أنه امرأة.

بكيتُ بمرارة «غزالة» التي تبكي دموع الصبر والمعاناة قرب زوج لا يذكرها، ارتقتْ «غزالة» تاجاً فوق الشمس، قبل أن أعرف بعد أسبوع واحد أنها حامل، وأنها تبكي دموع الخطيئة وبذرة واقع مرتبك، هذا ما صدمتني به «لمياء» التي أفرغتْ جحيماً في صدرها ليتناسل آخر.

حاولتُ الدفاع عن «غزالة» البسيطة الصامدة:

– لن أصدق! إنها امرأة متزوجة لا بد وأن «جبر» فعلها مرة.

– ليتني أصدق ذلك، هل تظنني أتمنى غيره؟ «جبر» عاجز، وما فتأتْ

تشكو لي صدّه واتهامه لها بالمرأة الشاذة.

. قد يكون في غير وعيه عندما حدث، الشكّ هذا الشيطان يا «لمياء»، لِمَ لا تناقشيها؟ باركي لها، واسكبي لقلبها إنك سعيدة بأبوة «جبر» وسيعوضه ذلك إعاقته.

– لم أستطع، عينها مكسورة، لو كان من «جبر» لجلجلتْ الخبر، أنا في حيرة فعلاً.

– هوني عليك، أرجو أن يكون عالم ذرة مثل أبيه د.«سميرة».

– لا تكن ثقيلاً، ليس وقت مزاح، ادعمني «فضل»، لِمَ لا يكون مشرداً أو فاسداً، أو مغتصِباً أو مغتصَباً، أو نازحاً مثل كل من حوله، كيف لي أن أعرف والده يا «فضل»؟

* * * * *

حمل «غزالة» قنبلة أخرى لا تزال في انشطار فإلامَ ستقودنا؟

أما زوجها «جبر» فلا يعني له الحمل شيئا، تعافى من صدمته في زمن قياسي، يغوص في جهاز الحاسوب بإمكانات د.«سميرة»، يتابع الانجازات والأخبار، وتعلّم النشر و(الهاشتاقات)، متزن ما دام ناجيا من نوبة الفوضى العقلية التي تسيطر عليه جل وقته.

وهي تفرز بعض الأوراق مختلفة الكتابات والرسوم البيانية أمامها على الطاولة البلاستيكية عصراً، قال، بل د.«سميرة» همستْ «لغزالة»، لم تُخبر تجربة الحمل والأمومة لكني أظنها شاقة، وبعواطف امرأة صديقة، تتمنى أن يعود زوجها سالماً، فهي لم تره منذ مجيئها إلى هنا، هذا ما قالته د.«سميرة» «لغزالة»، هي لم تسأل عن والد الطفل، ولا يهمها عدم رؤيته بالمنزل، ولم تفكر كقروية كما في «ذات الهمة» في حدوث الحمل بدونه! وأنا الآخر لا يمكنني البتّ في هذا الموضوع. موعودة «غزالة» بالبؤس.

تقلب العالمة أوراقها على الطاولة الصفراء، وتتأمل تلك «الخنفساء» التي باتتْ شُغلها الشاغل، تتعافر صعودا وهبوطا مع التعرجات الترابية لجدول شجرة الزينة، يبدو أنها علقت في قمة تعريجة فسكنتْ، ما أتاح للعالمة متعة التأمل، وصفتْها بالقبح والبطء، لكنها تقول إنها تعوم في الماء، وتصنع لنفسها فُقاعة تتنفس منها عند الغوص! تتداعى الخنفساء يمينا ويسارا، ضحكنا كثيرا، مازحتُها: هي أيضا تتأملك، لن تصدقوا أن الخنفساء تتأمل العالمة، وأن لعينيها بريق! همّتْ العالمة الرقيقة

بمساعدتها فضولا، فكانتْ المفاجأة أن الخنفساء سارت خلفاً بسرعة ثم عدّلتْ اتجاهها وهربتْ منها سريعا نحو حفرة تحت جذع الشجرة واختفتْ. صدرَ من الداخل صوتُ شخير وتوقف. ثارتْ العالمة وصرختْ إنّ هذه «الخنفساء» ليستْ طبيعية! لابدّ من هدم الحفرة وإخراجها!!

وعدتُها: في الغد نفعل، لكنها أصرتْ اللحظة، فالأمر هين، والدافع مُلحّ، نبشتُ الحفرة بملعقة حتى بانتْ علينا «الخنفساء»، حذرتني العالمة من لمسها بيدي فلربما ترافقها عقرب، هزئتُ منها دون أن أستفزها ودحرجتُ الخنفساء بالملعقة ثم مسكتُها بيدي، إنها صلبة جداً، أظنها ميتة، يا د.«سميرة»!

نهشتْها مني في عُجالة صدمتني، قلّبتْها في يدها وسحبتْ من بطنها مسماراً وصاحتْ: يا إلهي إنها تُحرّك مِن بُعد! إنها ليستْ حقيقية، إنها كاميرا للتصوير! متى توصلتم لذلك؟

في أمريكا ليس بهذه التقنية! لأُصابُ أنا بالذعر! وهي مُتَشبثة بها في يدها، غطّى العرق وجه د.«سميرة»، وبدا عليها الإعياء، اتجهتُ بها نحو كرسيها.

– حسنا أنّي سحبتُ مسمارها بسرعة، قبل أن يتخلصوا منها بتفجيرها، اتركها لي سآتي كنهها، أخالها أفتك من العقرب، حكيمة جدتك.

– تُحرَك عن بعد؟! ولهذا تعذّر عليها الخروج وتسقط في كل مرة.

وكيف عرفتِ ذلك؟ إنها تقنية حديثة! وأين هي العقرب؟

. وبتهكم (ألم تفهم؟ مسكينة جدتك!)، الحقيقة بدأتُ أشعر بالخوف، وعلينا أن نحضّر بعض المواد من السوق، الصيدلية، معمل المشفى او الجامعة. الآن أرجوك، كان يتحرك كالمجنون وهل هو غير ذلك؟ بل هو العبقري وأنا الأبله وعليّ أن أكون في خدمتها، بشقّ الأنفُس تحصلنا على أشياء وفشلنا في أخرى استبدلتْها ببدائل ربما تَفي بالمهمة – قالت – وغاب في غرفته.

ليلتها لم أستوعب، لم أنم! ماذا يحدث؟ لماذا هنا؟

وليلتها فكّكتْ «الخنفساء»، التقطتْ لها ولأجزائها الصور بالنقال، مصدومة وسعيدة بكشف الخدعة، لكن يهمها السرّ الخفي، ترسل وتستقبل وتخلط مواد ومحاليل وشرائح ولا أعرف ماذا أيضا؟ وجاءت النتائج أسرع مما نتوقع، وأغرب!

– ماهذا؟ انظر صورنا هنا نحتسي القهوة! يااااه صوري الذكورية مع «بوشنوارة»! وصندوق؟ هنا الصندوق مفتوح ويتبادلون فيه خرائط وأختام.. لاااا، لاااا طالعْ صور ساعة اعتقالي! لا أصدق!! وفي مكان مختلف، ربما مستودع!، أنا و«بوشنوارة» مع آخرين لا أعرفهم! يتبادلون معه أوراقاً وأشخاصا مقيدين! أنظر «فضل». متى حصل هذا؟ نحن في خطر، أليس من جهة نبلغها؟ جهة تحمينا؟ جهة تحقق في الأمر؟

– لستِ أنتِ دكتورة، هذا «جبر» الذي مع «بوشنوارة»، صديقي

«جبر» قبل أن تَحلّي جسده. وقد سُرّب إلينا أن المكان بصدد تقسيم جديد، أظنّها الخرائط والأختام! يا ربي! جيد أن الخنفساء احتفظت بالصور! عذرا أريدُ أنْ أرتاح دكتورة. سنجد حلاً. اهدئي.

– وكيف سأرتاح أنا؟ ما هذه الأحاجي التي تمطرنا بها ضاحية العجائب سيد «فضل»؟

* * * * *

ارتاحتْ نسبياً بعد علمها أنّ وجودَ «الخنفساء» هنا سبقَ مجيئها، فالمَعْنِيّ «جبر» أو «بوشنوارة» وليستْ هي، ونبّهتْ أن الجهة الفاعلة ستعلم اكتشاف أمر «الخنفساء» فورا، تفهّمتْ الكتمان فلا جهة تتفهّم وقد يسوء الحال، لكنّ الصندوق حقيقةٌ فأينَ هو؟ وماذا مع الخرائط؟ باتَ واضحا أن «بوشنوارة» وراء سؤال «غزالة» عنه، ما يعني أنّ سرّه في ذاكرة «جبر» فأنىّ لنا ذلك؟! مرّ يومٌ على صدمتنا كأنه عامٌ، لا نعرف مَن هم رُعاة الخنافس، ولا تبعات كشفها واحباط تفجيرهم، وفضح الصور، فكيف ستكون ردة الفعل التي قد تطالنا؟ لا شك أنهم قريبون من خيوط خنفسائهم، أغبط «جبر» المرتاح من الخوف، هل عليّ أن أعلم «بوشنوارة» ليحتاط؟ لا لا، قد يورطني معه! لابد وإن في غرفة نومه قطة! أما حديقته مليئة بالخنافس والسلاحف! بتُ أرى في كل كائن، في كل مقبض باب، في كل شيءٍ عينين! رميتُ القطة من الشرفة، وأحكمتُ غلق النوافذ والأبواب، وأطلقت مبيد البايجون في كل شق، كدتُ أختنق، الرطوبة والحر، ولا العيون التي تراك ولا تراها. أليس من حق البني آدم فينا، أنْ يستلقي في غرفته عاريا! أن يقف أمام المرآة يلعب بجسده؟ يبصق على وجهه، ويقهقه عاليا منتصرا؟ يعبث بوجه حبيبته المرسوم على ذراعه وينام! ليس أكثر، لن نخطط لانقلاب، ولا لصنع قنبلة، ولن نقرأ عن العلمانية، بعد الليلة سأرتدي بيجامتي الشتوية، وأكتب في الظلام عن الزهايمر، والسلس البولي عند الأطفال!

ما لم يكن في الحسبان صدمنا سريعا! في الصباح تناقلت الأزقة المفجوعة خبر مقتل أحد معالمها، اغتيال «بوشنوارة»، غارقا وسط دمه،

في مقعد سيارته المعتمة وعديمة اللوحات، بعد أن كان يحلم بمقعد في السلطة، ستّ رصاصات في صدغه الأيمن، لم تكتف بقتله بل ضيّعت معالم وجهه، مع بداية الصباح أبلغَ الأهالي عن وجود جثة مشوهة الوجه، إنه «بوشنوارة»! تعرفوا عليه من خلال شنوارته، وسبابته المبتورة، نشطتْ الضاحية في التحليل الذي تتقنه، عميلٌ وانتهى دوره! بياع حشيش وسلاح، ونسونجي، ومنافس كراسي، وتصفيّة حسابات! لديه أسرار في تورط شخصيات مهمة! و... و...! فهل للـ«الخنفساء» نصيبٌ في التحليل؟ فقد تزامن مقتله مع كشفها؟ لم أتوقع تأسُّف «لمياء»، واستغربتُ توتر «غزالة»، ورغم حيرتها لم تهتم د.«سميرة» لموته، لكن شغلتْها دواعي مقتله؟ ولحقها الخوف، أيلحق الخوف الموتى! أيلحق المجانين! أموعودٌ التعس «جبر» بالخوف؟ ولذا صار عالمة ذرة، تشعر د.«سميرة» بالانتماء إلى حالات الذواكر المستحدثة التي تلبستْ أجساد غيرها، لا أعرف أي نوع من الانتماء يمكننا أن نطلقه على هذا النوع، ربما قادها الخوف للالتصاق بالشبيه!

* * * * *

وأدهشتنا صفحتها..

وأدهشنا الليلة على صفحته بإشارة (هاشتاق#).

(فلتخرج أنصاف البشر من جحورها#).

ثم هاشتاق :

(غداً، طرف الضاحية، درب نهر الخلود نهر السراب#). (على المشوهين أمثالنا أن يخرجوا للواقع لأنهم واقع، وعلى الضاحية أن تعترف بنا، لأننا منها#).

لحظتها اتصلتُ بـ «لمياء»:

– هل وصلكِ هشتاق «جبر»؟ بل د.«سميرة»؟

– لو تعلم! ظهر علينا يبحث عن أدوات الحلاقة! مستفسراً إن سأل عنه أحد أم لا؟ ووقف مطولاً أمام المرآة في الحمام وهو يصيح:

القهوة يا «غزالة»، ألم يرن هاتفي؟ ألم يتصل «نصر»؟ غصّيتُ بالفرحة، وسألته:

كيف حالك أخي «جبورة»؟ الحمد لله على سلامتك ها أنت تتعافى، لا، لم يتصل «نصر» بعد، و«غزالة» مشغولة سأناديها.

فردّ: يا اه يا «لمياء» كأني في حلم جميل، وذلك الشيخ بخصلة الحناء عند النهر الساحر يناديني، وجرد عمي «الغناي» يلوّح إليّ، لو تعلمين! صداع! صداع! ونفضَ رأسه كأنه يريد أن يتذكر أمراً، وعاد يقول: نسيتُ ماذا سأقول نعم نسيتُ يا «لمياء». وعاد د.«سميرة».

. مهلا «لمياء»، شيخ بخصلة الحناء؟ د.«سميرة» أيضا تراه، الطريف أنها

عرفته هنا أي بعد احلالها «جبر»، والأغرب أن كليهما يراه مستقلاً عن الآخر، فمتى عرفه «جبر»!! ومن يكون؟

– لا أعرف، لكنه عاد سريعاً يقول لي بلسان د.«سميرة»: تعرفين «لمياء»؟ أؤمنُ أنّ كل شيءٍ جعله الله لحكمة، وأن مجيئ إلى هنا لم يكنْ صدفة، لكنني عاجزة عن معرفة ما وراء ذلك؟ ومسح وجهه ويديه، وعاد غرفته فما كان ينتظر مني إجابة.

– ولكنني أنتظر منك إجابة! دعيني من هلوسة «جبر».

– يا لاستمارك للكلمات! كم أنت بارع في ذلك يا «فضل». نسيتُ السؤال.

– متى سآتي لترافقيني إلى هنا؟ أتحرر من نظرات الفضوليين وأكون حراً فيك.

– من الفضوليين استوعب، لكن أن تكون حراً فيّ، هذه لم أفهمها. (وضحكتْ).

– وكيف سأوصلها لكِ هناك كيف عبر الذبذبات، ستعرفينها لاحقاً، وما زلت مصراً.

. ذبذباااات؟! أُصبتَ بالعدوى من سميرتكم؟ ثم لم العجلة؟ لا أظننا في ظروف تلاقٍ، سنخرج كلانا لطابور ومنه لغيره، ثمن علبة الحليب ثلاثون ديناراً هل سأرضعه قصيدة غزل؟ ومصل التطعيمات منتهِ الصلاحية، وسأضع يدي على قلبي حتى تعود، وإن عدتَ سأعلقُ نظري على الباب أخشى اقتحامه.

– خلاص، يكفي، يا لرومنسيتك! ما هذا «لمياء»؟ ما دمتِ تعينَ هذا الشقاء ألا تدعمينني بكلمة ليّنة؟ جُملة دافئة، عودي مستبشرة لأقوى بك.

– وكنْ واقعياً، (سُئل ما العقل؟ قال الإصابة بالظن ومعرفة ما سيكون بما كان). لا حمل لنا بالزواج.

– طالعي «لمياء» طالعي «هشتاق» جديد، تدعو أصحاب الذواكر للخروج مع الفجر.

(علّق اسمك على لافتة، ساعدوا القُصّر على ذلك#).

– مجنون أخي يا «فضل» هل سنتركه يخرج؟

– لا أظن، لا أتوقع أن يخرج أحد. ثم كم سيكون عددهم؟ ثلاثين؟ أربعين؟ لا تقلقي.

– كن قريباً من البيت فجراً، ألا ترى التفاعل مع ما ينشره؟

– نحن في الضاحية، نحن لسنا شرقاً ولسنا غرباً، لا تحركنا المناشير، عموماً لا تقلقي سأكون في الموعد، كوني مطمئنة وهاتِها، هيا أني اشتهيها الآن.

أقفلتْ الخط في وجهي.

لا بأس... لو لم تفعل ذلك فليستْ من الضاحية لن تكونَ من «الحي2»، أحبُّها رغم صَدّها لي، رغم جنونها وتناقضاتها، قسوتها ولينها، «لمياء» قلبٌ خام مثل الضاحية، مثل «الحي2».

* * * * *

- 4 -

تنام الضاحية سُخنة العين، تتوسد الكنوز والمتون بينما جوفها يجتر أمعاءَها الخاوية، فاتحة ذراعيها لتحتضن الجميع، يمتصّ القادمون والنازحون والعابرون حلمتيها.

تبتسمُ الضاحية مصقولة الأنياب ضاوية الجبين، تبتلع دموعها ولا أحد يرى العصابة السوداء حول ذاكرتها المشقوقة.

تمدُّ ضفائرها المعقوصة بعيداً، ترسل فيها خرز الجدّات وتمائم العذارى، اقتربتْ السماء الليلة تتدلّى منها عناقيد الأساطير، فهل كانت د.«سميرة» تعي ذلك وهي تدعو الذواكر المستحدثة الخروج فجر هذه الليلة؟

وهل لجرد عمي «الغناي» علاقة بهذا الإيحاء، طالما «جبر» صار يسافر ويعود بذاكرته ولو نادرا؟

لِمَ يفعل «جبر» هذا؟ ماذا يريد من هؤلاء المشوهين! لا يجمعهم سوى أنهم ليسوا هم، ناشدهم أن يحتفلوا ويتظاهروا بهيئاتهم التي اقتحمتهم، بل إنها عالمة الذرة الفاعلة، خيوط الظلام تنحسر أمام شرائط الفجر الاستثنائي ملونة بترانيم الشجن والحبور في آن، وكفّ الضاحية يتضرّع بالستر، ولسانها يلهج بالدعاء لأبنائها المصابين بداءٍ باطن لا يظهر لطبيب ولا يُذعن لدواء.

دلقتُ على وجهي غرفتين ماء من وعاء البلاستيك الذي أدخره فيه،

وهرولت نحو السيارة متحديا الرقابة، استعجل الوصول إلى «جبر» قبل أن يخرج، علّني أنجح أن أثنيه عن ذلك وأشكّ وأنا أعرف عنادها، وهي الداعية الآخرين لإشهار أنفسهم! فقط لو أعرف ماذا ينوي؟ بل ماذا تريد د.«سميرة»؟ هل التأسيس لحزب المهمشين من ذوي الإعاقة الفكرية أمثالها و«جبر»؟ حينها سيكون حزباً غريباً، يتحدث فيه الأحياء مع الموتى، أظنه أفضل من أحزاب الضاحية، يخرج الحزب من صدره ضلعاً أعوجاً يسميه لجنة المرأة! أوَ ليست المرأة عضوا في الحزب كبقية الأعضاء وكفى! هذا ما أذاعت به محتجة «للمياء»، فلا أظنها تتوق بهم إلى حزب، وهم كلّ من طينة.

أنا بتفكيري البسيط أرى في هذا التجمهر دعوة إلى التعددية، وإلى الوحدة الإنسانية بمآسيها، فما رُصد من هذه الذواكر في سجلات المشفى، كمن يرصد كلمات متقاطعة، طرقها مسدودة لا تلتقي إلا في الرقعة التي رُسمت عليها.

أمام الباب تقف وليس «جبر».

في مثل هذا اليوم جاءنا د.«سميرة»، وها هي د.«سميرة» في عامها تقود حالاتها للخروج، ترتدي باروكة قصيرة ووجه بُولِغ في تنعيمه إلا من اسوداد منابت الشعر، ولواقط شعر رفَعتْ بها مقدمة باروكتها الكستنائية الداكنة، وقميصا مقلما باللونين الأصفر الهادئ والرصاصي، مع تنورة حتى الركبة وساقين لم تفلح في نزع كل الشعر عنهما. كانت «لمياء» تتعمد الحديث معها حتى أصل، أخبرتني أنها لم تقتنع بلبس السروال، وأصرتْ على مظهرها أيام عملها، كانت سعيدة حدّ النشوة، وواثقة حدّ اليقين حدّ

الاطمئنان، وكأن الذي أمامنا ليس «جبر» بنظراته المترددة، أزحته عن ناظريّ، ونقلت لها ارتياحي لهبّات الفجر التي زادتها طراوة (إياك أعني فاسمعي يا جارة)، ابتسمت الجارة، وسعدتْ العالمة بهذا الإطراء واعتبرته دليل دعم لمشروعها، الذي سأكون شاكرا لو أوضحت صورته، قالت:

.كم أتوق أن أجد قامات تحقق لي إشباعاً ذاتياً، إلى عقول ذات قيمة، كم أنا سعيدة اليوم، وأشكر «لمياء» على وقوفها معي.

– لا تنسي أنهم ليسوا حقيقة، أنهم أناس لبستهم عقول غيرهم فتشظوا، عذراً لم أقصد، أعني أنهم ليسوا طبيعيين، أيضاً لا تفهميني خطأ، أعني أنهم يعانون أوااه! ماذا أفعل؟

– أتفهمك سيد «فضل» هذا حوار، لا ضير أن نختلف لكن لنتقبل الآخر، إنهم حقيقة سيد «فضل»، العقول حقيقة أينما وجدت؟

هل تؤمن بأجسادهم التي تموت ويأكلها الدود، أو ترهقها في حياتها الحرارة، والسياط، والطوابير، ولا تؤمن بذواكر العقول التي تبقى رغم موت أصحابها، مَن يحمل التاريخ إذاً؟! توصيات أمك، همس حبيبتك، شارع طفولتك؟ وازّاي عرّفتُكوا عن هويتي؟ عن نفسي أتمنى ألا تضيع ذاكرتي. لا أريد أن ينتهي ما بدأته، صرتُ أخشى أن يكون جسدي رهين ذاكرة غيري، لا أحبّ ذلك! ذو الخصلة قال:

توقيعاتهم حبرٌ سجين ورقٍ وصندوق، يذيبها الندى، وتوقيعاتنا حُرّة، أختامٌ مطبوعة على التراب، تُزهِر بالبلل.

– اصح «جبر»!.. أووف.. بعد عمر طويل د.«سميرة»، (انتي بكده حتدخلينا في مسائل تانية!) ليست كل العقول كعقلك قادرة على ذلك دكتورة، أنا أعجز عن ذلك، ما رأيك د.«سميرة» الحديث شيق والحوار معك لذيذ، ما رأيك تكملته بالداخل هيا. مازال ظلاما!

– بطل شقاوة بقىَ، عايز تشغلني عن مشروعي، دنا لازم أكون أولهم، ما يصحش يروحوا وما يلاقونيش، يا الله! أنظر، ها هي الاستجابة أزهرتْ وأثمرتْ، لا شيء يعلو على فرقعة مزاليج الأبواب الحديدية، وخلع الأقفال عن معاصمها، رجاء سيد «فضل» أسرع بي نحو التبّة حيث الساحة، حيث اللقاء، لأُشْرف وأمتّع ناظريّ و... كانت في ذهول وصدمة، وهي تراهم يتوافدون من أقصى الضاحية وأدناها خطوطا متعرجة، وسواقي بَشَر تلتوي وتمتد، تلتقي وتتباعد، لتحتك كلما دنت من درب السراب، صمتٌ عن الكلم، فالمنظر لا يوصف بكلمات، الذي استغربه هو هذا العدد المهول، من أين جاء كل هؤلاء هل أُصيب كل أهل الضاحية بِداء الذواكر؟ هل الجميع فقد ذاكرته؟ يا ويحنا!

فوق التبة تقف مثل ربّة!

واللافتات تقترب كلٌّ تعلن عن ذاكرة حاملها، يا للإلهة! قوافل بشرية جلّها من الشباب! نساء ورجال، هيئات وقيافات متباينة، كلّ العصور هنا، يا له من حَجٍّ! يا له من طوفانٍ بشري!

إنه (ابن خلدون) لا أصدق ذلك، يكفي هذا هنا، أين العالم أين

الإعلام، كيف السبيل (د.سميرة) هل ترين ما أرى، لم تجبني كانت شاخصة في الجموع، صار شابا هنا! أيعقل أن يحمل هذا الشاب فكر العملاق (ابن خلدون)! يا إلهي، لا أصدق! إنه الشاب بائع الخضار يحمل ذاكرة (هتلر)؟ ماذا حلّ به! ألم يلتحق بإدارة الأعمال؟ ازدحمتْ اللافتات تنبئ عن (نابليون)! وهناك شيخ المجاهدين (عمر المختار)! وخلفه (عبد القادر الجزائري) وعلى اليمين هناك (يوليوس قيصر)، ما هذا السحر؟ لا أصدق من؟ إنه (الحبيب بورقيبة)، لا يعقل أبداً أن هذه الصبيّة (مانديلا)؟ ياا ربي هاهو وسيمٌ يحمل الشاعر «درويش»، ما أسعده، من أين ظهر هؤلاء؟! وشابة ترفع البطلة (مبروكة العلاّقية)؟ وصبيّ يلوّح بالملكة (علّيسة)، ومن بعيد إنه (الفرزدق)؟ لا... لا.. رجل يحمل (أم كلثوم) هذه كارثة، وامرأة تحمل (معاوية) أما هذه فمأساة، ها هو (سوفوكليس) هذا عرفته، أنه شاعر يوناني، أقلّه يحمله شاب وسيم، وامرأة تحمل (ولادة) وهذا مقبول، كم تمنيت لو تقترب لأسمع منها إجابة، لم أتوقع هذه الغرائب. اللافت معظمهم في سن الشباب.. شباب.. شباب.. هبطتْ «د.سميرة» من التلة، أظنها ستصافح شخصية أعجبتها.. ترى عمن تبحث؟ سارتْ بخفة نحو الجموع.. هرولتُ خلفها لكنها التحمتْ معهم.. قفلتُ مكانها فوق التبّة لأسهّل عليها إيجادي.. كانوا يتدافعون في الفضاء الفسيح، حوارات جانبية.. وصدامات.. وبعضهم في حالة هستيريا أم جنون!.. بعض المرافقين يجاهدون تهدئة مُصَابيهم.. وشاب صغير يجري نحوي هرباً من مرافقه وينادي «فضل».. «فضل» انحدرتُ من التبة بسرعة ملاقيه لأتحرّى خَطبه، فأنا لا أعرفه، فكيف يناديني!

– نعم أخي ماذا تريد؟

– ما بك فضل؟ ألم تعرفني! أنا «جبر» لا تتركني معه إنهم يحتجزونني لم يسمحوا لي الرجوع إلى بيتي، عندي كلام لك، وإذا بالمرافق يعتذر عنه:

– يا سيدي هذا ولدي «زياد»، فوق أنه معاق غاب يومين، هدّنا فيهما البحث عنه، وما إن عثرنا عليه، يصرخ ويقول اتركوني أنا «جبر»، أمه تكاد تُجن، كيف نتركه على هواه؟ بربك أخبرني؟

أصبتُ بالدوار، لم أستوعبْ، كنت مفتوناً بينهما وبين د.«سميرة» التي ضاعت مني وسط جموع أمثالها.

– أرجوك يا «فضل» هل ستصدقه؟ أنا «جبر»، أعرف الطريق إلى بيتنا، ما أخبارهم؟ هل «غزالة» و«لمياء» في البيت؟ دعني اترك يدي (لمرافقه).

– اهدأ يا أخي اهدأ.

– أخوك؟ ما بك «فضل»؟ ألست صديقك الصدوق؟ أنسيت المدرسة و«الحي2»؟ أنسيت النزوح، تكلم «فضل»، لستُ أمزح، أنا محتجز، واستغربُ تنكرك لي! أريدك في أمر مهم، لا تضيع الوقت. وجذب رأسي إليه، وهمس: عندي صندوق عليّ إخراجه، لا أعرف ما به، ساعدني، دفنته جوار قُبة الشيخ «الصالح»، ثم انفرد بي هنيهة: عدتُ مرة إليه لأخرجه وجدته مسحوراً ليس هو، صار كبيرا لا حدّ له، تعال معي، لا وقت. أنا «جبر» فقط تغيّر شكلي، هل عليّ أن أقسم لك؟

–. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا تصدقه يا أخي إنه مريض، إنه ولدي

«زياد»، ساعدني كي أعود به إلى البيت.

انتزع الشاب يده من مرافقه، وشقّ الجموع، فهل يقصد «جبر» بعينه؟ إذاً عمدَ البيت.

أخذ الرجل في تلابيبي، عرف أني خيطه إلى «جبر» بل إلى «زياد».

– سيدي، أنا بحاجة إلى الراحة، أشعر بالدوار، قد ضاع رفيقي «جبر» في الزحام، وجه «جبر» الحقيقي بذاكرة د.«سميرة».

– ألم تستوعب بعد يا أخي؟ إنه ليس «جبر» إنه «زياد» إنه ولدي.

لن يفهمني والد «زياد» وأجد له العذر.

الحقيقة لم أتعاطف مع هذا الشاب، الذي يقنعني بأنه صديقي «جبر» رغم تفاصيله المقنعة، فهل الجمجمة مقرونة بالشكل؟ وهل ظهوره في هذا اليوم، وفي معاق صدفة؟

لم تعُد د.«سميرة» بعد، بل لم يعد «جبر»! ترى ماذا يحدث لو التقاه (زياد)؟ أعني التقته (ذاكرته)؟ اختار أن يعود بها إلى الضاحية، بينما آثرت ذاكرة د.«سميرة» أن تسبح مع جموعها، أية علاقة وأي صدام!

يا لتعاسة هذا الفتى! وبؤس الضاحية، أما كان باستطاعة الرب أن يضع هذه الذاكرة الشقية في جسد هرِم تتوقف عنده؟ أما كان من العدل أنْ يهبه ذاكرة مرتاحة؟ وهل عليّ أنْ ألاحقَ أيضا «جبر» في هذا المراهق المعاق، لأشهد مأساته الغريبة مع جسده حديث النمو، مع زوجة مقام أمه ستستهجن ظهوره، ومع «ابنٍ» لا أعرف كيف سيربطه به و«صالح» الشريد؟ ومقتل

«بوشنوارة» ووحده يحمل سرّ الصندوق!؟ و....و.. هل أتوقف أم أفتح على نفسي هذه الرواية الجديدة شديدة الغرابة؟! أية علاقات هذه!

الصندوق! يااااه، لا شك أنه يقصد الصندوق لغز «غزالة»! ما أغباني، هو ما يهمني الآن، سأعود «لسميرة» لاحقا، هرولتُ صوب ما تبقى من «القُبة»، لم أرها بعد رميها بقاذف، ما أحببتُ الوقوف على فزع صلاّحِها وساكنيها، أي عقلٍ يقتل الموتى يفجّر أقبيتَهم بعد أنْ تركوا لهم الحياة وقصورها؟ أي بشرٍ يستفزهم الجاوي والحَمَام! دخلتُها اليوم، فقدتْ عبقَ الجاوي وتعاويذَ الأمهات، طارَ الحمامُ، لا شك طار مِن القبور مَن له أجنحة، أما الموتى فباقون فيها وخارجها.

يا للهول! جلبة أقدام كانت هنا! جوار القبة حُفرة ممتدة على مسافة أمتار، وأمتار! قراءَتي تقول أنّها مكان الصندوق اللغز، الصندوق الذي سُحِر! كيف غادر؟ هل استُبدِل ما خبأه فيه «بوشنوارة» وعصابته بشيء ضخم وغريب؟ وما القوة التي أخرجته! وأين هو الآن؟ عدتُ محبطاً، لا زالتْ الساحة تموج، ولا زالت اللافتات تتوالى! ولا زال والد «زياد» يطلب مساعدتي!

أخبرته أنّ «جبر» ضاع مني وسط الجموع ولابد من إيجاده «فسميرته» لا تخبر الضاحية! لم يَفهمْني، عذرتُه فكلانا يبحث عن الوجه الضائع في أجساد الجموع، أبحثُ عن وجه «جبر»، ويبحث هو عن وجه «زياد»!!

فهل انتصرنا «لجبر» الجسد ونخشى فقدانه؟ كما انتصر وجه «زياد» لدى أبيه؟ متناسين غياب الذواكر؟

لا أظن سيكون لـ«جبر» دور! ولا لـ د.«سميرة».

ها هو اليوم يُكمل عامه مشطوراً بين د.«سميرة» و«جبر»، و«زياد»!

أيهم سيكون «جبر»؟ وهل سيكون؟

ولم يعُد لبعض الأسئلة قيمة، تموج الساحة اللامتناهية، صخبٌ، وعجيجٌ، وصريخ، هرجٌ وهتاف، تتداخل الفوضى العجائبية بأصواتها الظاهرة غير المفهومة، هدير سيول من حناجر مكبوتة، حناجر (الفوقبشرية)، كالتي تصلنا عبر الموجات المخابراتية في ألحان استعراضية طبيعية بتلقائية جموعها.

رأيتها د.«سميرة»، ترتفع وسط لافتات مُريديها، تعلو بهامتها نحو الأعلى فوق المد البشري ورایاته، والأذرع تمتد إليها تطلبها، تسبح مستلقية يفترش ظهرها برد الفجر..

لا أعرف متى دُثِّر «جبر» بهذا البياض؟ لا شيء سوى وجهه!، وجه «جبر»..

وفي غفلة! هناك مستترا بنجمة الصباح لمحته، جَرَدْ عمي «الغناي»، يرتعش يخفق وراء تبدّدِ الظلمة، قلبٌ يتلهف لقاء العمر، يستعجل عناقاً، «وجبر» يسبح مستلقيا على ظهره في مستوى أفقي غير بعيد عن جموعه التي تتقافز نحوه، فهل ستخبُر لحظة التحرر من الأرض، لحظة الطيران؟ وفي ومضة ضوئية مبهرة اتسعتْ المسافة دونه، دون «جبر»، كان يرتفع في مدارات تتسع وتضيق ممدوداً أبيض في وضعه الأفقي، خمّنتُ أنه رأى جَرَدْ عمي «الغناي»، فهل تذكّره؟ أم قادَهُ إليه الذوقُ والاحساس؟

يرتفع «جبر» عاليا مخلفاً مكانه صندوقا تتبادل الأيادي حمله فوق هاماتها العالية، صندوق عملاق، ممتد بشكل أفقي، غطّي الصندوق كل الجموع، كلّ الفضاء، تتلقّفه الأيادي العاشقة، وفي خلق بديع كانت أقبية من المُزن كالعهن المنفوش تتطاير منه تملأ سماء الضاحية، تتفجر أقبية المزن تتصاعد وترتفع من الصندوق المسحور، وتتوالد بأعداد مهولة، مهولة! فمَن سَجنَ المزن؟ مَن حرّر الغيم؟ وما دور هذه الذواكر؟ يفرد جَرد عمي «الغناي» أطرافه الأربعة، مرقوما بنقش الجدات، صار يبتسم! يرقص جرد «عمي الغناي» بين المُزن الحُبلى بالبلل، أثارتها لمسة فارتعشت رعشة الهطول، هَوَى الجَرَد بفؤاد عَاشق، ضلوعا حانية، رقعة بيضاء موشحة بعلامة الضاحية وتراقيم المسد، وبانحناءَة عاطفة ورائعة يتلقف «جبر» يحضنه طائرا به في تماوجٍ ساحرٍ وسط المطر وتحايا البرق والرعد، طائرا به بعيدا، بعيدا طرف الضاحية المسحورة بالنور والجن والسراب!

تُرى إلى أين؟!

وإلى أينَ تسيرُ «الضّاحِيَة» بْعدَ هذا الخُرُوج المُثِير؟!

«عائشة الأصفر»

مارس / 2018م

«سيرة ذاتية»

- عائشة عمر الأصفر 1956م. ليبيا.
- نشأت وتقيم في سبها.
- ليسانس فلسفة جامعة قاريونس بنغازي ليبيا / 1987م.
- كاتبة وروائية، ينشر لها على عدة مواقع أدبية.
- صدر لها روايات:

1. اللي قتل الكلب 2007م.
2. خريجات قاريونس 2007م.
3. اغتصاب محظية 2012م.
4. النّص الناقص 2017م.
5. علاقة حرجة 2019.

- أول امرأة تقود الطائرة في ليبيا، وتحصلت على إجازة طيار خاص1974م.
- مؤسسة لحركة زهرات وفتيات الكشافة بالجنوب الليبي 1973.

- وشاركت بالمخيم العربي الرابع للمرشدات العربيات بالموصل ـ العراق ـ 1972م.
- وحائزة على وسام الوفاء الكشفي من مفوضية كشاف سبها.
- من رائدات النهضة النسائية بليبيا، وحضرت العديد من الملتقيات والندوات الثقافية.
- تقلدت وسام الدولة (الفاتح) للريادة في مجال الطيران.
- تقلدت وسام الدولة (الفاتح) للريادة في مجال العمل الشعبي.

لا تؤمن بقضية منفصلة للمرأة، ولكن بقضية إنسان، وأزمة عقل.

إيميل aish.lsfr@yahoo.com
facebook.com/profile.php?id=100004841171378